وحدتنا .. طريقنا الى عصر جديد

منذ أن أصدرت « المعرفة » عددها المشهود عن « الوحدة العربية »«١» ، وهي ما تني تحاول أن تطرح شعار الوحدة في كل مجالات الحياة العربية ، الوحدة في السياسة، والوحدة في الاقتصاد ، والوحدة في الجيوش ، والوحدة في التثقيف ، والوحدة في التخطيط – ادراكاً منها أن الوجود العربي على الأرض العربية رهن بالوحدة ، وأن بقاء العرب على قيد الحياة أحياء فاعلين في التاريخ قيد الوحدة ، وأن بقاء العرب عرباً في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين مشروط بالوحدة ...

ذلك أمر لم تحتج جماهير الأمة العربية الى اكتشافه في حرب رمضان بل كانت قد اكتشفته قبل ما يقرب من قرن ونصف القرن ، حين رحبت بالجيوش المصرية عام

(١) « المعرفة » العدد ١٢٧ – ١٢٨ ، أيلول تشرين اول ١٩٧٢ .

١٨٣٠ وواكبتها لتدك أسوار الخلافة العثمانية التي تكبلها عن ركب الحضارة ،واكتشفته جماهير الأمة العربية في الثورات المتلاحقة وفي صد الغزوات المتلاحقة منذ ذلك الحين في كل المعارك المجيدة التي خاضتها في ١٨٧٠، ١٩١٧، ١٩٢٥، ١٩٣٦، ١٩٤٨، ١٩٥٦ : ثم توجت نضالها في وحدة ١٩٥٨ : ولقد توحدت أمتنا في النضال على أرض الجزائر والمغرب الكبير الى أن تحرر وتعرب، وها هي تجتمع اليوم ، كما لم تجتمع منذ ذي قار ، على حدود المجابهة مع اسرائيل والصهيونية والامبريالية الأمريكية والايديولوجية الغربية التي لا تخلو من عنصر عداء للعرب يكاد يكون عرقياً – تاريخياً قد لا ينتهي الا بفتح باب التطوع واتمام الحملة الصليبية الثامنة ضد الأمة العربية وتطلعاتها الى وحدتها السياسية وحريتها الاقتصادية في استخدام ثرواتها لبناء القاعدة الصناعية المتينة التي تفتح بها أبواب التقدم والمشاركة في بناء مستقبل الانسانية .

ذلك أن الوحدة ليست سياسة وان كانت تقوم على قرار سياسي : الوحدة هي التقدم ، والتقدم هو أولاً القدرة على الدفاع عن النفس ، وهو أولاً – أيضاً – انشاء الصناعات الثقيلة والصناعات المتقدمة ، وذلك لا يكون الا بمشاركة عربية كاملة : مشاركة بالرساميل ، مشاركة بالمواد الخام ، مشاركة بالايدي العاملة ، مشاركة بالعقول المختصة : وان أية ايديولوجيا لا تجعل الوحدة العربية هدفاً استراتيجياً وتكتيكياً لتحركاتها ، هي ، في نهاية التحليل، ايديولوجيا رجعية لأنها تعجز عن ان تفتح لمجتمعها الاقليمي باب التقدم الذي لا يفضي اليه غير طريق واحد اوحد ، هو طريق الوحدة العربية .

ان نظرة الى التاريخ القريب للكيانات العربية الاقليمية تظهر بوضوح ان هذه الكيانات قد جربت جميع انواع النظم السياسية التي يستند كل منها الى ايديولوجيا معينة ، من اقصى اليمين الى اقصى اليسار ، ومع ذلك فقد كان حاصل التطور زهيداً الى حد يكاد لا يذكر ، لأن هذه الكيانات ، بحكم تكوينها ، تجافي منطق العصر : منطق التطور والتقدم باتجاه التصنيع الشامل الذي يحتاج الى موارد قارية والى سوق داخلية قارية ايضاً ، ولا يكفل عنصري التقدم هذين سوى دولة عربية تقوم من المحيط الى الخليج، قادرة على اعادة توزيع البشر والموارد، واعادة تشغيل البشر والموارد بحسب احدث مقتضيات التصنيع والتوزيع .

من هنا كان فرح جماهير الأمة العربية بالتضامن العربي الذي ظهر في حرب رمضان ، ومن هنا كان خوف هذه الجماهير على هذا التضامن ان ينفرط عقده ونرجع الى ما كنا فيه من تنابذ يكاد ينكر حق الرابطة القومية – او لعله يقوم على انكارها بالفعل ، وان لم يجرؤ على التصريح .

لقد رحبت الجماهير العربية بالتضامن استبشاراً منها لا بدفع الخطر فقط – وهو عظيم – بل بانشاء ارادة عربية تتشارك في السلم والاعمار والتصنيع والاقتصاد والزراعة والثقافة ، بغية النهوض بالمجتمع العربي الى مستوى من المدنية يؤهل الأمة العربية لأداء رسالتها الخالدة في الحضارة الانسانية وتحرر البشر . وان في خلاص العرب خلاص العالم .

رئيس التحرير

* * *

التضامن العربي حقيقة لا مطلب

أديب الملجمي

لأول مرة في تاريخنا المعاصر ينكشف
عمق وأصالة التضامن العربي بفضل حرب

التحرير التي واجهنا بها اسرائيل في تشرين الأول الماضي . إذ لم تكتف الحكومات العربية بالإجماع على موقف سياسي موحّد تجاه المأساة الفلسطينية ، بـل كان الاجمـاع الشعبي العربي هو أكثر الظاهرات وضوحاً ،فتجلّى ، ولأول مرة أيضاً منذ قيام اسرائيل فوق الأرض العربية ، بتماسك الشعب العربي كله في مختلف اقطاره ، كما تجلى بلقاء الجنود العرب أسرة واحدة تصد عدوان العدو ،وتستشهد دفاعاً عن الأرض العربية التي غدت فعلاً ، لاقولاً ، ممتدة من الخليج الى المحيط . واتضح ، كما قلنا في مقال سابق ، ان التماسك العربي لم يكن وليد الهجمة الاسرائيلية والعدوان الصهيوني ، بل هو موجود منذ قرون . بيد ان العقلية الاقليمية وما رافقها من تسلط خارجي ومن تجزئة للوطن العربي جعلت هذا التضامن يختبىء خشية ان يناله السوء .

والآن وقد أصبح التحرر العربي يدور بالدرجة الأولى حول محور التضامن ، فإن من الخير ان نستجلي هذا المفهوم قدر الإمكان ماشروط . استمرار التضامن العربي ، بل واستمرار نموه ؟

آ- إذا كان ثمة من يتصور ان التضامن العربي هو « سياسة » فإن التضامن يغدو في هذا المفهوم وسيلة لسواه ، أي وسيلة لتحقيق سياسة عربيـة معينة . فاذا علمنا ان السياسة العربية أكثر من واحدة، فان التضامن يصبح رهناً بالتقاء العرب حول مفاهيم سياسية واحدة ، يستمر باستمرارها ويزول باختلافها. أي ان جعل التضامن العربي في خدمة السياسة العربية ، يؤذي التضامن ويقلب لا الواقع ، بل ماتطلع إليه . ذلك ان التطلع العربي انما يهدف الى جعل السياسة في خدمة التماسك القومي ، لا العكس. واحد الشواهد على ذلك ما أصاب المقاومة الفلسطينية من تمزق في بعض فترات الماضي بسبب ارتباط كل فصيلة من فصائل

هذه المقاومة بسياسة عربية مختلفة عن السياسة الأخرى ، الأمر الذي أدى بدوره الى جعل البحث في وحدة فصائل الثورة الفلسطينية أمراً شائكاً ، تطلب جهوداً كبيرة في سبيل الوصول الى كيان يضمها كلها ويوحد فيما بينها .

ب ـ واذا كنا نفهم التضامن العربي على أنه « مرحلة » أملتها ظروف الوجود الاسرائيلي العدواني فوق أرضنا ، وأن هذا التضامن يمكن أن يتلاشى بمجرد زوال العدوان الاسرائيلي واعادة الاراضي العربية المنتزعة اثر عدوان ١٩٦٧ والتوصل الى حلول مقبولة بشأن الشعب العربي الفلسطيني ، فان التضامن في هذا المفهوم هو « سياسة » لا اكثر ، ونخطىء اذ نسميه تضامناً ، وحتى لو أصررنا على هذه التسمية فاننا نكون قد جعلنا التضامن ، مرة اخرى ، في خدمة اغراض ليست بدورها أغراضاً قومية . وفي هذه الحال أيضاً نسيء إذ نلحق التضامن بسلوك قصير النفس ، قصير الهدف ، يؤدي بالنتيجة الى خنق التضامن لا الى انتعاشه .

ج ـ واذا كنا نفهم التضامن العربي على انه مطمح نتوق اليه ، فمعنى ذلك اننا نسلم ضمناً بأن العرب ليسوا امة واحدة ، وبأن مايفرقنا اكثر بكثيرمما يجمعنا . وفي هذه الحال يكون صحيحاً ما تمارسه اسرائيل من حرب نفسية ضدنا إذ تحاول اقناعنا ان الشعب الفلسطيني لاعلاقة له بالعرب ، وان مصر هي غير سورية ، وأن العراق هي غير لبنان وهكذا . هذا مع العلم بأن اسرائيل نفسها تعرف تماماً اننا امة واحدة ، ولأننا كذلك فهي تريد ان تشككنا بانتمائنا القومي الواحد ، وأن تقوض تضامننا الطبيعي الذي هو وليد هذا الانتماء .

ان التضامن العربي لا تحدده حلول المشكلة الفلسطينية ، ولا تسوية النزاع العربي مع اسرائيل . اذ لو افترضنا ان اسرائيل لم تقم بالأصل فوق التراب العربي ، لما انتفى وجوب قيام التضامن العربي ووجوب استمراره بالتالي . ان التضامن

العربي هو التعبير الاول لحقيقة القومية الاولى التي ننادي بها ، حقيقة أن العرب امة واحدة . فاذا كانت هذه الحقيقة حقاً فعلاً ، لا حقاً زائفاً ولا باطلا ، فان اول تجلياتها تكون لا بانفراط الشعور العربي ، ولا بتمزق السلوك العربي ، بل بتماسك ذلك الشعور ووحدته ، وتماسك تجليات هذا الشعور وافعاله .

إما أن العرب امة واحدة ، وفي هذه الحال فان تماسكهم ظاهرة طبيعية لوحدتهم ، وإما ان وحدة العرب هي مجرد شعار وامنية لا حقيقة تاريخية ، وفي هذه الحال فان التماسك العربي هو إضافة على الوجود العربي لا اشتقاق منه .

إذا سلمنا بالحقيقة الاولى ترتب علينا ان نسلم بحقيقة مشتقة منها هي ان التماسك العربي اصيل ، وان ما اصابه في الماضي وما قد يصيبه في المستقبل من ضمور وخفوت إنما هو حصيلة قهر ، ونتاج كبت .

واذا سلمنا بالفكرة الثانية ترتب علينا ان نسلم ايضاً بنتيجتها ، وهي ان التماسك العربي مطلب يجب العمل من اجل بلوغه . ذلك اننا حتى لو افترضنا وصدقنا اننا لسنا امة واحدة ، فان مانواجهه معاً من تحديات العصر وتهديدات العدوان الامبريالي العالمي ، وما تتطلبه منا عمليات النهوض والتقدم والتطور الى امام ، كل ذلك يدعونا الى ان نعمل متضامنين ، متماسكين .

هكذا ، ومن أية جهة ننظر الى الموضوع نرى أن التماسك العربي ضرورة بكامل معنى الكلمة ، ضرورة تمليها حقيقة الانتماء القومي الواحد ، وضرورة تمليها تطلعات العرب نحو المستقبل . ومن هنا نستخلص أيضاً أن بلوغنا حقوقنا المشروعة في فلسطين لايستتبع أبداً زوال تضامننا ، بل يستتبع حكماً ضرورة استمرار هذا التضامن ، لان تطلعاتنا الحضارية تشترطه ، وتدعو اليه ، بل ان اي انجاز حضاري لنا في هذا العصر مرهون بمدى الجهد المشترك الذي نقوم به .

معنى ذلك ان التضامن العربي لايشترط في وجوده أية شروط ايجابية بقدر مايشترط إزاحة عوامل كانت وما تزال تعيقه عن التفتح والنمو . ليس مطلوباً من أي مسؤول عربي أن يبشر بتضامن الشعب العربي في مختلف اقطاره بقدر ماهو مطلوب منه الا يضع العقبات ويثير الصعوبات في وجه هذا التضامن الذي هو شكل من اشكال وجودنا القومي . ان اكبر خدمة نقدمها للعروبة في الظروف الراهنة على الاقل ، هي الا نعيد سلوكنا المتضامن ، الذي تفتح في حرب التحرير العربية الاخيرة ، الى حالة الكمون والكبت . قد تواجهنا الكثير من الاشكالات المترتبة على فرقة امتدت زمناً طويلاً ، بيد ان اصرارنا على تجاوزها وإزالتها بفضل إصرارنا على الابقاء على هذا التضامن ، هو اقل مايترتب علينا مواطنين وحكاماً .

من هنا كان لابد لجميع المنظمات السياسية العربية من ان تنطلق من هذه الحقيقة البسيطة ومفادها ان المصير العربي الواحد يحتم على كل منظمة ومؤسسة سياسية عربية ان تركز جهدها على ابراز النقاط المشتركة التي تلتقي بها مع اية منظمة سياسية عربية اخرى ، وان تستبعد نقاط الاختلاف والتباين . بذلك يمكن القول اننا قد استخلصنا من حرب تشرين الماضية اكبر درس ايجابي ، وبذلك ايضاً نستطيع ان نربح معاركنا المقبلة في سبيل ترسيخ كياننا القومي وتفتحنا الحضاري وبناء مستقبلنا المتجدد .

مرة اخرى نؤكد على ان تركيزنا على حقيقة التضامن العربي ليس دعوة الى شعار جديد ، ولا دعوة الى شعار مرحلي ، بل هو تكريس لواقع قومي عميق عملت الوف الاهواء والمصالح الضيقة والنظرات السياسية القصيرة على اخفائه حيناً من الزمن ، بل عشرات من السنين ، ثم جاءت حرب التحرير في تشرين لتزيح

عنه جميع السجف والحجب ولتتيح له من جديد ان يؤدي نصيبه في الجهد البناء الذي يمارسه العقل العربي والعمل العربي .

* * *

لولا هذا التضامن لما تمكنا من حمل الغرب كله على الاعتراف لنا بحقوقنا بصرف النظر عن قناعته او عدم قناعته بعدالة هذه الحقوق . وبدون هذا التضامن لن يكون بمقدورنا ان نحقق مانصبو اليه . لقد كان ومـــا يزال التضامن العربي موضوعاً يفهمه الآخرون من وجه ، ونفهمه نحن من وجه آخر . حقاً ان موقفنا الموحد هو الذي منحنا دعماً صادقاً من شعوب افريقيا ودولها ، ومن شعوب آسيا وحكوماتها وهو الذي زاد من دعم البلاد الاشتراكية لكفاحنا العادل . ولكن الغرب الذي يضمر لنا عداء تاريخياً متأصلاً، انما ينطلق في عدائه من حقيقة اننا امة واحدة ، وان لدينا الكفاءة لمنافسة الغرب ، لا في اعمال التدمير ودوس الحق ، بل في احترام العدالة واشاعة السلام والاخاء بين شعوب العالم ، والتباري في العمل الجاد من اجل بناء حضارة انسانية تحترم الانسان بدلاً من ان تخنقه .

ان الغرب يتضامن ضدنا حتى في تزييفه للحق ، وفي طمسه للنور . إنه يمارس تهويشاً بكل الوسائل ليؤلب العالم ضدنا ، ونحن لانملك من رأس المال المجدي إلا هذه الوحدة القومية التي بفضلها احتمينا من هجمات الإبادة والإفناء طوال العديد من القرون .

« ان خطأ البلاد التي استسلمت اليوم للضغط ، وستستمر غداً أكثر فأكثر سائرة في طريق التنازلات المناهضة لاسرائيل ، يكمن في تقديرها أن سلاح البترول لن يطبق إلا في موضوع الشرق الأوسط فقط ... ولكنه سيستخدم غداً ضد البرتغال وروديسيا وأفريقيا الجنوبية » . بهذه الصفاقة التي لاتعرف حداً يكتب بول جينيفسكي Paul Gyniewski هذا الكلام في صحيفة

تدّعي أنها مستقلة وموجهة لكبار المثقفين ورجال الادارة والأعمال في فرنسا ، هي صحيفة لوموند في عددها الصادر في ٦ كانون الأول ١٩٧٣ . ان هذا الكاتب العجيب يرى خطأ وشراً ان نفكر باستعمال سلاح النفط ضدّ أنظمة فاشية ، عنصرية ، اجرامية تمارس سلوك قطاع الطرق منذ عشرات السنين في افريقيا الجنوبية والبرتغال ، ومؤخراً في روديسيا ، ولا همّ لها إلا إبادة السكان الأصليين من الأفارقة أصحاب الحق الشرعي في بلادهم وأراضيهم . ان هذا الكاتب يعتبر شراً وذنباً أن نتضامن نحن العرب مع الافريقيين من أجل إحقاق الحق ، وتقويض الظلم وتصفية الاستعمار . ان الحق في نظر أمثال هذا الكاتب لا يصدر إلا عن الغرب ؛ وكل ما يفعله الغرب هو خير ، حتى لو كان ابادة شعوب بأمرها ، وحرمان الملايين ومئات الملايين من أبسط حقوق الحياة والعمل . إن مجرد نداء يصدر عن العرب من أجل احترام العدالة والحق هو في نظر الغرب إثم لا يجوز السكوت عنه ولا يحق للعرب أن يصدروه. حتى حين نطالب اسرائيل بالانسحاب من الاراضي التي احتلتها في عدوان حزيران ١٩٦٧ ، وتعترف معنا منظمة الامم المتحدة والاكثرية الساحقة من دول العالم وشعوبه أنه لا يجوز لاسرائيل أن تتوسع بالعدوان على حساب العرب ، حتى حين نفعل ذلك انسجاماً مع مبادىء الحق والعدالة والشريعة الدولية ، يجد كثيرون من كتاب الغرب اننا مذنبون . انهم يقيمون الدنيا ويقعدونها لان سورية لم تنشر بعد قائمة بأسماء اسرى الحرب الاسرائيليين (من حرب تشرين الماضية) ولكنهم لا يحركون ساكناً أمام عشرات الالوف من أعمال القتل والابادة الفردية والجماعية ، وتدمير البيوت التي مارستها سلطات اسرائيل طوال ست سنوات ونصف بحق المواطنين العرب الذين يعيشون في الأراضي المحتلة اثر عدوان ١٩٦٧ . هذا هو موقف السيدة سيمون دي بوفوار وأمثالها ، وهكذا يفهم هؤلاء المثقفون القانون والعلاقات الدولية

واحترام الكرامة الانسانية . ان هؤلاء المثقفين الغربيين ، من أمثال سيمون دي بوفوار وبونسكو وجينيفسكي ، موصوفون في بلادهم بأنهم « ثوريون » ، و « تقدميون » ، ومناهضون الاستعمار . ومــع ذلك فان مجرد بقظة التضامن العربي تخيفهم وتعريهم من جميع ثياب « الثورة » التي يلبسونها والتي تدر عليهم بالمناسبة ، مغانم كثيرة لدى الاجيال الناشئة في أوروبا . في تقديرهم (المفتقر الى ابسط درجات المنطق) لا يجوز أن نتضامن في سبيل قضيتنا ، ولا يجوز لنا أن نستخدم ما لدينا من وسائل ، من جملتها البترول، لردع العدوان وإحباط استمراره على أهلنا ووطننا. في مقال المعلق الامريكي وليم راسبيري نشرته صحيفة واشنطن بوست في عددها الصادر بتاريخ ٣ كانون الاول ١٩٧٣ ، أشار المعلق إلى هـذا الرياء في موقف الغرب بالنص التـــالي : « لماذا يكون « دبلوماسياً » تصرف الولايات المتحدة عندما تستخدم مواردها كعامل ضغط في سياستها الخارجيــة ، ويكون « ابتزازاً » تصرف العرب عندما يفعلون الشيء ذاته ؟ . . .

« إننا كثيراً ما سمعنا بوصف الحظر العربي على صادرات النفط ابتزازاً بحيث أخذنا نعتبر هــذا الوصف حقيقة واقعة . ولكن عندما نقدم القمح الامريكي ، والعتاد الامريكي ، والتقنيات الامريكية وحتى القوة العسكرية الامريكية، ونحجبها كلها أو بعضها لنؤثر على الوضع الدبلوماسي للدول الاخرى، فذلك يبدو وكأنه أمر في غاية المنطق ...

إني سمعت اقتراحات ثلاث مرات خلال الاسبوعين الماضيين ، مفادها أن النفط العربي يجب أن « يدول » وأن توزعه الامم المتحدة أو ما يشابهها . ولو أن احداً اقترح « تدويل » المعادن الثمينة في جنوب أفريقيا أو تبغ كوبا أو قمح الولايات المتحدة لسخرتم منه » .

كذلك يقيس الغرب القيم والمفاهيم . للمفهوم الواحد معنيان متناقضان . كل ما هو في صالح الغرب حقيقي وصحيح ، وكل ما هو في صالح العرب باطل. وطبعاً الحق حق للغرب فقط ، أما للعرب أو لشعوب افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية فهو باطل

مرة أخرى نفكر في بديل عن التضامن العربي لمعالجة وحل المعضلات ومشكلات التعهر التي تواجهنا ، فلا نجد بديلاً عن التضامن الا التضامن . وإذا كان هناك من المسؤولين أو المثقفين العرب من يعتقد ان تخلي فئة او بلد عربي عن هذا التضامن ، في فترة قصيرة او طويلة ، امر ممكن ، فمن المؤكد ان ذلك ممكن ولكن على حساب مستقبل العرب كأمة ، وعلى حساب مستقبل ابنائها ، ومن اجل ارواء شهوات أو أطماع شخصية . وقد آن لنا كلنا أن ندرك بأن الامة أبقى من الفرد ، وبأن أي تصرف يصدر عنا مؤدياً الى تفكك وحدتنا القومية انما هو خدمة كبيرة ، لا لامتنا ، ولا لمستقبلنا الحضاري ، بل لاعدائنا وجميع من يريدون السوء بنا .

* * *

في الرومانتيكية العربيّة

الدكتور شكري فيصل

مدخل :

آ – حين تخصص مجلة المعرفة هـذا العدد لتبحث موضوعاً أساسياً من موضوعات الحياة العربية في حاضرها وفي مستقبلها ، حين تطرح قضية استمرار التضامن العربي والارتفاع به الى أعلى ذراه وأبعد مداه ، حين تفعل ذلك فانها تستجيب الى أعمق ما في نفوسنا من تطلع ، وتتلاقى مع كل مايراود أذهاننا من تطورات وفكر . . وتتيح لنا أن نفتش عن الأرض الصلبة التي نضع عليها أقدامنا مشتركة في طريق واحد .

ان المجلة بعملها هذا تستثير عندي بخاصة عاطفة العرفان والشكر . . ذلك أني حين قدّمت في العدد الماضي اقتراح موضوع هذا العدد وراجع هامش الصفحة

٢٥ من العدد ١٤٢ ، ورجوت أن يكون موضوع معالجة مشتركة ، لم أكن أحس أني وحدي في هذا الاقتراح ، لم يكن ذلك تعبيراً فردياً وانما كان تعبيراً جماعياً .. كنا كلنا نتطلع الى تجاوز هذه المسافة بين الذي نحن فيه والذي نتطلع اليه . . كنا نحس أن آمالنا تستعجل الأحداث وتسبقها ، وأن أفكارنا تحاول أن تشق الطريق بين ما نحن فيه وما نطمح اليه .. كنا ، ونحن نعيش جو المعركة الظافرة، نتمنى ان تكون حركة التاريخ نحو المستقبل اشد اندفاعاً واقوى زخماً ، وكنا نرى في انتصارنا على الرعب والأهواء والتفرقة اعظم انتصار نريد له ان يتسع وان ينمو وان يكون بحق نواة الانتصارات الأخرى المرتقبة كلها ...

من أجل هذا تمنينا على المجلة ان تجاوز الحديث عن الذي كان الى الذي سيكون ... ان تفرد هذه الظاهرة الأصيلة بالبحث لتتضح كل افاق المستقبل ، ولتكون رؤية هذا المستقبل واضحة من غير خوف منها ومن غير خوف عليها .

ان نتجاوز الواقع والقيد والأهواء ، ذلك هو بداية كل انتصار .. افلا تستحق هذه البداية ان تكون هي وحدها التي تستقطب حركتنا النفسية والفكرية .. حركة الأفراد وحركة الجماهير ..

ب – ولكني الى ذلك . الى هذا الشكر الذي اجدني اقدمه بين يدي الحديث .. احس شيئاً من عتب خفيف .. ان المجلة تتحدث عن التضامن العربي .. عن استمرارية هذا التضامن . ويوشك لفظ التضامن عندي ان يكون مقصراً تقصيراً .. انه يشبه ان يكون رداء مقصوص الأطراف مشقق الجوانب لفارس فحل .. انه يكاد يكون اضعف الألفاظ التي يمكن ان تستعمل في افق الحياة العربية : ما بدا من هذا الأفق وما يمكن ان يتكشف عنه بعد ..

منذ خمس عشرة سنة كان ينعقد في القاهرة ـ فيما اذكر الآن ـ مؤتمر الاتحاد

القومي . كان الرئيس الراحل جمال عبدالناصر يطوف في قاعات الاجتماعات ، يستمع ويشير ، يتحدث ويصغي ، يستمع ويجيب ، و كنت استمعت اليه في واحدة من اللجان يتحدث عن الوحدة العربية مستعيراً مصطلح التضامن العربي فلم اتمالك - والوحدة فيما نؤمن عقيدة وسياسة ، ماض ومستقبل ، ارث ومصير - ان استأذنت لأتحدث في هذا الذي نؤمن به ونلقى المستقبل والله عليه .. ولعلي اذكر اني قلت آنذاك ان رجال السياسة يستطيعون ان يستخدموا هذا التعبير او ذاك ... ولكننا في مؤتمر صفته الشعبية هي الغالبة عليه ، لانحب ان نتيح للسحاب والضباب ان يغلفا حقيقتنا الأصيلة .

كنت أعلم وأنا أقول هذا ، أني أضع الرئيس الراحل في موقف حرج . اني قد أضطره الى الحديث عن الوحدة في الوقت الذي كان الاستعمار يمثل فكرة الوحدة بين الأقطار العربية ، على أنها تسلط واستئثار ومشاركة في الثروات ... (ولكن الله أكرم من أن يصاب العرب بمثل هذا التشويه .. ولعل الذي حققته معركة رمضان تجاوز حي واضح لكل ما كانت الدعاية المسمومة تحاول ان تنفثه) ..

ومع ذلك فقد آثرت أن اتكلم على هذا النحو بعيداً عن أي مداراة لان « المصطلح » هو الذي يجسد الفكرة وهو الذي يحاول ان يمنحها أبعادها ، وهو الذي يعطيها قوامها الفكري وقوامها النفسي ، ولذلك لا بد لمثل هذه المصطلحات من أن يظل لها مفهومها الواحد الذي تشتعل جوانبه كلها بالضوء المضيء ، الذي يطارد كل لبس .. ويطرد كل غموض ..

من هنا بدت لي لفظة التضامن و كأنها نوع من المرطقة .. انها أشبه باللفظ الدخيل الذي لا يمكن ان يحمل كل أصالة الفكرة وأن يلم بكل حدودها . لم تعد « حداً » من الحدود التي نلتزم بها جميعاً يدخل فيه – اذا ساغ لنا استعمال

ألفاظ المناطقة في الحدود ـ ما هو منه ، ويخرج منه ما ليس منـه .. ان لفظة التضامن تفسد هـــذا المصطلح ، تفسد صفاءه و كأنما تريد ان تمتص أجزاء من أجزائه الحية ..

لماذا ؟ أهذا نوع من الضيق النفسي ، من التزمت ؟ كلا .. بل نوع من الوضوح .. الوضوح الفكري من نحو ، والحقيقة الابدية من نحو آخر ..

ان التضامن يتم اليوم بين شعوب لا صلة بينها ، بل انه يتم بين شعوب جرت دماؤها أنهاراً في حروب متصلة فيما بينها .. انه يتم بين جمـــاعات لا يكاد يجمع بينها شيء إلا هـذه الظروف الطارئة الجديدة التي تريد أن تحل بينها نوعاً من التضامن .

ولكن ما شأن العربية وهذه الالفاظ ؟ .. ما صلتها بها إذا كانت لاتعبر عنها ، عن أصالتها ، وإنما تنتحل و كأنها تشير إلى ظروف طارئة عليها .. وأين تقع لفظة التضامن هذه من هذا التاريخ المشترك والواقع المشترك ، والمصـــير المشترك ؟ أين تقع من وحدة اللغة ، وما يقارب الوحدة في الدين ، ومن وحـدة الفكر . أين تقع من حياة ملايين الملايين على مدار خمسة عشر قرناً .. في هـذا المطاف العريض من أسوار الصين إلى حدود بواتيه ؟.. كيف يستسيغ ضميرنا الفكري ـ إن صح هذا التعبير ـ أن تكون هذه اللفظة من مصطلحنا ؟.

ليكن إذن حديثنا حين نتحدث ، عن الوحدة . ليكن ذلك مصطلحنا ومعتقدنا . لتكن الوحدة رؤانا ورؤيتنا .. إنه مـــا من عبث كانت الحركة العربية تجمع ، منذ انطلقت ، بين الوحـدة والتوحيد إنه من أجل هذا التوازي الفكري كان هذا الاشتراك اللفظي .

إني لذلك إنما أتحدث هنا عن الذي أعنيه ـ عن الوحدة .. أفلا يكون ذلك من خيري ومن خير القارىء ومن خير الحديث ؟ ..

الموضوع :

إذا تجاوزت هذه المقدمة ـ أكانت إلا جزءاً أساسياً من الموضوع ـ إلى مابعدها استبان الموضوع على أنه هذا :

في سلسلة التجارب الأخيرة ـ ودَعْ عنك التاريخ ـ التي خاضها العرب ، كان هنالك هذه المنظومة من الحقائق التي تحمل برهانها في ذاتها ، والتي تتسلسل على النحو التالي :

ـ لاتقوم الحياة العربية في قطر ، ولايملك قطر ماحريته إلاّ حين تلتئم فكرته وتتوحد قواه الوطنية .

ـ لاتقوم الحياة العربية في مجموعة من هذه الأقطار على سوقها ولايشتد ساعدها إذا لم تقم في كل تصرفاتها، على أساس النظر إلى الوحدة المقبلة والانسجام معها.

ـ القدر الذي تحققه الحياة العربية في المستوى القطري أو في المستوى القومي من النجاح هو القدر الذي تحققه من الوحدة .. إنه مرهون بها.. والقدْران يمثلان خطين متوازيين .. يتحرك أحدهما بقدر مايتحرك الآخر .. وعلى قــدر مايكون التقدم على طريق الوحدة يكون التقدم على طريق المستقبل .

ـ الانتصارات الأخرى ـ بعيدة عن هذه الموازاة كلها انتصارات زائفة، والمنجزات الأخرى موقوتة .. إنها تشبه الزبد الذي يعلو ظهر الموج ، قديكون حياً ومتحركاً ولكن حركته وحياته ليست أصيلة فيه .. إنها جزء من حركة الموجة وحياتها وقد يكون منظره حلواً من وراء الخلفية الزرقاء التي ينبسط فوقها .. ولكنه لون مخادع لايلبث أن يذوب .. إن أي رفاه اقتصادي أوتقدم

اجتماعي مستقل عن المجموعة العربية إنما هو رفاه مكذوب وتقدم مخادع .. إنه ثمرة برية قد يكون لها رواء الثمرة ولكن ليس له فائدتها ولا طعمها .. إنه هذه الثمرة المصنوعة من الشمع يكاد يخدعك منظرها عن طبيعتها المضللة .

هذه المنظومة من الحقائق تؤكدها وتبرهن عليها وتؤكدها سلسلة من الوقائع والايام والأحداث لاسبيل إلى عرضها الساعة .. إنها تكتسب قيمتها المطلقة من أنها :

١ - مستمدة من الواقع فهي ليست نظراً من الانظار ، ولا رأياً من الآراء ، وإنما هي الواقع نفسه تراه في كل قطعة من أرض هذا الوطن الكبير ، وفي كل جزء منه .

٢ - مؤيدة بالتاريخ .. على أنها هي تاريخ هذا الشعب العربي ، على امتداد هذا التاريخ وعلى امتداد رقعته .

فاذا كانت هذه هي منظومة الحقائق ، وهذه هي صفاتها فكيف يمكن أن يكون سير الحركة العربية ؟! ..

إننا لانملك في الإجابة عن هذا السؤال شيئاً من الخيار ، ليست لنا ابة فرصة للتردد .. إننا مدفوعون بالعفوية وبالمنطق .. بالفطرة وبالعقل .. بالتفكير البطيء أو بالتفكير السريع .. إننا مدفوعون إلى أن نجيب بأن الحركة العربية يجب أن تواكب هذه الحقائق وأن تتزود بها .. بمعنى أنها يجب أن تتجه - دون شك - في كل اتجاه يضمن لهاوحدتها أو قدراً من هذه الوحدة .. وأنه حين تكون هنالك طريقان أحدهما يساير الوحدة والآخر يخالفها .. أحدهما يواكبها والآخر يناقضها .. فإن الطريق الذي يماشي الوحدة هو وحده الطريق الذي يجوز لنا أن نسلكه .. وإلا كانت الحركة مضـــادة للتاريخ .. مضادة للواقع .. مضادة

المستقبل .. أي أنها حركة عقيم .. بل هي نوع من الإجهاض المتصل الذي هو أقسى من العقم ..

إذا كانت الأمور بمثل هذا الوضوح فما الذي يمنع الحركة العربية من أن تأخذ مسارها الطبيعي ؟ لماذا تخاف هذا الاتجاه أحياناً وتحذره أحياناً .. وتتجنبه أحياناً ؟ لماذا لاتبصره في كل جزئية وفي كل كلية من حياتنا... لماذا لاتكون لنا سياسة دولية واحدة ؟وسياسة اقتصادية واحدة ؟ لماذا لم يتحقق لنا حتى اليوم القدر الأدنى الذي لابـــد منه .. لماذا استطاعت دول غربية في أوربا على مابينها من عداوات أن تسير في طريق الوحدة الاوربية على حين تظل الوحدة العربية وكأنها سراب من السراب ؟ .. لماذا لانحتفظ بالوتيرة العالية من السلوك الأخـــلاقي الوحدوي الرفيع الذي كان خلال معارك رمضان ؟ ..

أتراني أعود من جديد إلى طرح المشكلة ؟!

في بعض ماحاول كيسنجر - وزير الخارجية الامريكية - أن يقوله وكأنه يداعب الغرور القومي عندنا ، وكأنه يحاول إسكاته عن طريق إثارته ودغدغته . إننا نخاف الرومانطيقية العربية .. إن كيسنجر يريد أن يشير إلى هذه الهبة العربية الواحدة .. إلى مجموعة هذه الفضائل التي نسميها المروءة والتي يتركز فيها قدر من المثل العربية .. إنه يعبر عن حذره من هذه المفاجآت ..

ولكن لماذا تظل الحركة العربية سلسلة من المفاجآت .. يشتد تواترها ثم يضعف .. فاذا هي وكأنها في مكانها .. لماذا نتخذ هذا الطابع الرومانتيكي ثم لانجاوزه إلى ماوراءه من طابع عقلاني ؟!

ليست المروءة سلوكاً موقتاً .. المروءة سلوك أصيل ودائم .. أو يجب

ان يكون أصيلاً ودائماً .. فما الذي يمنع أن تتغلب الاصالة الاصلية على المظهر العارض ؟!

ها هنا تبدو لي أنا كذلك مخاوف أخرى تقف على النقيض من مخاوف كيسنغر .. أو هي تتكامل معها في إحدى النهايتين .. إن الرومانطيقية العربية هي التي تخيفنا نحن كذلك .. اي يخيفنا منها الجانب السلبي.. الاحساس العميق بالذات أو غلبة اللون المحلي أو الاندفاع نحو الشخصي أو الخاص. .هذه الرومنتكية الاخرى التي يحاول كيسنغر ان يثيرها في نفوسنا من حيث يتحدث عن الرومانتكية التي يخافها .

من هنا يبدو ان سير الحركة العربية ـ بعد إذ يلتزم بمنظومة الحقائق التي ذكرت ويصدر عنها ـ يجب ان يتجاوز هذا الطور الرومانتيكي الذي يشبه ان يكون سيفاً ذا حدين : البراعة البارعة في استعماله تتبدى في ان نخرج به عن ان يكون سلاحاً يهدد الذات الى ان يكون سلاحاً يهدد العدو ، بعض الرومانتيكية العربية تدفع إلى التناصر ، ولكن بعض الرومانطيقية العربية قد يدفع كذلك إلى التنابذ ، بعض الرومانطيقية العربية حي ودائم ، وبعضها آني وذاتي . وبإيجاز ، بعض الرومانطيقية العربية يدفع إلى ابعد التضحيات ، ولكن بعضها يدفع الى اقصى الحذر .

ان الرومانطقية العربية الايجابية هي التي تبدت خلال معارك رمضان وما حوله .. ولكن الرومانطقية العربية السلبية هي التي تبدت ، تقريباً ، خلال أكثر الفقرات الحديثة من تاريخ العرب .

أليست هذه الرومانطيقية السلبية هي التي طبعت تاريخنا الجزئي القريب ؟ اني حين أعرض لتاريخ السنوات العشرين الاخيرة أكاد أحس وكأني أمزق

جلدي بأظافري أو أقتلع بيدي شعري .. وإلا فكيف يستطيع الانسان ان يفهم أو ان يفسر سيرة العلاقات بين الاقطار العربية .

في خلال عشرين سنة لم يبد أن قطراً ما عربياً استطاع أن يقيم علاقة سليمة مع قطر آخر استمرت علاقته طبيعية او منتجة اكثر من ستة أشهر .. ان شريط هذه العلاقات حافل دائماً بالقطيعة والوصل ، باللقاء والفراق ، بالصداقة والعداوة . أنا اليوم صديق لك ، ثم أنا بعد ذلك وكأنني عدو .. وأنت تمد إلي اليوم يداً ثم يفسد ما بيننا على نحو ما فاذا يدي مع غيرك .. وغيرك هذا كان في يوم معك وكان في يوم مع سواك .. ثم تتكرر الصورة .. وكأننا في مدار مرسوم لا نكاد نخرج عنه .. كأننا كرات على مائدة خضراء .. يضرب بعضها بعضاً .. يظهر بعض ويغيب بعض ، يطفو بعض على السطح الأخضر ، ويسقط بعض في مستقره .. ثم تمتد يد (أية يد هذه) فتعيد الكرات الى مثل موضعها ثم تفرق بينها ثم تضرب بعضها ببعض العصا هي العصا . والكرات لا تدري أين مكانها من السطح او مكانها من القرار .

ولم تكن هذه الصورة في شرق الوطن العربي وحده ولكنها قامت كذلك في غربه .. ولكنها كانت كذلك بين شرقه وغربه .. وأوشك ان استخدم لغة الانفعال والتحدي لأقول : ان وفاقاً عربياً لم يدم وفاقاً من غير ملل او فتور مرة تزيد على الاشهر المعدودات .. حتى وحدة ٥٨ .. حتى هذا الأمل الذي اعاد العرب من جديد إلى ساحة التاريخ وقهر للمرة الأولى ـ بعد صلاح الدين ـ تفرقهم حتى هذه الوحدة لم تعدم بعد ستة اشهر من كان يشرب الشاي في القاهرة ويقسم على قطعها .. لم تعدم من ظن ان الشام قد مسخت . فجاء يغني لها ويردد نشيدها وما نشيدها في معركة التاريخ ؟ .. أكان تاريخ هذه المنطقة الا هذه الحركة المتكاملة بين مصر والشام ؟ بين القاهرة ودمشق ؟ ! .

هل هي الرومانطيقية العربية الايجابية التي تصنع النقيض والرومانطيقية العربية السلبية التي تصنع النقيض الآخر .

اني اذهب من غير تردد الى ان الجانب السلبي من الرومانطيقية دخيل علينا في اكثره .. القوى الغربية التي يهمها ان يبقى الوطن العربي مزرعة لها هي التي نمت عندنا هــذه الجوانب السلبية .. ان اصالتنا كفيلة ان تسدد هذه الرومانطيقية في افضل المسالك الى افضل الغايات .. وحينذاك لانخافها نحن وحدنا وانما يخافها كيسنجر وحده .. ومع ذلك فنحن في هذه المرحلة ـ لا اتردد في ان اعترف ـ قد نساق او قد تسوقنا هــذه الرومانطيقية السلبية فكيف نخاص الى ردعها .

ان المشكلة تتبدى دائماً من جديد هي هي .. ولأن السؤال صميمي وعميق فانه يتشكل مرة اثر مرة دون ان ينكمش او يتراجع ..

ويبدو ان لاشيء يمكن ان يؤلف هذه القوة الرادعة في هذه المرحلة التي يختلط فيها ما بين الصور السلبية والايجابية للرومانطيقية مثل ان نضبط السلوك العربي كله الا السلوك السياسي وحده ـ فنصدر عن القناعة الفكرية بديلاً من ان نصدر عن الانفعالات الآنية .

اني لا اتحدث عن الفكر التطبيقي ، عن العلم وعن سيطرة التقنية وعن استخدام الآلات .. تلك كلها امور عظيمة جداً رائعة جداً .. ولكني اخشى ونحن نؤكد عليها ـ وذلك حق ـ ان ننسى الأصول الـــتي تنبع منها والأجواء التي تتكامل فيها .. اننـــا نسرف أحياناً في تمجيد بعض الحقائق في حياتنا الى حد ننسى معه بعض الظواهر الأخرى .. وهل هناك من شك في انه لو كانت عندي تقنية الشرق والغرب معاً وكنا هذه الجمـــاعة الممزقة فان ذلك لن يعني شيئاً ؟!. ان من اروع انتصاراتنا هــذا التوافق مع التطور الجديد في استعمال

الأسلحة .. ولكن اروع انتصاراتنا كانت ، لاجدال، في اننا انتصرنا على أنفسنا وعلى تجزئتنا وعلى فرديتنا في عمل مشترك تعاقب بعضه اثر بعض وتلاقى بعضه مع بعض ليضع السلاح في هدفه ومستقره .

الصدور عن القناعة الفكرية ومجانبة الانفعالات الطارئة والوافدة هو الاصل اذن ... هو الضمان المؤكد لاستمرارية التضامن ونموه ليتشكل بعد ذلك وحدة كاملة .

ولكن من الذى يملك ان يصل بين القناعة بالفكرة وبين التصرفات العملية ؟ . . ما هي القوة التي تملك ان تربط دائماً بين الفكر والتصرف ؟ .. بين النظر والعمل ؟

* * *

هاهنا يبدو أننا نحتاج إلى سلطة جديدة .. سلطة فوق السلطات القائمة .. ومهما تكن الكلمة مخيفة ، مهما تكن مثيرة ، فاننا ـ هنا أيضاً ـ نحتاج إلى أن نتقبل الفكرة واللفظة على السواء تقبلاً عقلانياً .

سلطة جديدة فوق السلطات القائمة ؟! . مامعنى هذا في خضم هذه الكيانات الجزئية القائمـــة ؟ مامعناه في حدود طموح هذه الكيانات الصادق أو في حدود طموحها الكاذب .. في حدود ماتحاول أن تقوم به وما يجب ان نقوم به ؟ . .

ليست السلطة الجديدة زيادة في الاصفار ولازيادة في الارقام تقع وراء الاختصار .. ليست تتويجاً كاذباً ، ولامعالجة سطحية ، ولا كلاماً يسطو فوق الصحف .. ولكنها يجب أن تنبع من إيماننا بأن هذه الانظمة المتجزئة يجب أن تؤول إلى نظام واحـد .

السلطة الجديدة ليست قوة فوق القوة ، ولا سلاحاً فوق الاسلحة ، ولا دستوراً جديداً ينضاف الى الدساتير ، ولاحركة تتراكم فوق الحركات ، ولاحزباً فوق الاحزاب .. إنما السلطة الجديدة سلطة القناعة الفكرية التي قدّرنا او قررنا اننا يجب ان نصدر عنها . انها لذلك يجب ان لاتثيرنا وان لاتخيفنا ..

إن هذه السلطة تنبع من سلسلة من المبادىء ، ويشرف عليها مجموعة من الرجال .

اما المبادىء الكبرى التي تطلقها وتنطلق منها فهي هذه :

ـ الانسان العربي واحد اين كان والجماعة العربية جماعة واحدة اين استقرت من ارض الوطن العربي .

ـ المصلحة العربية مصلحة واحدة لاتقتصر على قطر دون قطر .

ـ تقاس المصلحة العربية بقدر شمولها واستمراريتها ومستقبليتها .

ـ مكانة الانسان العربي بقدر العمل الذي ينهض به . وكل قيمة اخرى قيمة مصطنعة او مضافة .

وأما الذي يشرف عليها ،هذه السلطة ، فهو الفكر ، .. يمثل هذا الفكر ويجسده رجال من رجال الجامعات والاختصاص والفكر (ينتخبون او يختارون او ..) يكونون موضع الثقة وموضع الاجماع .. يؤول إليهم امر التخطيط ويؤول إليهم امر الاحتكام إليهم في كل مايكون من خلاف .. هؤلاء الرجال ـ الفكر لاجنسية لهم إلا الجنسية العربية ، لايرتبطون بحكومة ولاحزب ولاجماعة وإنما يحملون مسؤولية الجماعة ..

فاذا ربطنا بين المبادىء التي تنبع عن هذه القناعة الفكرية وبين الرجال الذين يجسدونها ، كان مابين ذلك انما هو مجموعة من الاجهزة العربية التي تتناول كل جوانب الحياة ـ وصورة الاجهزة في الجامعة العربية صورة ضئيلة لها ـ .

ماذا يضير العرب ان يسلموا انفسهم للقناعة الفكرية وحدها ؟ ماذا يضير رجال السلطة في الوطن العربي ان يخضعوا للقناعة الفكرية وحـــدها ؟. ماذا ينتقص من شأنهم إذا هم لجؤوا إلى مبدأ الاحتكام في كل ما يختلفون فيه ثم جعلوا من رجال الفكر الذين يثقون بهم المحكمين في خلافاتهم ؟.

لقدجرب العرب قيادات كثيرة .. فلماذا لا يجربون ـ إلى جانب ذلك ـ قيادة الفكر .. الفكر الجماعي ؟.. أهي طوباتية ؟ أهي مثل عليـــا ؟ ولكن أليست المثل العليا هي التي تهب الوجود العربي سلامة موقفه وصحة حركته ؟.. وماذا ننشد إلا المثل العليا ؟ ..

اني اقدر ان كثيرين قد يفغرون افواههم دهشة ؟.. سيتمثلون الصعوبات كلها .. ولكننا انما نشكو هذه الصعوبات ، ولا بد لنا من حركة ما نحو تجاوزها. ان هـذه الحركة لا تمكن إلا ان تكون خلقاً وفكراً ، سلوكيـة رفيعة ونظراً ناضجاً .. الخلق السليم هو الذي يقود إلى الفكر ويضمن استقامته ، والاخـــذ بالقناعة الفكرية هو الذي يضمن سلوكاً رفيعاً لا يتعرض لرياح الاهواء .

ان لم تكن هذه هي المشكلة : الجوانب السلبية من الروما نطيقية .. ولم يكن هذا هو الحل .. فماذا اذن تكون المشكلة و كيف يكون الحل ..

ان كان الواقع هو الذي يسيطر على الفكر فيشله .. فكيف يكون اذن التغلب على الواقع الا بأن يسيطر عليه الفكر او يقوده .

اذا كان الف الأشياء وعدم الخروج عنها هو الذي نشكو منه ، فكيف نستطيع ان نظل اسرى لهذا الالف.. أسرى لمواقف التجزئة والمصلحة والأهواء

لماذا لاندعو لسلطة جديدة هي سلطة الفكر وحـــده ورجال الفكر وحدهم . .

واقع بين التخوف والطموح

الدكتور عبد السلام العجيلي

في زيارتي الأخيرة لدمشق ، بعد وقف اطلاق النار بأيام قليلة ، سألني اصحابي الذين جمعتني بهم فيها احدى الحلقات عما اراه في الحالة الحاضرة ، فأجملت لهم رأيي بهذه الكلمات : قبل المعركة كنا نتوقع اسوأ مما جرى ، وبعد بدئها طمعنا بأحسن مما جرى ، وتوقفت فوجدنا ما جرى مقبولاً !

وقد قلت يومها رأيي هذا بعفوية ودون اعمال فكر . الا اني حين ترويت فيما قلته وجدتني لا استطيع ان ازيد فيه كحكم على واقع الحال كلمة . وان استطعت ان اقول كلاماً كثيراً في الخلفيات التي دفعتني الى الاعراب عن هذا الحكم . فثمة مجال لتفصيل الأسباب التي جعلتنا، نحن بسطاء المواطنين البعيدين عن معرفة خفايا التخطيط السياسي والعسكري ، جعلتنا نتوقع من المعركة اسواء وكوارث تنزل بنا . ومجالاً لتفصيل الأسباب التي دفعتنا ، نحن هؤلاء المواطنين البسطاء ، بعد مفاجآت الأيام الأولى من

المعركة ، دفعتنا الى ان نطفر من موقف التخوف والتشاؤم الى مواقع الطمع بتحقيق آمال لنا كانت في نفوسنا كالأحلام . كما ان ثمة مجالاً للتفصيل في الحديث عن الوضع الذي صرنا فيه عند وقف اطلاق النار وعن التقييم الواقعي لمسيرتنا ولتوقفنا ، ولما اخذ منا وما اخذناه ، ولما انفقناه وما ربحناه .

* * *

قبل بدء الحرب ، حرب ٦ تشرين الأول ، كنا نتوقع من المعركة التي نخوضها ضد اسرائيل اسوأ مما جرى . لماذا ؟

واضح أن توقعنا كان حصيلة تجاربنا المريرة ومشاهداتنا المستمرة وتتبعاتنا للأحوال من سياسية وعسكرية في كافة انحاء الوطن العربي وخلال عشرات السنين الفائتة ، وعلى الاقل منذ عام ١٩٤٨ . نحن ، كما قلت ، مواطنون بسطاء بعيدون عن معرفة خفايا التخطيط السياسي والعسكري ، او اننا بسطاء لأننا بعيدون عن تلك المعرفة . لذا فاننا نبني احكامنا على ما نراه باعيننا وما نتمرس به من تجاربنا الشخصية وما نطلع عليه بقراءاتنا وتتبعاتنا . وهذه المصادر كلها كانت تدعونا الى ان نسيء الظن ونتوقع الكوارث من كل مجابهة عسكرية لنا مع عدو الأمة العربية ، المغتصب لأرضها والطامع في التوسع فيما اغتصبه منها ، اسرائيل . خضنا قبل حرب السادس من تشرين الأول ، مع هذا العدو ، ثلاث حروب لم تكن واحدة منها في صالحنا . وفي الفترات بين هذه الحروب الثلاث خضنا معه عشرات المعارك التي ما كان النصر لنا فيها حليفاً صادقاً . من المعقول ، او من المقبول على الأقل ، ان نقول اذن بأن تجاربنا المتكررة في محاربتنا لاسرائيل كانت تجارب غير مشجعة لنا ، جديرة بأن تنمّي الانهزامية في نفوسنا وبأن ترينا في اسرائيل عدواً لا يقهر وفي الاسرائيليين مقاتلين جبابرة يغلبون ولا يغلبون ...

قلت ان هذا من المقبول ، ولم أقل انه هو الحقيقة الواقعة . فلقد كانت في نفوس العرب خشية من نتيجة كل صدام عسكري لهم مع عدوهم ، ولكن الخشية لم تكن من بأس العدو الحربي أو من قدرته في القتال بل كانت خشية من الظروف التي تجري فيها المصادمة مع هذا العدو . فلقد كان هناك شبه يقين من أننا نساق دوماً الى معارك مكتوب لنا فيها الفشل مسبقاً ، لأن الظروف فيها تهيأ بطريقة يكون فيها النصر لعدونا علينا . في أيام السلم نحسب حسابنا فنجد المرجحات تقف الى جانبنا ضد العدو

الذي اغتصب قطعة غالية من أرضنا ويسعى باستمرار لديمومة اغتصابه والتوسع فيه . فنحن من عدونا أكثر عدداً ، وأوسع منه أرضاً ، وأغنى منه امكانيات ، وأشجع منه مقاتلين . ثم اننا أصحاب حق لا نرى فيه شكاً ولا مطعناً ، وليس عندنا اية قابلية للتنازل عن مثقال ذرة من هذا الحق ، بل اننا وطنا أنفسنا على الموت في سبيل استرداد ما اغتصب منا . كل هذا راسخ في نفوسنا كمبادىء ، كما انه واضح موضوعياً للباحثين والمدققين ، تصدقه الاحصائيات كما تصدقه الأحداث السياسية في نصف قرن من الزمن . ومع كل هذه العناصر المرجحة التي يبدو فيها تفوقنا على عدونا بارزاً كل البروز نرى أننا عندما نلتقي وهذا العدو في صدام حربي نعود من هذا الصدام بخسارة لا تبررها امكانياتنا الفعلية . بل اننا نرى انفسنا ، بعد كل صدام من هذا النوع ، كالمتورطين في كثبان الرمال وجدنا انفسنا أكثر انغراساً فيها . ويتضح لنا بعد التقصي والاستقراء ان الذي يقودنا الى هذه النتائج البائسة ليس النقص في شجاعتنا وتصميمنا أو في كثرتنا وغنانا ، بل هي الظروف التي تستخدم فيها هذه العناصر ، فتحرمنا من فاعليتها، أو انها تتحول بها أحياناً الى نقاط ضعف فينا بدلاً من ان تكون لنا مصادر قوة ، وتتحول بها سلاحاً علينا بدلاً من أن تكون سلاحاً في يدنا .

ولست هنا في مجال البحث المفصل في هذه الظروف ، وفي شرح كيفية تهيئتها وتعيين من هيأها في خلال ربع قرن من حرب معلنة ومن معارك متلاحقة . نستطيع بكل سهولة ان نتخفف من قسط كبير من مسؤوليتنا فنلقي الوزر على خبث اليهود وسيطرتهم العالمية ، وعلى الاستعمار والمصالح الامبريالية في بلادنا وفي العالم كله ، وعلى النفسية الصليبية الكامنة في لا شعور أقوام الغرب في هذا العصر . اذا القينا الوزر على هذه العوامل فاننا لا نكون مخطئين . الا ان هذا جانب واحد من الحقيقة ، وهو الجانب الذي لا يعيننا على تلمس طريقنا نحو اكتشاف أخطائنا والتغلب على فشلنا . أولئك أعداؤنا وهذه صفاتهم وخصائصهم ، ولو خلصوا منها لما كانوا اعداء لنا . ان ما يعنينا في هذا المجال هو مسؤوليتنا نحن في كون الظروف التي تنشب فيها معاركنا مع عدونا المباشر ظروفاً مهدمة لامكانياتنا ، قاضية على عناصر تفوقنا عليه .

ان من يتابع سلسلة معاركنا الخاسرة في مدة ربع قرن من المواجهة مع عدونا يكتشف اننا ، في عالمنا العربي، لم نتبع في يوم ما خطة سياسية صالحة لأن تهيئنا لحرب لابد منها مع عدو مصمم على تثبيت باطله على انقاض حقنا ، ولا لأن تهيء لنا في

الحرب نفسها ظروفاً مناسبة للاستفادة من عناصر القوة التي نملكها في كل معركة نخوضها معه . خسائرنا في هذه المواجهة ما كانت يوماً ما عسكرية بل هي دوماً ، حتى في ساحة القتال ، خسائر سياسية . ذلك ان قياداتنا السياسية كانت تزج المقاتلين ، وهم بعض الأحيان افراد وفي بعضها سرايا وفي بعضها جيوش بكاملها ، كانت تزج أولئك المقاتلين في مآزق حرجة أو تدفعهم في طرق مسدودة نهايتها المحتمة الانكسار . واذكر على هذا مثالاً قديماً ولكنه بالغ الدلالة: في اواخر نيسان أو اوائل أيار من عام ١٩٤٨، حين كانت الجيوش العربية تتهيأ لتدخل فلسطين كي تحول دون اقامة دولة اليهود في في ارضها بعد انسحاب البريطانيين في ١٥ أيار من ذلك العام ، سمعت بأذني من عبد الرحمن عزام باشا امين الجامعة العربية حينذاك قوله بأن اليهود يملكون في فلسطين قوات عسكرية مدربة ومعبأة للقتال يفوق عدد افرادها سبعين الف مقاتل ! كان عبد الرحمن عزام باشا آنذاك مسؤولاً عربياً كبيراً من الذين كانوا يدعون ويسعون الى دخول الجيوش العربية الى فلسطين . وطبيعي ان من كان في مستوى عبد الرحمن عزام باشا من مسؤولي السياسة العربية كانوا يشاركونه في معرفة هذا الذي قاله . ومع ذلك فقد قبل هؤلاء المسؤولون ان يقاتلوا اليهود بقوات خمسة جيوش عربية أو ستة ، متفرقة ومفتقرة الى التسلح والى الخطة الموحدة ، ولا يبلغ مجموع افرادها كلها اربعين الفاً . من المنطقي اذن والمتوقع تماماً ان تنتهي حرب عام ١٩٤٨ بما انتهت اليه ما دامت بدأت تلك البداية . ومن الواضح أيضاً ان الخسارة في تلك الحرب ، وان بدت في مظهرها خسارة عسكرية ، كانت في حقيقتها كارثة تسببت بها السياسة الخرقاء غير العقلانية .

هذا مثال . واذا كنت لا أريد أن أقدم لكل خسارة عربية في الميدان العسكري مثالاً واقعياً كهذا تحققت منه شخصياً ، فان النتائج التي منينا بها في خمسة وعشرين عاماً من الحرب تغني عن الامثلة في التدليل على جناية السياسة على مقاتلينا افراداً وجيوشاً . ونستطيع ان نعدد من ضروب جناية السياسة سوء الاعداد في وقت السلم لحرب قادمة لا بد منها ، وسوء التوقيت لهذه الحرب حين تعلن ، والانشغال عن المعركة الرئيسية بمعارك هامشية ، والتضليل المتعمد في تقييم قدراتنا وقدرات عدونا ، ثم اتخاذ اسلوب النعامة في اعلام المواطن بما يدور حوله وما اصابه وما سوف يصيبه ، اعني تعصيب عيني المواطن عن رؤية الحقائق بغية اقناعه بأنه لم يخسر معركة ولا أضاع أرضاً ولا فقد كرامة . كل هذه الضروب من جناية السياسة انتهت الى ان تتكون في نفوس افراد هذا

الجيل من الامة العربية قناعة بأنهم على الرغم من ايمانهم بحقهم واستعدادهم للتضحية بالنفس والنفيس لاستعادته ، عاجزون عن خوض حرب تنتهي بنصر صحيح لهم ، ما دامت السياسة المتبعة في بلادهم المختلفة لا تصدق في خوض هذه الحرب ولا في التهيئة لها ولا حتى في الكلام عنها .

* * *

بهذه النفسية والنظرة والتقدير كان العرب في مختلف أصقاعهم ، وكان العالم مثلهم واكثر منهم ، يحكم سلفاً على كل معركة تدور بيننا وبين اسرائيل بأنها ستنتهي بكارثة تماثل سالفاتها أو تزيد عليها . ظل هذا الحكم المسبق مقبولاً حتى بعد ظهر اليوم السادس من تشرين الاول من هذا العام . بعد هذا التاريخ ، وحين أخذت تتكشف لكل ذي بصر وبصيرة وقائع ماجرى في المعركة الجديدة ، أخذ ذلك الحكم المسبق يتهافت ويتبخر لتحل محله ، في نفوس العرب وتفكيرهم ، أحكام أخرى يستند بعضها الى حقائق ومعطيات لم تكن قبل أخذت بالحسبان ويستند بعضها الآخر الى تقديرات جديدة ورغبات قديمة ومطامح بعيدة .

لقد بدأت حرب السادس من تشرين الأول بدءاً مذهلاً بالنسبة لمقومات المجابهة القديمة مع اسرائيل . كما أنها انتهجت طريقة جديدة ، تكاد تكون لامنطقية مع ماتقضي به تلك المقومات . بدأت بمبادهة عربية اتخذت الشكل الهجومي من جانب العرب ، بعدما كنا يئسنا من تلك المبادهة ووطنا النفس على لزوم موقف المدافع الذي ليس له من القدرة الا محاولة رد الأذى عن نفسه حين يهاجم . وانتهجت هذه الحرب طريقة التحدي ، تحدي كل ماوقر في النفوس انه لايتحدى : عبور القناة المحصنة بخط بارليف ، والاستيلاء على مواقع جبل الشيخ المنيعة وبلوغ الحولة وشاطىء طبرية عبر تحصينات الجولان في سرعة الراكض . هذا البدء وهذه الطريقة من التصرف نسفا في ساعات قليلة أكواماً من المسلمات التي كدستها في النفوس الأعوام المتتالية من الانكسارات العربية . فلا عجب اذن أن تتداعى ، في النفوس كذلك ، بقية العوامل التي جعلت من خسارة العرب أمراً متوقعاً في كل مجابهة عربية اسرائيلية . عادت الى العربي ثقته بنفسه وبامكانياته ، وهي الثقة التي أصيبت في السنين العجفاء بزعزعة كادت أن تودي بها . وعادت اليه ثقته بجنده ، ثقته باخلاصهم وبكفاءتهم في خلق الظروف المناسبة التي يمكن للامكانيات الكبيرة أن تستخدم فيها . وعادت اليه من جديد ثقته بالنصر النهائي . وأكثر من ذلك ، ثار فيه الطموح الى

تحقيق ما كان يستبعد تحقيقه في هذا الجيل والجيل القادم : الطمـــوح الى النصر القريب العاجل ، الكامل والحاسم .

هذا الطموح هو الذي أشرت اليه في أول مقالي بأنه طمع بتحقيق آمال لنا كانت في نفوسنا كالأحلام ، وقد ساورنا في المرحلة التي تلت مرحلة التخوف الأولى . فمادامت المخابرات الاسرائيلية التي اشتهر عنها أنها أكفأ مخابرات في الدنيا قد استغفلت ونامت عن حشودنا واستعداداتنا ، فما الذي يمنع أن يكون كل ماتردده عن قوة عدونا كذبة كبيرة لاتستند الى واقع ؟ وما دامت التحصينات الاسرائيلية التي قيل انها لاتخترق قد تهاوت على الحدود تحت أقدام جنودنا ، فما الذي يمنع من أن يستمر هؤلاء الجنود الأبطال في زحفهم حتى تتحرر كل أرضنا المغتصبة ؟ وما دامت طائرات الفانتوم تتساقط أمام أعيننا كالفراشات المحترقة ، ودبابات باتون وسانتوريون تدمرها حملة الصواريخ من مشاتنـا ، وجنود العدو يفرون وهم يطلقون صيحات الفزع أمام مقاتلينا ، فما الذي يمنع من أن تأتينا غدا غولدا ماير ذليلة مستغفرة ويرفع يديه أمامنا موشه دايان محطم الكبرياء مستسلماً وان ندخل القدس محررين وتل أبيب منتصرين .

كل هذه الآمال التي كانت في نفوسنا احلاماً طمعنا في أن يكون الأوان قــد آن لتحقيقها حين طرقت اسماعنا أنباء الاعمال المجيدة التي حققتهـا قواتنا في ايام قليلة وفي خطة احسن رسمها وتنفيذها سياسيونا وعسكريونا ، وحين تيقنا من أن كل ماسمعناه عن هذه الافعال كان صحيحاً وواقعاً . فقد كان يدفعنا في السنين السابقة الى الريبــة بنوايا الحاكمين واليأس من صدق عزيمتهم علمنا بأنهم ، في تجارب خمسة وعشرين عاماً سالفـة ، ما كانوا يقولون لنا الحق فيما هو مصيري بالنسبة الينا . كم قيل لنا قبل اليوم اننا حطمنا اسطورة التفوق الجوي للعدو في معارك كانت دائرتها علينا ؟ اما في هذه المرة فقد قال لنا قادتنا صدقـاً ، اذ تحطم تفوق اسرائيل الجوي حقـاً في الايام الاولى من تشرين ، وتساقطت طائرات الفانتوم امام انظار سكان دمشق وانظار جنودنا في الجبهة كالفراشات حقاً ، لا كتساقط الذباب الكاذب الذي أعلنوه علينا في حزيران ١٩٦٧ . وكان حقـاً كذلك اختراق قواتنا لخط بارليف على القناة وانتزاع المواقع الحصينة من سفوح جبل الشيخ من ايدي قوات العدو وبلوغ مقاتلينا ساحل طبرية واغتسالهم من مائها . هــذا الاعلام الصادق بافعال كانت رؤى بعيدة المنال زاد آمالنا اتساعاً واثار خيالنا ، فتجاوزنا حد المعقول في امنياتنا . لقد نسينا في فورة التفاؤل ان الحرب في هذا العصر ليست

شجاعة الجندي ومهارة الستراتيجي وحدهما ، بل ان وراءهما يكمن الاعداد التكتيكي الشديد الدقة ، والتعبئة المسبقة على المدى الطويل ، والحسابات السياسية المتشابكة والمعقدة، تؤطرها كلها ارادة الصمود والنفس الطويل في متابعة الحرب .

نسينا هذا ونحن نطمع بما بدانا به وما نجحنا به ان نحصل من حربنا هذه على أكثر مما جرى . ربما كنا معذورين في سعة املنا . فلاول مرة منذ أجيال ، كما كرر القائلون والكتاب في الفترة الأخيرة ، يحارب العرب حربا حقيقية ويجتمعون على اختلاف مناحيهم ووجهاتهم العقائدية صفاً واحداً في حربهم . نفض العربي بهذه الممارسة الجديد للحرب عن كتفيه السمعة المشينة التي القته عليها انكساراته المتتابعة ودعايات الاعداء عن قدرته القتالية ، فتحقق من كونه شجاعاً ووجد نفسه منتصراً . وجد العربي نفسه ، وكان فرحه بذلك عظيماً الى درجة تصور فيها انه ملك الدنيا ، وان كل العوائق قد تهاوت دون حقه السليب ، يكفيه ان يمد يده الى هذا الحق لينالة . ولم يكن هذا التصور صحيحاً . لقد جاء وقف اطلاق النار ليثبت بطلان هذا التصور وليعيد العربي الى أرضية الواقع الفعلي وان كره هذا الواقع الذي يقصر عما رغب فيه وتمناه وتخيله .

لقد ملأ وقف اطلاق النار نفوسنا جميعاً بالمرارة وخيم بالخيبة على آمالنا لاندفاعنا في تصوراتنا الى الظن باننا قربنا قرباً شديداً من هدفنا الغالي ، ثم لاكتشافنا فجأة ان طريقنا الى هذا الهدف لاتزال شاقة ، واكتشافنا انها ، اكثر من المشقة ، لاتزال طويلة . شعر بعضنا بالخيبة لما حصل ، وشعر بعضنا بالحسرة ، وشعر بعضنا بالنقمة على من أوقف المسيرة الجتاحة التي كانت جديرة بأن تبلغ بنا الهدف وتحرر لنا فلسطين . وسمعت اسماعيل ، وهو فتى كان ينتظر في السنة القادمة او التي بعدها ان ينخرط في صفوف الجيش ليؤدي خدمته الالزامية ، سمعت اسماعيل هذا يقول لصبيان دونه في السن كانوا يستمدون معه انباء تنفيذ وقف اطلاق النار ، يقول وهو يتحسر : وهكذا يأولاد تركوها على اكتافنا .. تركوا علينا ، انا وانتم ، تحرير فلسطين !..

★ ★ ★

لا أدري هل يتاح لجيل اسماعيل والصبية الذين كانوا حوله تحرير فلسطين أم أن هؤلاء سيحيلون العبء الى اكتاف الاجيال التي تليهم كي تتكفل بتحقيقه . ولكن

المحقق ان وقف اطلاق النار صدم كل عربي أعلن وحين طبق . جو الحرب أعاشنا ، على الرغم من خطره ، في عالم أحلام سعيدة ، ولا بد من صدمة عند الافاقة من حلم سعيد . غير ان الصدمة ليست حالاً دائمة . لقد خف أثرها في النفوس وخلفتها فيما انفعالات شتى وتساؤلات شتى ، ومحاولات تقييم صحيح لما حدث وجرى في هذه المرحلة التي انقضت من الحرب .

قلت في مطلع هذا المقال اننا وجدنا ما جرى ، بعد ان توقفت المعركة ، مقبولاً. قلت مقبولا ، ولم أقل بديعاً أو مرضياً ، كما لم أقل عن هذا الذي جرى اننا وجدناه بائساً أو رهيباً . ما تخوفنا من وقوعه من الكوارث في البدء لم يقع ، مع ان الدواعي التي كانت تدعو الى وقوعه كانت موجودة ، اذا لم يكن بكل السوء الذي نتخوفه ففي مقدار كبير منه . اكتشفنا أن قدراً كافياً من الظروف المناسبة قد تهيأت لهذه الحرب فأتاحت لعناصر القوة في العرب أن تتغلب على عوامل الوهن التي تسببت في هزائمهم السابقة . وأحسسنا من طريقة تهيئة هذه الظروف أن القادة السياسيين أحسنوا هذه المرة اعداد الساحة التي أدت فيها قواتنا العسكرية واجبها . كما أتاحوا لجانب كبير من امكانياتنا أن تبرز لتقوم بدورها في ساحة القتال : شجاعة مقاتلينا ، وكثرة عددنا ، وعظم ثرواتنا . وكل هذه مصادر قوة لنا لم تكن تجد طريقها الى المساهمة الجدية في الظروف التي تهيأت لها في المعارك السابقة .

اذن فقد حارب المقاتل العربي هذه المرة ، في سبيل قضيته ، حرباً حقيقية حسب له فيها حسابه ، ولم يزج به ، شأنه في مرات سابقة ، نعجة مسوقة الى الذبح أو منذورة لذل الهزيمة . ومع هذا ، وعلى الرغم من تغير نوعية الظروف التي جرى فيها الاعداد للحرب ، فان الحرب توقفت في نقطة مائعة لم تشتف فيها نفوس العرب من القتال ، ولم يبلغوا فيها هدفهم ، ولم يحققوا ما توهموا انهم قريبون من تحقيقه . فكيف نقول ان ما جرى كان مقبولا ، ولا نقول انه خسران مبين وكارثة تضاف الى كوارثنا العظام السالفة ؟

هنا تدخل في الحساب عناصر الوضع العربي السابق للمعركة والذي نسيناه في غمرة انفعالاتنا ، حين أخذنا نبني على انتصاراتنا البدئية غير المتوقعة احكاماً وننتظر نتائج أكثر بعداً عن التوقع المنطقي واكثر امعاناً في الاستحالة . نسينا ان مهارة السياسي واخلاصه ، وكفاءة العسكري وشجاعته ، ليست كل شيء في اية حرب دائرة .

وفي حربنا هــذه اذا كانت كفاءة المخططين السياسيين والعسكريين قد قدرت على أن تعطى المبادهة للجيوش العربية ، وعلى أن تخلق الظروف المناسبة لتبرز شجاعة المقاتل العربي ، وعلى أن تتيح للوحدة العربية أن تترجم في أعمال سياسية وعسكرية ، فان تلك الكفاءة عجزت عن التغلب على ما خلفته في الواقع العربي أخطاء السياسة القاصرة وجناياتها في خلال خمس وعشرين سنة سالفة . الثمار المرة لتلك الاخطاء والجنـايات أصبحت ، حين قامت الحرب ، ثغرات في جوانب الجيش المحارب وعقبات في طريقه. سكان المناطق التي يدور القتال فيها مثلا ، كان يجب أن يكونوا معبئين مادياً ونفسياً ليوم المحنة ليكونوا سنداً للقوات المحررة . ولكنهم ، في حالهم التي هم عليها من الجهل والاهمال أمسوا في كل معركة عبئاً على المقاتلين ، أن ظلوا في مكانهم صاروا ضحية وان رحلوا عن قراهم زادوا في عدد النازحين واللاجئين مدداً جديداً . ومثل ذلك ، الجفاء والتقاطع اللذان كانا علاقة غالبة بين الحكومات العربية في سنين ما قبل هذه الحرب . لقد تكشفا حين جاءت ساعة الاتحاد والتلاحم عن عقبة كأداء في سبيل سلامة العمل المشترك وفي سبيل الانتصار . قال لي مسؤول في أحـد البلاد العربية : حين نشب القتال الذي ما عرفنا بنشوبه الا من الانباء العامـة ، نسينا الجفاء الذي فرق بيننا وبين اخواننا وأسرعنا الى الساحة لنأخذ دورنا في المعركة ... ولكن ذلك الجفاء كلفنا ، كلنا ، كثيراً ... دباباتنا اضطرت ، خلافاً لأصول التعبئة العسكرية ، الى أن تسير على جنازيرها مسافة الف كيلو متر ، وكتائبنا دخلت القتال قبل أن تتم تهيئتها له . وقد خسرنا بسبب هذا وذاك خسائر ما كانت لتقع ، وابتعدنا عن نتائج مجيدة كنا قادرين على بلوغها لولا ذلك الجفاء !

وهكذا فاننا حين ندخل في الحساب عناصر الوضع العربي السابق للمعركة وان هذا الوضع كان اكثر وهناً وأقل صلاحية من ان تقدر على تقويمه الكفاءة الوقتية والشجاعة الفردية والمرتجلة ، حين ندخل هذا في الحساب نجـد ان واقع ما وصل اليه العرب في حربهم الاخـيرة ، بتخطيط سياسييهم لها واقدام مقاتليهم فيها ، مقبولاً . نجده مقبولاً على الرغم من أننا ظللنا بعيدين عن بلوغ كل أهدافنا وعن استخدام كل امكانياتنا . ونجـده مقبولاً على الرغم من اننا في الحساب المجرد لما جنيناه وجناه عدونا ، ولما أصبنا به وأصيب به عدونا في مساحة الأرض المضاعة وعدد القتلى والاسرى ، قد نكتشف الغبن في جانبنا . ولكن هذا الواقع المقبول ليس واقعاً رائعاً في أعيننا ، كما أسلفت القول ، ولا هو مرض لنا . كل ما يصلح له هو أن يكون لنا ، في جوانبه

الايجابية ، نقطة انطلاق نحو واقع أفضل من خلال تعرفنا على نقاط الضعف والقوة في التجربة التي قادتنا اليه . فنحن يجب أن لا ننسى أن أمامنا معارك كثيرة علينا أن ننتقل فيها من واقع الى آخر ، جاهدين أن يكون كل واحد منها أفضل من سابقه . ذاك أن قدرنا المحتم علينا نحن العرب ، في هذا العصر ، أن نعيش حرباً حتى النصر ، على عدو غايته التي لا تتحول هي اجلاؤنا عن موطننا ، ولو بافنائنا كأمة ، ليصبح هو أمة في هذا الموطن . يجدر بنا اذن أن نتهيأ لهذه لحرب تهيؤا دائماً ، وتهيؤا كاملاً ، فنتوجه به الى هدفنا بكل امكانياتنا ، لتكون نتيجتها لا النتيجة التي وقفنا عندها في نهاية المعركة الأولى لحرب السادس من تشرين الأول ، والتي قلنا عنها انها مقبولة ، بل لتكون النتيجة المرضية كل الرضى ، وذاك حين نبلغ النصر الحق بتحرير أرضنا واستعادة حقنا واثبات وجودنا كأمة لا يجترىء عليها مجترىء أو يستهين بها مستهين .

* * *

دور البترول العربي في معركة التحرير

الدكتور نقولا سركيس

ما هو دور البترول في معركة التحرير التي تخوضها الأمة العربية ضد المغتصب الصهيوني وضد من يقف وراءه من الدول الغربية ، وفي طليعتها الولايات المتحدة الأميركية ؟ وما هي العلاقة بين المصالح البترولية الاميركية وغيرها من المصالح الأجنبية في الوطن العربي ، من جهة ، والعدوان الصهيوني المستمر على شعبنا وعلى أرضنا ، من

جهة ثانية ؟ ماذا يعني « سلاح البترول » وما هي أفضل السبل لاستعمال هـذا السلاح ولوضعه في خدمة قضايانا القوميـة ، وأهمها قضية الوجود الصهيوني في قلب الوطن العربي ، وقضية التحرر من رواسب السيطرة الأجنبية في بلادنا ؟

هذه الأسئلة طرحها كل عربي على نفسه قبل،وابان،وبعد، حرب تشرين الأول . وهي ما تزال مطروحة على ضمير كل مسؤول،وكل مواطن عربي.وقد حان الأوان كي يجاب عليها بوضوح وموضوعية ، وكي يزال عنها ما يشوبها في كثير من الأحيان ، من إبهام والتباس ، أو تشويه وتشويش .

قبل الاجابة على هـذه الأسئلة لا بد من التذكير ببعض الحقائق الجوهرية . الحقيقة الأولى هي ان البلاد العربية تملك ما يزيد على ثلثي احتياطي البترول في العالم ، وتنتج ما يقارب ثلث مجموع الانتاج العالمي من البترول ، وتؤمن حوالي ٥٥ بالمئة من مجموع صادرات البترول في العالم . وذلك في وقت أصبح فيه البترول مادة نادرة ، بالاضافة لكونه مادة أولية ناضبة تزداد اليها الحاجة ويزداد عليها الطلب يوماً اثر يوم ، ومادة استراتيجية يتوقف عليها مصير الحضارة الصناعية في العالم ، وخصوصاً في البلدان المتقدمة اقتصادياً ، ومن البديهي ، وهذه هي الحال ، ان الثروة البترولية تضع الأمة العربية في هـذه الفترة من تاريخها ، وحتى نهاية القرن العشرين على الأقل ، في مركز ممتاز ، وتمنحها قوة تفاوضية على جانب كبير من الأهمية ، لاعادة النظر في علاقاتها الدولية ، وتكييف هذه العلاقات على أساس المصالح المتبادلة والمتكافئـة وعلى ضوء المصالح الوطنية العربية .

الحقيقة الجوهرية الثانية التي تجدر الاشارة اليها هي أن تاريخ العـالم العربي منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن يكاد يقرأ حرفاً حرفاً من خلال تسابق الشركات والدول الغربية للاستيلاء عـلى الثروات البترولية في المنطقة تحت ستـار مـا يسمى بعقود « الامتيازات » كما ان هذا التسابق وما رافقه من منازعات دولية كان العامل الرئيسي في تجزئة الوطن العربي الى دويلات صغيرة والى مناطق نفوذ خاضعة للمصالح البترولية الغربية . وقد جاء قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ ليعطي بعداً جديداً لقضية البترول العربي بعد أن اصبحت دولة اسرائيـل رأس جسر للنفوذ الغربي في المنطقة ، ومحمية اميركية تستخدم لضرب حركات التحرر الوطني في العالم العربي وشل قواه والمحافظة على مواقع النفوذ وعلى الامتيازات البترولية التي فرضت علينا بعد الحرب العالمية الأولى .

ومن تباشير الخير ان وعي الرأي العام والمسؤولين العرب لاهمية البترول في تطورة الاقتصادي والسياسي قد أخذ يتفتح وينتشر بسرعة منذ مطلع الستينات وأن القوى الثورية العربية قد تمكنت خلال السنوات القليلة الماضية من تصفية بعض الامتيازات القديمة ومن تأميم جزء من الثروة البترولية . ولكن على الرغم من هذا التقدم ، فالحقيقة ان الشركات الاجنبية ما تزال تسيطر على نحو ٨٠٪ من انتاج البترول العربي وان الطريق ما تزال طويلة امامنا لاستعادة كامل حقوق السيادة على ثرواتنا البترولية ولتوجيه استثمار هذه الثروات وفق مقتضيات التقدم الاقتصادي والتطور السياسي في الوطن العربي .

على ضوء هذه المعطيات يتضح ان قضية البترول العربي مرتبطة ارتباط السبب بالنتيجة بقضية اعم وأشمل ألا وهي قضية التحرر من رواسب الاستعمار الاجنبي وحليفته اسرائيل . في مثل هذا الاطار يجب النظر الى موضوع « سلاح البترول » ودوره في معركة التحرير .

الحقيقة الثالثة هي ان تعبير « سلاح البترول » كما استعمل وفهم حتى الآن لا يزال يشوبه كثير من الالتباس والغموض . ويعود سبب ذلك الى ان بعض الأوساط العربية لاترى في هذا « السلاح » سوى كونه اداة ضغط ووسيلة لايقاع الأذى بالدول التي تساند اسرائيل عن طريق منع الصادرات أو تخفيض الانتاج أو سحب الأرصدة العربية من مصارف هذه الدول ... الخ كما ان قسماً كبيراً من الرأي العام والمسؤولين العرب ما زال يعتبر ان اللجوء الى هذا السلاح وبالشكل المشار اليه اعلاه لايتم الا عندما تنشب المعارك المسلحة مع اسرائيل كما حدث ذلك عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ١٩٧٣ .

والواقع ان استعمال سلاح البترول على هذا الشكل ليس الا وجها من الاوجه الممكنة لاستخدام الثروات البترولية العربية في معركة تحرير وبناء الوطن العربي . اما الأوجه الاخرى والتي لا تقل اهمية عن الاول فتتعلق بالامكانيات الضخمة المتوافرة :

اولاً : لاستخدام الصادرات البترولية العربية كوسيلة لكسب الاصدقاء والحلفاء في العالم وذلك عن طريق اعادة النظر في طبيعة العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الدول المستهلكة . وفي طليعتها الدول الصناعية ، وتكييف هذه العلاقات على اساس المصالح المتكافئة والمتبادلة ووفق متطلبات قضايانا القومية كقضية فلسطين .

ثانياً : للافادة من صناعة البترول ومن الصناعات العديدة والنشاطات الاقتصادية الاخرى المتفرعة عنها أو المكملة لها لدفع عجلة العمران والتنمية الاقتصادية في الوطن العربي ولاعطاء وحدتنا القومية ركائزها وابعادها الاقتصادية ، ومن ثمة مفهومها الكامل والصحيح .

البترول كأداة ضغط على الدول المعادية

لقد تم التركيز حتى الآن كما سبقت الاشارة إلى ذلك على هذا الوجه دون سواه من اوجه استعمال البترول كسلاح سياسي . ومن البديهي ان هذا الوجه يتخذ اهمية خاصة ومتزايدة في الظروف الراهنة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي نظراً للدور الفعال الذي يمكن ان يلعبه البترول في تغيير موقف او على الأقل تحييد الدول التي تساند اسرائيل .

ومن المعروف ان بعض الحكومات العربية كانت حتى الأمس القريب تعارض بشدة استعمال البترول كوسيلة ردع او كأداة ضغط على الدول المستهلكة مدعية ان البترول شيء ، والسياسة شيء اخر . أو ان البترول سلاح « ذو حدين » من شأنه ان يؤذي الدول العربية اكثر من غيرها من البلدان المستهلكة . ومن المعروف ايضاً ان هذه الحكومات قد استاءت من التدابير الجزئية التي اتخذت في عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، لاستعمال البترول العربي كوسيلة ضغط على الدول الغربية التي تساند اسرائيل ، وبذلت جهوداً كبيرة لافشال هذه التدابير ومنع تكرارها .

من خلال هذا الواقع تتضح اهمية القرار الذي اتخذته منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول والقاضي بتخفيض البترول العربي الى ان يتم انسحاب القوات الاسرائيلية انسحاباً كاملاً من كل الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ ، والى ان تتم استعادة شعب فلسطين لحقوقه المشروعة . كما تقرر ان يحتسب هذا التخفيض على اساس مستوى الانتاج في شهر ايلول ١٩٧٣ ، وان تعمل كل من الدول العشر الاعضاء في منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول على تطبيق هذا القرار بشكل يضمن حجب صادرات البترول العربي الى الولايات المتحدة ، واستمرار هذه الصادرات الى الدول المستهلكة الصديقة . وقد اثار هذا القرار كثيراً من الجدل ، اذ اعتبره البعض خطوة كبيرة الى الامام في سبيل دعم دول المواجهة

ومجهوداتها الحربية ضد اسرائيل ، في حين ان البعض الاخر اعتبره دون الحـــد الادنى المطلوب في الظروف الراهنة .

والحقيقة ان القرار المذكور ينطوي ، الى جانب سلبياته ، على عـدد من النقاط الايجابية :

– النقطة الاولى هي ان هذه اول مرة تجمع فيها الدول العربية ، على اختلاف انظمتها واتجاهاتها السياسية ، على ضرورة وجدوى استعمال البترول كأداة ضغط على الولايات المتحدة وغيرها من الدول الغربية التي تدعم اسرائيل . وهـذه خطوة لابأس بها ، اذا اعتبرنا ان بعض هذه الدول كانت ،حتى الاشهر القليلة الماضية ، تعارض بالحاح مبدأ استعمال البترول كسلاح سياسي .

– النقطة الثانية هي ان منظمة الاقطار العربية المصدرة للبترول ، قد حرصت على اتخاذ قرار يمثل في الواقع حداً أدنى مقبولاً لدى جميع الدول الاعضاء . وتركت لكل عضو حرية اتخاذ تدابير اكثر جذرية ، وذلك في اطار سياسته البترولية ، وسيادته الوطنية . والحقيقة ان الحد الادنى هذا قد تجاوزته اكثر الدول العربية المعنية . فالعراق قام بتأميم كافة المصالح الاميركية (٧٥ ، ٢٣ بالمئة) والهولندية (٢٠ ، ١٤ بالمئة) في شركة نفط البصرة . أما فيما يتعلق بتخفيض الانتاج فقد تم الاتفاق في ١٧ تشرين الاول في الكويت على ان يكون بنسبة ٥٪ شهرياً على الاقل من اصل انتاج ايلول ١٩٧٣ . وقد رفعت هذه النسبة الى ٢٠٪ ابتداء من ٤ تشرين الثاني كما تقرر ان يتبع ذلك تخفيض اضافي قدره ٥٪ من اصـل انتاج تشرين الثاني وذلك في الواحد من شهر كانون الاول ١٩٧٣ .

وتمثل نسبة تخفيض انتاج البترول العربي بمعدل ٢٥٪ خـلال شهر تشرين الثاني تخفيضاً عاماً بمعدل ١٥٪ تقريباً من مجموع صادرات البـترول في العالم وهي نسبة مرتفعة اذا قيست بالظروف الحالية لندرة العرض ولازدياد الطلب التي تمتاز بها سوق البترول العالمية .

تخفيض انتــاج البترول العربي

(بآلاف البراميل يومياً)

البلـد	انتاج ايلول	معدل التخفيض في التخفيض ابتداء		الانتاج الحالي المقدر
		النصف الثاني من تشرين	من ٤ تشرين	
المملكة السعودية (١)	٨،٥٥٠	١،٨٢٠	٢،٧٠٤	٥،٨٧٧
الكويت (١)	٣،٥١٦	٨٨٠	١،٠٢٧	٢،٤٦٧
العـراق	٢،١١١	٥٠٠	٥٠٠	١،٦١١
ابو ظبي	١،٣٩٨	١٨٠	٣٥٠	١،٠٤٨
قطـر	٦٠٨	١٢٠	١٥٢	٤٥٦
ليبيـا	٢،٢٨٦	٣٠٠	٥٧١	١،٧١٥
الجزائـر	١،٠٥٠	١٥٠	٢٦٢	٧٨٨
بلدان اخرى (٢)	١،٠٦٠	٢٥٠	٢٨٠	٧٨٠
المجموع	٢٠،٥٦٩	٤،١٥٥	٥،٨٤٦	١٤،٧٤٢

— النقطة الثالثة التي تجدر الاشارة اليها هي ان المنظمة المذكورة قد حرصت على اعطاء قرارها بعض المرونة ، اذ تركت للدول الصناعية المستهلكة الوقت الكافي لاتخاذ التدابير اللازمة في سبيل ارغام اسرائيل على تطبيق قرارات مجلس الامن الخاصة بنزاع الشرق أوسط .

— النقطة الرابعة هي ان تخفيض الانتاج بالشكل المذكور اعلاه يساعد الى حد بعيد الدول العربية على تنفيذ القرارات التي اتخذتها مؤخراً والخاصة برفع الاسعار المحققة للبترول الخام بنسبة ١٧ بالمئة ، والاسعار المعلنة بنسبة ٧٠ بالمئة ، كما يساعدها في الوقت نفسه على زيادة دخلها ، وعلى المحافظة على ثرواتها البترولية .

---

(١) بما في ذلك نصف انتاج المنطقة المحايدة .

(٢) الجمهورية العربية المتحدة والجمهورية العربية السورية والبحرين ودبي وعمان .

– النقطة الخامسة والأخيرة هي أن إقدام الدول العربية على تحديد مستوى الانتاج هو بحد ذاته خطوة كبيرة الى الأمام وقد سبق واتخذت بعض الحكومات العربية اجراءات بهذا الصدد ، كالجزائر والكويت وليبيا والعراق وسوريا . أما في سائر الدول العربية التي ما زالت تعمل بنظام الامتيازات ، فان تحديد الانتاج كان من صلاحيات الشركات الأجنبية . وكانت هذه الشركات تخفض الانتاج أو ترفعه على هواها ، ووفق مصالحها الخاصة ، ودون أي اعتبار لمصالح الدول المضيفة ولضرورات المحافظة على انتاجية وعمر الحقول التي تستغلها . وان كان صحيحاً ان اقدام الدول العربية على تحديد مستوى الانتاج بنفسها قد جاء في ظروف استثنائية ، وربط بموضوع استعمال البترول كسلاح سياسي ، فالواقع ان هذه البادرة تشكل بحد ذاتها سابقة على جانب كبير من الأهمية سيكون من الصعب التراجع عنها في المستقبل .

على ضوء هذه الاعتبارات كلها، يمكن القول ان الاحداث البترولية التي تلاحقت في تشرين الأول ١٩٧٣ ، من تخفيض الانتاج الى رفع الاسعار من قبل الحكومات ، مروراً بالتأميمات العراقية وبغيرها من التدابير الخاصة باستعمال البترول كسلاح سياسي ، هي كلها عوامل ايجابية في سبيل تقليص نفوذ الاحتكارات الأجنبية واستعادة الحكومات العربية لحقوق السيادة على ثرواتها ، ولحرية التصرف بهذه الثروات .

كما ان هذه العوامل تشكل حلقة جديدة في سلسلة التدابير المماثلة التي اتخذت في الدول العربية خلال السنوات الماضية ، وفي طليعتها قرارات التأميم الجزئي او الكلي في الجزائر وليبيا والعراق وسوريا ، ورفع الاسعار ، وقوانين المحافظة على الثروات البترولية ، وتوسيع نشاطات الشركات الوطنية العربية ، وتنمية العلاقات المباشرة مع الدول المستهلكة ...الخ .

تصفية عقود الامتياز

ولكن على الرغم من هذه الايجابيات كلها ، فالواقع ان استعمال البترول كسلاح سياسي لم يتم حتى الان إلا بصورة جزئية . فمن البديهيات ان استعمال اي سلاح كان يقتضي اولاً وقبل اي شيء اخر امتلاك هذا السلاح ، وحرية التصرف به ، والمقدرة على توجيهه وفق ما تقتضيه المصالح القومية العربية . لذلك كان لا بد قبل التفكير بتخفيض الانتاج ، من ان تبادر الدول العربية التي ما تزال تعمل بنظام الامتيازات الى تأميم المصالح البترولية الاميركية على الاقل . خاصة وان الشركات الاميركية ما تزال تسيطر على

ما يقارب ثلثي انتاج البترول في الوطن العربي ، وعلى كامل انتاج المملكة العربية السعودية ، وهي أكبر منتج ومصدر للبترول في نصف الكرة الشرقي .

هذا ، وبعد أن وقفت الولايات المتحدة بكل قواها الى جانب اسرائيل خلال الحرب الاخيرة ، وأمدتها جهراً بكافة أنواع الاسلحة والدعم العسكري والمالي والسياسي، وضربت عرض الحائط بأبسط حقوق العرب وأقدس مقدساتهم ، بعد ذلك أصبح من حق كل عربي ان يتساءل : هل يجوز بعد ذلك ان نترك الحبل على غاربه للشركات البترولية الأميركية ، كي تسرح وتمرح في بلادنا وتستغل ثرواتنا وتتحكم بمقدراتنا ومصيرنا ؟ هل يجوز أن نحافظ على « عقود امتياز » وقعها بعض الحكام ، منذ ما يقارب النصف قرن ، ونستمر في التغني بصداقة اميركا في حين ان طائرات الفانتوم الاميركية تقصف مدننا وقرانا ومنشآتنا الصناعية ، وتزرع الموت والدمار في أرضنا ؟ هل في تاريخ العالم ، مثل واحد لأمة تعرضت لما نتعرض له من اعتداء واستهتار ، وترددت على الرغم من ذلك في انتزاع حقوقها وثرواتها من براثن المعتدين ؟

هذا مع العلم أن تأميم الشركات البترولية الاجنبية ، وفي طليعتها الشركات الاميركية في الوطن العربي ، قد أصبح منذ زمن بعيد ضرورة قومية ، سواء وجدت اسرائيل او لم توجد ، وسواء تم حل مشكلة النزاع العربي الاسرائيلي أو لم يتم ، وسواء قامت الولايات المتحدة بدعم اسرائيل أو لم تقم .

وتجدر الاشارة هنا الى ان تخفيض الانتاج هو في الواقع من مصلحة بعض الدول العربية وخصوصاً المملكة العربية السعودية التي زاد انتاجها بنسبة ٣٥ بالمئة خلال التسعة أشهر الاولى من عام ١٩٧٣ بالنسبة للفترة المماثلة من عام ١٩٧٢ . والحقيقة ان المملكة العربية السعودية كانت راغبة قبل اندلاع الحرب الاخيرة في تخفيض الانتاج معتبرة أن الاستمرار من زيادة الانتاج من شأنه ان يستنفد الاحتياطي قبل نهاية هذا القرن وان يلحق اضراراً جسيمة بالاقتصاد السعودي .

بالاضافة الى التأميم ، ثمة تدبير آخر كان من المفروض ان يتخذ بعد اندلاع الحرب الاخيرة وهو سحب الأرصدة المالية العربية من الولايات المتحدة ومن الدول الأخرى التي تساند اسرائيل .

هذا وعلى الرغم من أن سلاح البترول لم يستعمل الا بصورة جزئية حتى الآن فان احداث الاسابيع الماضية قد دلت بوضوح على اهمية وجدوى هذا السلاح . فقد

كان لقرار تخفيض الانتاج بصورة تدريجية آثار بالغة في تبديل سياسات الدول الصناعية الكبرى تجاه النزاع العربي – الاسرائيلي . ومن اهم هذه الآثار بروز تناقض المصالح بين الولايات المتحدة ، من جهة ، واوربا الغربية واليابان من جهة ثانية . والتدابير التي اتخذتها بعض هذه الدول للتقارب من العرب وللضغط على الولايات المتحدة وحملها على تغيير موقفها المتحيز لاسرائيل . وقد اعرب وزير الخارجية الالماني ، السيد ولتر شيل ، عن شعور معظم المسؤولين الاوربيين عندما صرح في ٤ تشرين الثاني ان استمرار السير في ركاب اميركا هو سياسة انتحارية بالنسبة لبلاده وذلك نظراً لحاجة المانيا الغربية للبترول العربي . والاهم من ذلك البيان الذي اصدرته دول السوق المشتركة الاوربية في ٦ تشرين الثاني والداعي لمساندة الدول العربية في جهودها لاستعادة حقوقها المشروعة .

والواقع أن هذا التبدل في موقف الدول الصناعية يشكل ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، منعطفاً تاريخياً على جانب كبير من الاهمية ليس فقط بالنسبة للنزاع العربي-الاسرائيلي ، بل ايضاً لمستقبل العلاقات البترولية والاقتصادية والسياسية بين الدول العربية والدول المستهلكة .

أما الآن فالخوف كل الخوف أن تقود التطورات السياسية في المنطقة الى ظروف مماثلة لتلك التي أعقبت حرب حزيران ١٩٦٧ ، وأن يلغى نتيجة لذلك قرار خفض الانتاج ، ويتلاشى موضوع سلاح البترول في طيات النسيان ، أو ينحدر ، كما حدث في الماضي ، الى مستوى الجدالات المزرية حول نسبة الفائدة التي تمنحها المصارف الاميركية وغيرها . والأخطر من ذلك كله أن تقوم الولايات المتحدة بخطوات تظهرها بمظهر المحايد في نزاع الشرق الاوسط وتعيد لها الاعتبار في بعض الاوساط العربية . وبذلك يتحول سلاحنا البترولي الى مجرد سيف خشبي نلوح به بيد راجفة عندما تشتد المحن ويعود العدو الصهيوني بما يملكه من أسلحة اميركية متطورة لاستئناف اعتداءاته علينا .

لهذا السبب ، وتجنباً لما حدث أكثر من مرة في الماضي ، يبدو من الضروري أن تستمر الحكومات العربية في اتخاذ المزيد من الاجراءات لتصفية قواعد الاحتكارات الاجنبية في الوطن العربي ، ولاستعمال البترول كأداة ضغط على الدول التي تناصبنا العداء وكوسيلة لكسب المزيد من الاصدقاء والحلفاء في العالم .

حق الدول العربية في استعمال البترول كسلاح سياسي

لقد شهد العالم خلال الاسابيع الماضية حملة واسعة للتشكيك في « حق » الدول العربية في استعمال ثرواتها البترولية كسلاح سياسي وذلك عن طريق تخفيض الانتاج وحجب الصادرات عن بعض البلدان المستهلكة . وتقوم هذه الحملة على الادعاء بأن مثل هذه الاجراءات تتعارض والمسؤولية التي تقع على كاهل الدول العربية في تأمين مصادر الطاقة اللازمة للعالم ، وبأن تخفيض انتاج البترول العربي يهدد « الحضارة الحديثة » .

والواقع ان الشركات البترولية الكبرى قد استعملت هذه الحجج وروجت لها خلال السنوات الطويلة الماضية لتبرير زياده انتاج البترول في بعض الدول العربية بمعدلات مرتفعة جداً وبشكل يتعارض ومصالح الدول المذكورة ويهدد بتبديد ونفاد احتياطيها البترولي بسرعة . ومن الامثلة على ذلك ان شركة الارامكو زادت انتاج المملكة العربية السعودية بمعدل ٨، ٢٧ بالمئة خلال عام ١٩٧٢ بالنسبة لعام ١٩٧١ وبمعدل ٣٥ بالمئة خلال التسعة اشهر الاول من عام ١٩٧٣ بالنسبة لمستوى انتاج نفس الفترة من عام ١٩٧٢ . اما مجموع انتاج الشرق الاوسط فقد ازداد ١٠٧،٣ ٪ عام ١٩٧٢ و ٢٢،٦ بالمئة خلال التسعة اشهر الاول من عام ١٩٧٣ في حين ان زيادة مجموع الاستهلاك العالمي لم تتجاوز معدل ٨ بالمئة سنوياً خلال الفترات المذكورة اعلاه . وهذا يعني ان انتاج البترول العربي قد ارتفع بمعدلات اعلى بكثير من معدلات زيادة الاستهلاك وان البترول العربي يغطي قسماً متزايداً من الاستهلاك العالمي . وان كان صحيحاً ان هذا الوضع يفسر جزئياً بضخامة الاحتياطي العربي ، فالواقع ان هذه الظاهرة تعود ايضاً وبشكل خاص الى رغبة الشركات والدول الكبرى في الاستفادة باسرع ما يمكن والى ابعد حد ممكن من المستوى المنخفض لكلف انتاج ولاسعار البترول العربي بالنسبة لمصادر البترول ولمصادر الطاقة الاخرى المتوافرة في العالم . أضف الى ذلك ان معظم الشركات البترولية العاملة في الدول العربية لم تتردد لزيادة انتاجها وارباحها بسرعة في استعمال اساليب تتعارض والطرق الفنية السليمة المتعارف عليها في صناعة البترول كعدم مراعاة ضرورة المحافظة على الضغط في الحقول وعلى النسب اللازمة بين الغاز والبترول المنتج . وقد أدى ذلك الى ما يسمى في صناعة البترول بـ « قتل » بعض الحقول وتبديد كميات كبيرة من الاحتياطي والحاق اضرار فادحة بالدول المضيفة . أضف الى ذلك ايضاً قيام الشركات الأجنبية منذ بدء انتاج البترول العربي بحرق كميات هائلة من الغاز المنتج وتبديدها هباء . وتقدر قيمة الغاز العربي

الذي تحرقه الشركات حالياً بمئات ملايين الدولارات سنوياً . لهذه الاسباب كلها بدأت الدول العربية مؤخراً بوضع قوانين خاصة بالمحافظة على الثروات البترولية والغازية على غرار القوانين المعمول بها في الولايات المتحدة وغيرها من الدول الصناعية . كما ان بعضها الاخر قد بدأ منذ مدة بتحديد معدلات الانتاج على ضوء المعايير الفنية المتبعة في صناعة البترول وعلى ضوء مصالح الدول العربية واجيالها القادمة .

وان كان هناك مجال للحديث عن التجني على « الحضارة الحديثة » فالحقيقة ان هذه التهمة يجب ان توجه لا الى حكومات تسعى للمحافظة على ثرواتها والنهوض بشعوبها بل الى شركات همها ومبرر وجودها تحقيق اعلى ارباح ممكنة وباسرع ما يمكن ، حتى ولو اقتضى ذلك هدر وتبديد مصادر ثمينة للطاقة وذلك على حساب الدول المنتجة وعلى حساب الدول المستهلكة .

اما القول بان استعمال البترول كسلاح سياسي يهدد الحضارة الصناعية والانطلاق من ذلك للتشكيك في حق العرب في استعمال مثل هذا السلاح فيكفي للاجابة عليه التذكير بالحقائق التالية :

– أولاً : ان استخدام الضغوط الاقتصادية لتحقيق مآرب سياسية ليس بدعة عربية بل وسيلة لجأت اليها بلدان كثيرة وفي طليعتها الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الغربية خلال الحروب وفي ايام السلم على حد سواء . ومن الأمثلة العديدة على ذلك الحظر الذي فرضته الولايات المتحدة سنين طويلة على التعامل الاقتصادي مع الاتحاد السوفيتي ومع الصين الشعبية او الحظر الذي سبق وفرضته المانيا الغربية على بيع انابيب البترول ذي القطر العريض الى الاتحاد السوفييتي . والابلغ من ذلك الطلب الذي تقدم به الرئيس نيكسون مؤخرا للكونغرس الاميركي لتجميد المحادثات حول تنمية العلاقات الاقتصادية مع السوفييت ريثما يتم حسم النزاع في الشرق الاوسط . كما ان بعض اعضاء مجلس الشيوخ الاميركي قد اشترطوا لمنح الاتحاد السوفيتي بند الدولة الاكثر رعاية ان يسمح هذا الاخير بهجرة اليهود الى اسرائيل . ومن الامثلة العديدة الاخرى التي تجدر الاشارة اليها المحاولات التي بذلتها وتبذلها حالياً شركات البترول التي اممت في البلدان العربية وغيرها لمنع هذه البلدان من بيع بترولها . هذا ناهيك عن « حرب السوجا » الاخيرة بين اميركا واوروبا الغربية او التهديدات التي اطلقتها مؤخرا

اسرائيل والمنظمات الصهيونية لمقاطعة النمسا اقتصاديا لا بل وسياحيا في اعقاب عملية فيينا الاخيرة .

هـذا غيض من فيض الامثلة عن ضغوط اقتصادية مورست لتحقيق منافـع اقتصادية او سياسية وفي ظروف لا يمكن بشكل من الاشـكال مقارنتها بالاخطـار والظروف المصيرية التي دفعت الدول العربية لاستعمال بترولها كسلاح سياسي .

— ثانيا : ان الحضارة الحديثة التي يتغنى بهـا بعض الغربيين لا تضار بشيء عندما يهب شعب ليدافع عن أرضه وكيانه وحقه في الحياة . ان التجني الحقيقي على الحضارة وعلى أبسط مفاهيم العدالة تتم عندما تبادر دول صناعية تنعم بخيرات البترول العربي الى مساندة اسرائيل وتشجيعها على اغتصاب المزيد من الاراضي العربية وعلى تشريد المزيد من اللاجئين وعلى شل طاقات أمة بأسرها .

تكييف العلاقات مع الدول الصناعية

ان استعمال البـترول كوسيلة ضغط أو كأداة ردع ضـد الدول التي تدعم العدوان الصهيوني المستمر على الامة العربية وتقف منا مواقف عدائية ليس كما سبقت الاشارة الى ذلك سوى وجه من أوجه اسـتخدام الثروات البترولية العربية كسلاح سياسي . أما الوجه الآخر الذي كثيراً ما نتناساه والذي لا يقل اهمية عن الاول فيتلخص في امكانية الافادة من القوة التفاوضية الهائلة التي تمنحها الثروات البترولية للدول العربية لكسب الاصدقاء والحلفاء في العالم ، ويقتضي تحقيق هذا الهدف اعادة النظر في طبيعة العلاقات البترولية،ومن ثمة الاقتصادية والسياسية ، بين الدول العربية والدول المستهلكة. ان المبادلات البترولية الدولية كانت حتى الآن ولا تزال الى حد بعيد تحت سيطرة عدد من الشركات الانكلوسكسونية الغربية عن البلدان المنتجة وعن معظم البلدان المستهلكة على حد سواء ، والتي تقوم بدور الوسيط بين الطرفين . نتيجة لذلك كانت البلدان الصناعية المستهلكة تنزع بطبيعة الحال الى الاعتماد على هذه الشركات وعلى الدول الانكلوسكسونية لتأمين ضمان امداداتها من البترول .

الا ان هذا الوضع قد بدأ يتبدل بسرعة منذ عدة سنوات تحت تأثـير عوامل مختلفة اهمها عمليات التأميم التي قامت بها بعض الدول العربية . ومن الملاحظ انه كلما زادت كميات الانتاج العائدة للشركات الوطنية العربية والتي تسوقها هذه الشركات مباشرة ، كلما

اتسعت العلاقات البترولية المباشرة والتعاون المتحد والبناء بين الدول العربية المصدرة والدول المستهلكة ، وكلما زادت رغبة الدول الصناعية كاليابان وبلدان اوربا الغربية وغيرها في تحسين علاقاتها الاقتصادية والسياسية مع الدول العربية واحترام حقوق العرب ومصالحهم القومية . والمطلوب في هذه المرحلة توسيع التطور في هذا الاتجاه والسعي لتنمية العلاقات المباشرة بين المنتجين والمستهلكين دون وسيط ودون تدخل الاحتكارات البترولية . ومن البديهيات ان تطور العلاقات البترولية المباشرة يدفع بطبيعة الحال الدول الصناعية الى اعادة النظر في مواقفها العدائية أو الحيادية تجاه النزاع العربي – الاسرائيلي ، والى اعتبار العلاقات المتكافئة مع الدول العربية افضل ضمان لامداداتها البترولية . وخير دليل على ذلك سياسة التقارب مع العرب التي تنتهجها منذ سنوات بلدان كفرنسا وايطاليا واسبانيا واليابان ، هذه السياسة التي تبنتها الدول الست الاعضاء في السوق المشتركة في بيانها الصادر في ٦ تشرين الثاني حول أزمة الشرق الاوسط. هذا بالطبع بالاضافة الى الفوائد الاقتصادية الاخرى التي يمكن ان تجنيها الدول العربية من استعمال البترول كورقة رابحة لتكييف مجمل علاقاتها الاقتصادية مع الدول الصناعية بشكل يؤمن توازن المصالح المتبادلة بين الطرفين . ومما يعني بشكل خاص ان تضمن الدول العربية امدادات الدول الصناعية بالبترول لقاء مساهمة هذه الدول في تنمية الاقتصاد العربي ، وفتح اسواقها في وجه المنتجات الصناعية والزراعية العربية ، الى ما هنالك من المساهمة المالية والفنية في تنفيذ المشاريع الانمائية العربية .

ولا بد من التأكيد والتذكير مرة أخرى أن كل هذا لا يمكن تحقيقه إلا بقدر ما تكون الدول العربية السيدة الحقيقية لثرواتها البترولية . أي بقدر ما تكون قد تحررت من سيطرة الاحتكارات وأصبحت بلدان منتجة ومصدرة فعلا للبترول وليس فقط بلدان فيها شركات أجنبية تنتج وتصدر البترول .

بهذا المعنى يمكن القول أن تصفية نظام الامتيازات هو شرط أساسي لكل سياسة عربية تستهدف الافادة من البترول لتنمية الاقتصاد العربي ولتطوير العلاقات مع الدول الأخرى وفق ما تقتضيه مصالحنا القومية . لذلك لا يمكن أن يلعب البترول دوره في معركة التحرير بمعناها الواسع إلا اذا بدأنا أولا بتحرير البترول نفسه من السيطرة الاجنبية . ومما يشجع على انتهاج مثل هذه السياسة أن البترول العربي يغطي حاليا ما لا يقل عن ٧٥ بالمئة من مجموع واردات أوروبا الغربية و ٤٣ بالمئة من واردات

اليابان من البترول . ومن المرتقب أن ترتفع هذه النسب في المستقبل القريب نظراً لأهمية الاحتياطي العربي ولازدياد الطلب على البترول والغاز وسائر مصادر الطاقة في السوق العالمية .

دور البترول في التنمية الاقتصادية

الوجه الثالث والاخير لاستعمال البترول كسلاح سياسي يتعلق بالدور الهام الذي يمكن ويجب أن تلعبه الثروات البترولية في انماء الاقتصاد العربي وفي تحقيق وحدتنا القومية . ذلك لأن موضوع التنمية الاقتصادية في اطار عربي متجانس ومتكامل هو جزء لا يتجزأ من معركة التحرير التي تخوضها الأمة العربية بأسرها ضد المغتصب الصهيوني وضد ما تبقى من ركائز الاستعمار الاجنبي في بلادنا . وصناعة البترول مؤهلة أكثر من غيرها للقيام بدور المحرك والحرص على الانماء وعلى توثيق الروابط الاقتصادية بين الدول العربية نظراً لحجم هذه الصناعة ولآثارها البعيدة والمتعددة على سائر القطاعات الاقتصادية .

لا مجال هنا للتوسع في موضوع دمج صناعة البترول بالاقتصاد العربي ودور البترول في مختلف ميادين النشاط الاقتصادي ونكتفي بالاشارة الى الملاحظات التالية :

١ — الملاحظة الاولى هي أن سياسة البترول العربية كثيراً ما تركزت في الماضي ، لا بل اقتصرت في بعض الحالات ، على زيادة العائدات دون غيرها من المسائل التي يطرحها استثمار البترول العربي في مجال الانماء الاقتصادي الوطني ومتطلباته . وتصح نفس الملاحظة والى حد بعيد بالنسبة لمنظمة البلدان المصدرة للبترول، أوبيك، التي وجهت جهودها منذ انشائها عام ١٩٦٠ نحو زيادة الدخل الذي تتقاضاه الدول الأعضاء من الشركات العاملة الاجنبية . ويمكن ابداء نفس الملاحظة ايضاً حول أنظمة الاستثمار الجديدة التي اضيفت الى نظام الامتيازات التقليدي منذ ١٩٥٧ وهي انظمة المشاركة والمقاولة . اذ ان مسألة الاختيار والمقارنة والمفاضلة بين هذه الانظمة الجديدة ونظام الامتيازات التقليدي تعتمد احياناً على المقارنة بين ما يؤمنه هذا النظام أو ذاك من دخل مالي للبلد المضيف دون اعتبار للأوجه الاخرى الخاصة بتلاؤم هذا النظام أو ذاك مع حاجة البلد المنتج للافادة الاقتصادية من ثرواته ، ولانتقاله من دور المتفرج أو الجابي للضرائب الى دور الصناعي والمخطط المستثمر المباشر لثرواته الطبيعية .

وان كان من البديهي ان موضوع زيادة العائدات او الدخل الناجم عن تصدير البترول هو موضوع حيوي بالنسبة لبلدان نامية ما زالت بعيدة عن نيل حقوقها الكاملة في هذا الميدان ، وما زال البترول يشكل المصدر الرئيسي وأحياناً الوحيد لدخلها القومي . فمن البديهي ايضاً ان موضوع زيادة الدخل المالي لا يمكنه بشكل من الاشكال ان يكون الهدف الوحيد لسياسة النفط في بلداننا ، وان يصرف انتباهنا عن مشاكل أخرى لا تقل اهمية عنه وفي طليعتها مشكلة دور صناعة البترول كمحرض على الانماء في مختلف أوجهه وكدعامة أساسية من دعاماته .

٢ — الملاحظة الثانية هي أن شجرة قطاع النفط الوطني التي غرست في الدول العربية وأخذت تنمو منذ سنوات قليلة ، لايمكن ان تحجب نظرنا عن غابة الامتيازات التي ما زالت سائدة ، والتي ما زالت . كما سبقت الاشارة الى ذلك ، تشكل عقبةرئيسية في سبيل استعادة السيطرة على ثرواتنا النفطية والتحكم بها وتوجيهها وفق ما تقتضيه مصالحنا الوطنية وحاجاتنا الانمائية . بهذا المعنى يمكن القول ان دور البترول في انماء الاقتصاد العربي لا يقتصر على شركات النفط الوطنية وعلى القطاع النفطي الوطني فحسب بل يستلزم أيضاً جهوداً كبيرة وسريعة لتصفية نظام الامتيازات الذي خلفته لنا السيطرة الاجنبية ، ولاستعادة حرية التصرف بثرواتنا بالشكل الذي تمليه اوضاعنا ومصالحنا كبلدان نامية .

٣ — الملاحظة الثالثة والأخيرة هي ان موضوع الافادة من البترول او الغاز الطبيعي لاغراض التنمية الاقتصادية يطرح في بلدان نامية كالبلدان العربية مشاكل خاصة قلما نجد لها أثراً في الادب البترولي الغربي الذي يملأ مكتباتنا ويحاول توجيه افكارنا. فالفكر البترولي الغربي لم يول هذه المسألة ما تستحقه من اهتمام وذلك لسببين رئيسيين . السبب الأول هو ان هذه المسألة لا تنطرح في البلاد الصناعية بالشكل الذي تعرفه الدول النامية. فنمو شركة بترولية مثلاً، خاصة كانت هذه الشركة او حكومية، في أي بلد متقدم صناعياً يتم في اطار اقتصادي متكامل ومترابط ويؤدي من ثمة وبطبيعة الحال لتفاعل نشاط هذه الشركة مع محيطها الاقتصادي ولزيادة التبادلات المتنوعة كالمعدات والخدمات والتبادلات المالية وغيرها بين هذه الشركة الجديدة وشتى الوحدات الاقتصادية الأخرى . وهذا كله يساهم تلقائياً في النمو الاقتصادي العام في البلد المذكور. أما في البلاد النامية كالبلاد العربية فمن الطبيعي ان مثل هذه التبادلات

أو مثل هذا النمو يستلزم تخطيطاً اقتصادياً شاملاً وموجهاً نحو خلق المحيط الاقتصادي الملائم وتنشيط مختلف الوحدات الانتاجية والقطاعات التي يمكن ان تقدم لصناعة النفط ما تحتاج اليه من معدات وسلع وخدمات ، وتتلقى منها في المقابل مختلف المواد الأولية والمصنعة .

وهكذا يمكن لديناميكية النمو ان تنتقل من قطاع الى آخر وتحرك الاقتصاد الوطني بكامله. خاصة وان لصناعة البترول والغاز دور استراتيجي في كل عملية انمائية سواء كان ذلك بفضل آثارها العامة كمصدر للطاقة ام بفضل آثارها الخاصة كمصدر للمواد الأولية اللازمة في عدد من الصناعات الرائدة كالصناعات البتروكيماوية والغازوكيماوية .

اما السبب الثاني الذي حال دون اهتمام الادب البترولي الغربي بدور البترول في انماء اقتصاد البلدان المنتجة فيعود لارادة الشركات والدول الصناعية التي تنتمي اليها ، في ترسيخ الاوضاع الراهنة والابقاء على الدول العربية كخزانات للبترول الخام يفيد منها الغرب وحده ويستثمرها كمصدر للربح المالي وللمواد الاولية اللازمة لصناعاته ولتغذية تقدمه الاقتصادي .

ان هذا الواقع يضعنا وجهاً لوجه امام المسؤولية الكبيرة الملقاة على الفكر الاقتصادي العربي وعلى ضرورة قيام الاقتصاديين وسائر المثقفين والمعنيين العرب بالجهد اللازم لاعادة النظر في الادب البترولي الذي قدمه لنا الغرب حتى الان ، ولدراسة مختلف اوجه الوسائل اللازمة لوضع حد لاساليب الاستغلال التي فرضت علينا تحت ستار الامتيازات وغيرها ، وللافادة من ثرواتنا النفطية لاغراض التنمية الاقتصادية الوطنية .

خلاصة لما تقدم يبدو من الواضح ان سلاح البترول لايعني فقط اتخاذ تدابير مؤقتة او احتياطية للضغط على هذه الدولة او تلك عندما تنشب المعارك المسلحة بيننا وبين اسرائيل . ان دور البترول في معركة التحرير ابعد واهم من ذلك بكثير اذ ان هذا الدور يستلزم سياسة بترولية عربية طويلة المدى غايتها الافادة من الثروات البترولية لاعادة النظر في مجمل علاقاتنا مع الدول الاخرى وتوجيه هذه العلاقات وفق مصالحنا القومية . بهذا المعنى يمكن القول ان سلاح البترول يمكن ويجب ان يستخدم كل يوم ، في فترات الحرب وفي ايام السلم على حد سواء ، في اطار سياسة عربية متكاملة وبعيدة المدى .

حرب رمضان والثورة البترولية العربية

الدكتور عفيف بهنسي

لم تكن حرب رمضان محددة بتحرير الأرض المحتلة ، بل ان أهدافها تتجاوز كثيراً هذا الحد ، ذلك أن احتلال بعض الأراضي السورية والمصرية ، اذا كان نكسة سياسية ، فانه لم يكن بالنسبة لاسرائيل انتصاراً بل عبئاً كلفها كثيراً من الخسائر واضطرها لاستنفار طاقاتها مدة ست سنوات على الأقل . ثم كان هذا الاحتلال مصدر قلق مستمر على وجودها وموضع استنكار من العالم كله ومن المنظمات الدولية أيضاً .

ويجب الاعتراف ان حرب رمضان هي التي حددت اهدافها الجديدة ، من خلال المعركة التي تجلى فيها التضامن العربي ، وتوضحت فيها المسؤليات العربية المشتركة ، فكان ما كان من نتائج تحرير البترول الذي فجر صراعات لا نهاية لها ، ليس مع اسرائيل وحدها ، بل مع العالم الامبريالي كله ، وظهرت آثار حرب التحرير في جميع نواحي الحياة الاقتصادية في اليابان وامريكا واوربا ، واصبح يهدد هذه الحياة ، بل واوشك ان يزعزع الثقة باستمرارها ، ويجب ان نعترف ايضاً ان الثورة البترولية العربية التي تفجرت في حرب رمضان ، وصلت الى ابعاد لم تكن متوقعة حتى من العرب انفسهم ، وفتحت اعيننا على حقائق كنا نجهلها كل الجهل ، ووضعتنا في حالة حرجة تدفعنا الى المزيد من التبصر وتحمل المسؤولية ، لمتابعة حرب التحرير الاقتصادية حتى يتم النصر فيها ، وهو نصر ثمين جداً لأنه يحقق وجود قوة عالمية كبرى هي قوة العرب التي تمتلك جميع امكانات الدولة المتقدمة القادرة على ضمان الحرية الانسانية والسلام بمناهضتها لقوى العدوان والامبريالية .

لقد ابتدأت اوربا وامريكا نهضتها بابتكار الالة التي أراحت الذراع البشري ، وكثفت جهده ورفعت من مستوى انتاجه ، ومن المؤكد انها لم تستهلك كل انتاجها الوفير والمتزايد بل خصصت قسماً منه لكفايتها وتحسين معيشة سكانها وتركت القسم الأكبر لتصديره الى خارج حدودها ، وقد حققت لها صادراتها زيادة في تحسين معيشتها نظراً لزيادة منسوب دخلها القومي ، ودفعها طمعها الى توسيع نطاق انتاجها ، والى توسيع نطاق اسواقها فكان لابد لها من اللجوء الى الاستعمار والاحتلال وبسط نفوذها في ساحات كبيرة من العالم ، في امريكا اللاتينية وفي اسيا وافريقيا ، لتأمين اسواق مستهلكة مستمرة تحتاج الى المزيد من الانتاج المستحدث لتطوير ظروف حياتها ، ليس على اساس تحسين وسائل الانتاج بل على اساس تأمين الحاجات الاستهلاكية غير المتوفرة في بلادها .

ومن هنا نشأت الامبريالية وهي النظام الاستعماري الاقتصادي الذي يسعى الى تكريس التخلف في الاقطار الصغيرة ، لكي لاتتاح لها الفرصة لتحقيق الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي ، واستمرت الدول الامبريالية في تطوير وسائل انتاجها ، حتى اصبح تفوقها التقني اساساً لاحكام سلطتها الامبريالية على العالم الأصغر.

ذلك ان هذه الدول كانت تستغل الدول الصغرى مرتين ، مرة عند استيلائها على

مصادر المواد الاولية والطاقات المتوفرة لديها. ومرة اخرى عند بيع انتاجها المصنع الى بلاد نفس المصادر . ويبقى سبب مصائب الاستغلال في العالم هو التخلف التقني ، ولذلك تتسابق الامم المتحررة لتحسين امكانياتها التقنية وتحسين انتاجها وفق افضل الشروط .

على أن وراء هذا التقدم التقني كانت ثمة امكانيات جاهزة ومستحدثة هي الطاقات البشرية والمادية التي لعبت دوراً أساسياً في تحديد حجم التقدم التقني . ولقد استطاعت الأعداد الضخمة من سكان أوربا وأمريكا أن تتجه وبسرعة نحو المعرفة والاختصاص ، كما ساعدت الأبحاث المستمرة على اكتشاف طاقات طبيعية لا حد لها ، ووصلت الى حدود السيطرة على اللامتناهيات الثلاثة ، اللامتناهي في الصغر «الميكروب والذرة» واللامتناهي في السرعة «الجمبو والصاروخ» واللامتناهي في البعد «الوصول الى القمر والكواكب».

والحقيقة ان هذه الامكانيات ليست كافية دائماً لتثبيت التقدم التقني . فالطاقات البشرية المتطورة اصبحت قادرة ، كما تضاءلت الطاقات المادية ، فكان على الدول العظمى ان تسعى الى تشجيع هجرة الخبراء والاختصاصيين اليها ، وهي طاقات جاهزة امتصت كثيراً من الجهود والتكاليف في بلد منشئها حتى استقامت ونضجت ، وان سرقتها واستغلالها اصبح هدفاً أساسياً لاستمرار التقدم التقني في الدول العظمى ، أما الطاقات المادية ـ كالبترول ـ فلقد تحركت الأطماع فيها في كل بقعة من بقاع الأرض لتنقب عنها وتستولي عليها وتربطها بمصالحها ، وكانت الدول العربية من أهم تلك البقاع الغنية بهذه الطاقة الهامة ، فخضعت مع الأسف الى نوع من الاغتصاب العنيف خلال ربع قرن من الزمن أو ما ينيف ، وخسرت بنتيجة ذلك خسائر لا تحصر ، بينما ربحت الدول الامبريالية أرباحاً هائلة كانت سبباً أساسياً في استمرار تقدمها وفي تعضيد سيطرتها على العالم ، وخاصة على العرب أنفسهم الذين أمدوا الامبريالية صاغرين بجميع وسائل هذه السيطرة والاستغلال .

هذه هي صورة الطرف المقابل في حلبة الصراع الكبير الذي تفجر بعد حرب رمضان ، ونستطيع تكثيف هذه الصورة بقولنا : ان الامبريالية قد حققت تقدمها وأقامت سلطتها عن طريق استيلائها على الطاقة البترولية ، المحركة لاجهزتها الانتاجية وعن طريق استيلائها على أسواق الاستهلاك العالمية .

وهذا هو بترولنا شاهد متحسر على ذلك النزيف الرخيص الذي تعرض له منذ

ظهوره حتى اليوم ، وهذه هي موازينه التجارية الخاسرة مع العالم الامبريالي تبين لنا الى أي حد نحن مسخرون لترويج انتاج المستغلين .

الصورة الاخرى ، هي صورتنا نحن العرب . وقد تكون مشابهة الى كثير من ملامح دول العالم الثالث الهوب ، ولكنها تتميز مع ذلك بخصائص ثلاث : أولاً ان هذا العالم العربي عريق في حضارته راسخ في قدمه وأمجاده تربطه ببعضه روابط قومية متينة ليس من السهل تفكيكها . ثانياً ان هذا العالم يمتد في أحسن منطقة جغرافية .

فهو يسيطر على البحر الأبيض المتوسط في اكثر اطرافه ، ثم هو يشكل القسم الأهم من افريقيا والجسر الواصل بين آسيا والغرب .

ثالثاً،ان هذا العالم يملك اهم الطاقات الحضارية التي تسير الصناعة وتصنع الكهرباء وتمد وسائط النقل على اختلاف انواعها بالحركة ، وهي البترول الذي يبلغ احتياطه في باطن الأرض العربية ٥٤٪ من — احتياطي العالم كله . كما ان العالم العربي يمتلك اهم المواد الأولية الضرورية للصناعات التحويلية والغذائية مثل القطن والبن والفوسفات . ثم انه يضم اكثر من مئة مليون من السكان القابلين للتطور السريع لطموحهم الحضاري المشهود .

وعلى الرغم من هذه الخصائص الممتازة ، فان العالم العربي ما زال مقصراً عن مستوى التقدم في اوربا وامريكا ، اذا لم تتح له نفس ظروف التقدم التقني الهائل الذي تحقق في الغرب ، ومع انه حاول النهوض من تخلفه بارادة جبارة ، الا انه اضطر دائماً ان يعتمد في نهوضه على خبرات الغرب والاته وبضائعه وسلاحه ، فكان تقدمه شكلياً لم ينفذ الى الأساس ، ولهذا بقي مرتبطاً في وسائل نهضته بالنفوذ الامبريالي في العالم ، وعندما اراد ان يتحرر من هذا النفوذ ، تعرض الى حصار مرير كاد يحول دونه في محاولة اقامة سدوده العالية ومصانعه الانتاجية وفي مجال تسليحه ودعم دفاعه . ومن حسن الحظ ، ان القوة العالمية الأخرى التي يتزعمها الاتحاد السوفيتي ، كانت خير نصير لدعم جميع سياسات التحرر في العالم ، وخير معين لنا في القضاء على الحصار الامبريالي الذي اراد تطويقنا .

ولكن القضاء على الحصار ليس هدفاً ، بل مرحلة في صراع مرير طويل لتحرير الطاقات والامكانيات العربية من الاستغلال والتبعية ، وتسخيرها لبناء الكيان العربي القوي .

ويبدو أن العرب بعد حرب رمضان تمكنوا من تحديد هدفهم بوضوح ، وأنهم عرفوا الطريق إلى الهدف ، ولقد باشروا المسيرة فيه مستفيدين من خصائص العالم العربي الممتازة التي أتينا على ذكرها .

لاشك أن أمجاد الأمة العربية وتاريخها الحافل بالحضارات يبقى أساساً لتقوية الثقة بالنفس ، ولدعم — التضامن وتوحيد الهدف.ولقد سعى الغرب من خلال سياساته الثقافية المسمومة لأن يخفف من أهمية الحضارة العربية والتراث العربي ، ولقد كنا دائماً ضحايا لكثير من هذه المحاولات ومازلنا نخضع لمؤثرات مشبوهة في تقييم ثقافتنا وكتابة تاريخنا وتطوير ابداعاتنا . ولهذا فان هذه الخصيصة لم تكن متوضحة ، فكان علينا أولاً أن نزيد من تعرفنا على تراثنا وماضينا ، لكي يكون ذلك ذخراً ثقافياً مفيداً في صراعنا .

والموقع الجغرافي الممتاز هو الخصيصة الثانية في العالم العربي ولقد أدركت القوى الامبريالية والاستعمارية ذلك ، فاحتلت بلادنا ولم تتخل عنها الا بعد نضال مرير ، كانت حرب التحرير الجزائرية صورته المثلى ولكن ما أن تحررت الأرض العربية كلها حتى استبدلت الدول المستعمرة والامبريالية الاحتلال بقواعد عسكرية نشرتها في أطراف البحر الأبيض المتوسط ، وحركت على سطحه أساطيلها الضخمة ، ثم أقامت من اسرائيل قاعدة معتدية لكي تصرف العرب عن تعبئة قوام البناء والتنمية وعن الافادة من مواقعهم الستراتيجية في تحسين علاقاتهم الاقتصادية مع العالم .

أما الطاقة البترولية فلقد كانت محرمة على العرب مخصصة لخدمة تقدم الدول الامبريالية ، ولتقوية نفوذها على العالم . ولقد كشفت ثورة البترول بعد حرب رمضان الدور الكبير الذي كان يلعبه البترول العربي في تسيير عجلة الحياة الاوربية والامريكية ، والدور الكبير الذي ينجزه في انتاج الحجوم الضخمة من السلع والأجهزة والأسلحة التي تشكل الرقم الأساسي لازدهار الاقتصاد وسيطرة السياسة .

على أن الثورة البترولية العربية لاتهدف هدم الاقتصاد الاوربي والأمريكي لقناعتها بأن هذا لايشكل ربحاً للعرب ، بل تستهدف القضاء على استنزاف طاقاتها .

هنا لابد من اجراء مقارنة بين العرب والعالم المتقدم لموازنة امكانيات التقدم فيها ، ولاول وهلة بعد التحليل الذي اتينا عليه ، يبدو لنا ان العرب يملكون طاقة محركة هائلة لا تستغل على ارضهم ، وان هذه الطاقة الثمينة جدا تهب بابخس الاسعار ، وان ما يحصل عليه العرب من مدخول مقابل بترولهم لا يستثمر اطلاقاً على الارض

العربية ، بل ان الارصدة الضخمة من اموال دول البترول مستغلة خارج نطاق فعالياتنا الاقتصادية ثم ان المواد الاساسية للصناعة تصدر بحالتها الخام ، وان الصناعات المحلية ضئيلة ومعرضة للمزاحمات ولضيق الاسواق، نظرا لتفكك السوق العربية ولعدم اهتمامنا بتنظيم علاقات راسخة مع الدول الاسيوية والافريقية المجاورة .

والامر في العالم المتقدم ، كما ذكرنا في بداية هذا المقال قد يبدو معاكسا ، فهو يحتاج الى الطاقة المحركة الاساسية لصناعاته ومواصلاته وحياته اليومية ، ويستورد هذه الطاقة من بلادنا بشروط سهلة ثم لا يلبث ان يستفيد منها في مراحل كثيرة ، مرحلة التصفية والتكرير ، ومرحلة التوزيع والتصدير ، ومرحلة التصنيع والتجارة ، وفي جميع هذه المراحل تستفيد اليد العاملة هناك من اجور مرتفعة تحسن شروط حياتها ، وتستفيد الحكومات من الضرائب والرسوم التي تشكل ارقاما هامة في ميزانياتها ، عدا ان عمليات التجارة الخارجية اصبحت تؤمن موارد اساسية تجعل ميزان الدخل القومي راجحا باستمرار . وهكذا نستخلص المعادلة التالية : الطاقة المحركة والمتمولة ، والسوق الاستهلاكية هما أساس التقدم الاقتصادي ، وهي عناصر يملكها العرب ، والقوة التقنية هي رأسمال استغلالي خطير ، فهي عنصر يملكه العالم المتقدم ، أي أن ما يملكه العرب يفتقده غيرهم وأن ما يملكه العالم المتقدم يستطيع العرب تداركه ذاتياً بعد تطوير تقنياتهم ، وهكذا فأن العالم المتقدم يقف على طرف خطير من طرفي الصراع المقبل وان العرب يقفون على طرف اكثر رسوخاً ، ولهذا تعلو أصوات النذير في أمريكا وأوربا اليوم، من أن حرب البترول العربية موجهة للقضاء على الاقتصاد الاوربي والامريكي .

بينما نراها نحن موجهة للقضاء على الامبريالية والاستغلال التي تجعل من بلادنا العربية متخلفة فقيرة مستضعفة . صحيح أن منع الطاقة بل حتى تخفيفها أمر خطير يهدد الوجود الكامل لدولة مثل هولندا أقامت اقتصادياتها على صناعة التكرير والتحويل النفطي ولم تستطع الاعتماد على مصادر أخرى للوقود ، وان المقاطعة العربية لهولندا أثبتت ان مصير هذا البلد مرتبط كلياً بتوفر هذه المادة الأساسية ، ولكن ومن المعلوم أن جميع دول العالم وخاصة في اوربا الغربية بالاضافة الى الولايات المتحدة وجميع دول العالم الثالث المتقدمة والمتخلفة تعتمد على هذه المادة . وان العرب يرفضون اللجوء إلى الابتزاز استناداً الى أهمية البترول الذي يملكونه ، ولكنهم يتطلعون الى الاستفادة منه بنفس المستوى الذي يستفيد منه العالم ، على الأقل . وخبراء العالم المتقدم يدركون أنه

ليس من الممكن اقتصادياً أن نمنع بترولنا عن العالم ، كما أنه ليس بإمكاننا الاستقلال بصناعات التكرير والتحويل ، ومع ذلك فهم يناورون اليوم لكي يحولوا دون تحقيق أهدافنا القومية .

ان هدف الثورة البترولية العربية هو استغلال هذه الطاقة استغلالاً قومياً حراً لتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي ورفع الحياة الى المستوى اللائق بهذه الأمة وبخصائصها التاريخية والجغرافية والامكانية .

ومن المعلوم أن هذه الطاقة التي نملكها والتي نسعى الى تحريرها واستغلالها لتقدمنا ، ليست طاقة خالدة ، بل على العكس انها سريعة النفاد ، ولن يمضي نصف قرن حتى توشك على النهاية ولذلك كانت هذه الثروة النفطية فرصة العرب الذهبية لخلق الظروف المناسبة لاستمرار الحياة المتقدمة بعد نفاد البترول . كان تستغل مواردنا البترولية الكبيرة في اقامة السدود ، وتحسين الزراعة ، واقامة البحيرات وفتح الاقنية ، وتطوير البحث العلمي ، والتنقيب عن الثروات المعدنية والطاقات الاخرى .

وهكذا فان تحرير البترول العربي يعني تحسين شروط الافادة منه عن طريق تكريره وتصدير مشتقاته الكيماوية ، وعن طريق تصنيعه وتوسيع نطاق الاصناف الصناعية المستخرجة منه كالمطاط ، والبوليستر ، والنايلون ، ثم القيام بالصناعات التحويلية القائمة على هذه المواد الأولية التي شاع استعمالها عوضاً عن النسيج والخشب والمعدن . وهذا يعني زيادة عائدات هذه الثروة الهائلة الى ثلاثين مثلاً على الأقل خاصة اذا أصبح نقل نتاج هذه الصناعات عن طريق بواخرنا الوطنية . ومرة أخرى نقول إن زيادة الدخل القومي التي تحصل عن طريق زيادة العائدات النفطية ، لاتعني ازدهاراً حقيقياً لنا ، والمثال واضح اليوم في اكثر الدول العربية التي تودع المصارف العالمية حصائل عائداتها، والتي كانت تكتفي بالتمتع بالمزيد من العمارات والشوارع والسيارات ، دون ان يدفعها القلق على مصير هذا الازدهار المؤقت بعمر البترول ، الى تأمين مصادر راسخة للبقاء والتقدم ، ولا بد من تخصيص الثروات العربية المجمدة للمشاريع الانمائية الأساسية لضمان المستقبل ، فالوطن ليس لنا وحدنا بل لابنائنا واحفادنا .

لقد حققت الثورة البترولية العربية انتصاراً كبيراً حتى الان ، ويكفي القول أن البترول قبل زمن يسير كان ملكا للشركات المستغلة وللدول الداعمة لها من ورائها ، تحدد في كمياته الضخمة دون أن تقيم وزناً لسرعة نفاده ، بل انها تسعى جاهدة إلى

زيادة كمياته إلى أعلى مستوى ممكن ، للاستعجال في تغذية صناعاتها المتقدمة ، وخشية تحرره قبل الاوان ، والشركات هي التي تحدد اسعار البترول في خليج – المكسيك وفي الخليج العربي ، هي التي تنقله بانابيبها وحاملاتها ، وهي التي تقرر حصتنا من بترولنا الخام ، فتسمح لنا بتكريرها فقط دون غيرها ، لانها وحدها تحتكر البترول الخام ثم تتدخل في عمليات تكريره وتصنيعه لصالحها . والشركات هي التي تقرر أسواق بيع البترول ومشتقاته فتبيعه الى من تشاء ، حتى الى عدونا الذي يستمد منه طاقته في عدوانه ، أو في السيطرة علينا .

ثم قامت الثورة البترولية من خلال حرب رمضان وقضت على جزء كبير من نفوذ الشركات على بترولنا ، وبقي ان تقضي على ما تبقى لهذه الشركات من نفوذ ، وان تباشر بعد الآن واجباتها في ادارة ثرواتها وتوجيهها نحو مصلحتها القومية المطلقة .

ومن المؤكد ان الطريق صعب ، محفوف بالمخاطر ، ولكن الضمان الوحيد لسلامته هو استمرار التضامن العربي واستمرار هذا التكافل الرائع الذي تجلى خلال الحرب وتكرس في مؤتمر القمة العربي في مدينة الجزائر ، ثم في استمرار تعبئة القوى العسكرية والاقتصادية الكافية لازالة جميع العوائق المحتملة ولصد جميع العدوانات المتوقعة . ثم ان ممارسة حقوقنا المشروعة في استقلال ثرواتنا المحررة ، انما يقوم على ارضية تقنية لابد ان تكون متكافئة في تقدمها مع اهمية هذه الثروات وحجمها ، وتتطلب هذه التقنية تجهيز الكوادر الفنية والمحافظة عليها دون هجرتها ، واقامة المصافي والمصانع حسب تخطيط علمي يتفق مع جغرافية العالم العربي ، وتشغيل الارصدة والاموال العربية في الصناعات الجديدة ، واقامة تكتل اقتصادي عربي مستمد من الروابط القومية والمصالح المشتركة والامال الموحدة التي تجمع العرب على صعيد المسؤولية والتقدم .

لقد تفجرت الثورة العربية من خلال الطاقة البترولية فكانت ثورة لبناء وجود عربي متقدم ولترسيخ الامة العربية كقوة كبرى تضمن الحرية والسلام .

تعميق التضامن العربي لتحقيق النصر

يحيى عمودكي

ليس مغالاة منا نحن العرب ، ولا موالاة من أصدقائنا ومؤيدينا ، ولا محاباة من الشرفاء في العالم وانما هو حقيقة بدقة ، القول أن حرب رمضان كانت حدثاً هاماً جداً ، ليس في تاريخ العرب الحديث فحسب بل في تاريخ العالم ، ومنعطفاً بالغ الخطورة ليس بالنسبة للعلاقات العربية والدولية ، وانما بالنسبة للعلاقة بين العملاقتين الكبيرتين .

بعد مرحلة الانفراج الواسع التي حققتها بعد لقاء نيكسون – بريجنيف في موسكو ثم واشنطن . وأكثر من هذا وذاك بالنسبة لمستقبل الدعم الأمريكي لاسرائيل ، بعد أن كاد هذا الدعم يلقي بالمواطن الأمريكي في أتون حرب لاهبة ، لا بد أن تكون اشد لظى من تلك التي اكتوى بها في فيتنام .

الحرب التي مسحت جراح ما قبلها :

واذا كان صحيحاً القول ، ان حرب رمضان كانت نصف نصر العرب ونصف هزيمة لأسرائيل ، لأن الطرفين – كما يقول الجنرال بوفر – وان تحملا خسائر كبيرة ، إلا أن هذه الخسائر لم تبلغ المستوى الذي يجعلها يتعبان حتى يتوقفا عن التحارب . فان الصحيح أيضاً أن هذه الحرب قد مسحت جراح العرب في حرب الأيام الستة ، بما حققوه من انتصارات مباشرة أو غير مباشرة تمثلت بالآتي :

١ – تحرير الارادة العربية بحيث أتاحت للأمة العربية ادراك ذاتها ، والتعرف الواضح على مدى امكاناتها ، والتقدير الصحيح لطاقاتها ، وتلمس السبل اللازمة لاستخدامها ، كما أكد على ذلك السيد الرئيس حافظ الأسد .

٢ – تحرير الأجيال العربية من عقدة التكنولوجيا الحديثة ، بعد أن تمكنت القوة العربية من أن تستخدم بنجاح الاسلحة الحديثة وأن تستوعب دقائقها وتحيط بالتقنية العسكرية المتقدمة للعدو الأسرائيلي المدعوم من الامبريالية الامريكية .

٣ – انهاء اسطورة اسرائيل التي لا تقهر ، وتحول القاعدة الامريكية في الشرق الاوسط ، التي كانت موئلاً للركون اليها عند الحاجة ، الى فيتنام ثانية بحاجة الى الحماية الامريكية ، ومقبرة جديدة للشباب الامريكي وغيره ممن يمكن أن يتورط في خضم الدعاية الصهيونية الباطلة .

٤ – عبور قناة السويس بدقة وسرعة أذهلتا العدو والخبراء العسكريين في العالم .

٥ – تحطيم خط بارليف (الاسطورة) التي نسج الاسرائيليون حوله هالة كبيرة من الدعاية حتى كان يخيل للكثير أنه يستعصي على أي تقدم عسكري .

٦ – الخسارة الكبيرة في العتاد والاسلحة والقوة البشرية للعدو الصهيوني على يد الجيوش العربية ، التي كانت قبل حرب رمضان ، في نظر العدو وحلفائه ، دمى وأشكالاً للعرض في الاحتفالات والمواسم .

٧ – وحدة الصف العربي ، وانهيار آمال العدو واستراتيجيته المبنية على تمزق هذا الصف ، وسيطرة الهلع عليه من هذه الوحدة ، بعد ان كان ينظر اليها على أنها خرافة . (وان الحديث عنها كان كثيراً – كما قال الجنرال بارليف بعد حرب الأيام الستة – لكن أحداً لم يلمحها ، ونحن على حد قول الجنرال لم نلمحها ايضاً أثناء حرب الأيام الستة ، وهذا ما يجعلنا أقل خوفاً منها في المستقبل) .

٨ – استعمال العرب النفط سلاحاً فعالاً في المعركة لدعم حقهم وحمل القوى التي ضللتها الصهيونية على الرجوع الى صوت الحق والضمير العالمي ، وتلمس المصلحة الحقيقية لشعوبها المضللة .

٩ – النجاح الذي حققه العرب في افريقيا وفي بلدان عديدة من بلدان العالم الثالث بشكل امتزجت معه آمال وآلام شعوب هذه البلدان مع آمال وآلام الشعب العربي في معركته المشرفة مع الصهيونية المدعمة بالامبريالية العالمية .

١٠ – تمكن الدبلوماسية العربية من أن تقطع الطريق على كيسنجر وعبقريته الفذة التي عملت الدعاية الصهيونية على التضخيم منها والتي كانت تستهدف أن يكون وفاق العملاقين الكبيرين على حساب المصلحة العربية وحقوق الشعب العربي في فلسطين .

١١ – النجاح الذي حققه العرب نتيجة استخدام النفط في ايقاظ الضمير لدى شعوب مجموعة أوربا الغربية ، وبلدان حلف الاطلسي ، بشكل وصلت معه هذه الشعوب الى حافة الانقسام على بعضها في مواجهة الحقيقة المرة المتمثلة بشتاء قارس وتعرض آلات المعامل للوقوف عن الدوران .

١٢ – الاستخدام الجيد للموقع الجغرافي الممتاز للوطن العربي في خدمة المعركة ، من ساحل الخليج العربي الى باب المندب ، الى مرافىء ليبيا والجزائر وشواطىء المغرب ، الى كل بقعة من هذا الوطن الذي التحم وتضامن في صورة رائعة عادت به الى أيام حطين وصلاح الدين .

النتائج والأوضاع الجديدة :

وهكذا يمكن القول ان حرب رمضان قد أتاحت للعرب تغيير الصورة التي تركتها بل حفرتها حرب حزيران ١٩٦٧ ، من النواحي العسكرية والسياسية والستراتيجية

والاقتصادية وما انعكس عنها في المجالات الاجتماعية والفكرية والأيديولوجية . ولكنها بنفس الوقت قد كشفت بل وتكشفت عنها مجموعة من النتائج والأوضاع التي يمكن إيجازها بالآتي :

١ – الأضرار المادية الكبيرة التي لحقت ببلدان المواجهة (سورية ومصر) سواء في المعدات والتجهيزات العسكرية نتيجة المعارك الطاحنة في البر والجو والبحر ، والتي قال بعض المعلقين العسكريين العالميين عنها أنها فاقت في بعضها معارك الحرب العالمية الثانية ، سواء في المنشآت الاقتصادية التي عمد العدو الى شن هجمات غادرة وشرسة عليها من خلال اليأس القاتل والتوتر العصبي اللذين استحوذا على قادته وجنوده خلال المعارك المذكورة .

٢ – الضرورة الملحة لاعادة بناء ما أصابه الدمار أو الأضرار في حرب رمضان لمتابعة معركة البناء والتحرير حتى يتحقق النصر الكامل . ذلك أن مواصلة المعركة مع العدو الصهيوني مقرونة بمواصلة الانتاج من جهة ، وتزايد حجمه ووتائره من جهة أخرى ، حتى يستطيع أن يسد احتياجات القوات المقاتلة في الجبهة ، والقوات الرديفة لها في الحقل والمصنع والمتجر والمكتب وبقية أفراد الشعب وأن مواصلة الانتاج يتطلب اعادة بناء المعامل ومراكز توليد الطاقة ، والجسور وتوفير وسائط النقل وغيرها مما كان عرضة للهجمات العدوة الماكرة الغادرة .

٣ – إن الارادة القتالية التي تبدت خلال حرب رمضان لدى الجماهير العربية في كل مكان وبصورة خاصة على خطوط النار في الجولان وفي سيناء وعلى جانبي قنال السويس ، وذلك التلاحم في الجبهة الوطنية الذي تبدى في أروع صوره ، بين هذه الجماهير والسلطة السياسية في بلدان المواجهة كان لها أبلغ الاثر فيما حققته تلك الحرب من نتائج . غير أن كل ذلك يجب ألا يحجب عن الانظار أن الامكانات والموارد الذاتية لبلدان المواجهة (سورية ومصر) لا يمكن لها وحدها أن تمد المعركة على حدود هذه البلدان وفي أجزاء من أراضيها بما تتطلبه من الامدادات والمؤن والتجهيزات وفي اعادة تعمير ما خربته الحرب في المدن والقرى والارياف .

٤ – ان البلدان العربية الاخرى التي لم تكن على خطوط المواجهة المباشرة لم تبخل في الواقع في تقديم الدعم الأدبي والمادي للمعركة وخلالها ، وخصوصاً تلك التي تمتلك ثروة نفطية تهيؤ لها امكانات البذل والعطاء الأكثر . وإذا كانت الحاجة توجب أن

نقول انها مشكورة فيما قامت وتقوم به ، إلا أن الشعور بالمسؤولية المشتركة تجاه ما يمكن أن تتعرض له تلك الأقطار في المستقبل من مخاطر وأضرار ، يقتضينا القول، أن تلك المشاركة ليست منة ولا تفضلا ، ولا يجوز أن تكون كذلك ، لأن الخطر سوف يدهمها في عقر دارها إذا لم تبادر إلى دعم بلدان المواجهة وتقديم العون المستمر والمتزايد لرد هذا الخطر قبل استفحاله ووصوله إلى تلك الدار ، حيث يصبح من غير المستطاع درأه إلا بأضعاف أضعاف ما هو مطلوب منها الآن من المشاركة والدعم .

٥ — لقد لعبت التدابير الحكيمة التي اتخذتها البلدان العربية المصدرة للنفط حتى الآن دوراً بارزاً في دفع المجتمع الدولي للتحرك باتجاه إيجاد حل عادل للنزاع العربي الاسرائيلي . ولكن هذا التحرك لم يأخذ بعد المدى والأبعاد التي تكفل حقوق العرب وتضمن لهم استرجاع جميع الأراضي المحتلة من قبل العدو في حرب حزيران وبعدها . وإذا كان قرار وقف اطلاق النار الصادر في ٢٢/١٠/٩٧٣ قد أقر العمل به جميع الأطراف ، إلا أن اسرائيل لا زالت وكعادتها تراوغ وتناور في تنفيذ بنوده والقيام بالالتزامات التي يفرضها عليها. وهذا يعني أن المعركة ما زالت مستمرة بشكل أو آخر . لقد أكد هذا الواقع أكثر من مسؤول عربي ، كما عبر عنه أكثر من مسؤول اسرائيلي بصيغ مختلفة ، إلا أنها لا تخرج عن ذلك المعنى الذي أشار اليه دايان إن لم يكن أشد منه ، (ان الحرب بدأت الآن) . وما دام الأمر كذلك ، فان معركة النفط لا تحتمل المهادنة بعد أن تبدت آثارها جلية واضحة في معركة التحرير .

الحرب المستمرة والمسؤوليات التي ترتبها :

تبعاً لما تقدم ، ومن خلال وقائع حرب رمضان وما تمخضت عنه من مواقف وردود فعل ، سواء في نطاق النزاع العربي الاسرائيلي نفسه ، أو على الساحة الدولية ، أو من خلال المد العربي العظيم ، فان هنالك حقيقتين على جانب كبير من البروز ، لابد من أخذهما بعين الاعتبار والعناية الجلى ، من قبل الأمة العربية في أي تحرك تقدم عليه وهما :

أولاً — ان ما تحقق حتى الان في مختلف الميادين العسكرية والسياسية يؤكد أن المعركة مازالت مستمرة ، بل هي في بدايتها ، وأن قبول وقف اطلاق النار ،والموافقة على الذهاب الى مؤتمر السلام ، وحضور اجتماعات الكيلو متر (١٠١) على طريق السويس ـ القاهرة،وانتشار القوات الدولية على طول الحدود في سينا والقنال والجولان ،

تبقى كلها صور خداع ووهم ، طالما ان اسرائيل لم تنسحب من الأراضي العربية التي احتلتها في حرب حزيران وما بعدها حتى الآن .

ثانياً — وما دامت اسرائيل تخادع وتناور وتعبث بكل القيم الانسانية والدولية ، وذلك على الرغم مما تعلمته من حرب رمضان من دروس ، وعلى الرغم من كل الخسائر التي لحقت بها ، وانقلاب العديد من الموازين والحسابات لديها رأساً على عقب ، نتيجة هذه الحرب . وما دامت الأرض العربية لم تتحرر وما زالت ترزح تحت وطأة الاحتلال الاسرائيلي ، وما زال الشعب الفلسطيني مقهوراً على أمره ، منكوباً في أرضه ، مشتتاً في أرجاء عديدة من العالم ، فان ذلك كله من الأسباب وغيره يستدعي استمرار المعركة ، والحيلولة دون توقفها ، والعمل على ابقاء جذوتها متقدة ، وعدم افساح المجال لاضاعة المكاسب التي حققها العرب خلالها ، والتي يعمل العدو والدول المساندة له على الحد من أهميتها ، بل المناورة بأشكال مختلفة من أجل تبديدها ، والقضاء على ما يمكن القضاء عليه منها .

وهاتان الحقيقتان البارزتان على مسرح الاحداث في المنطقة العربية ، كانتا ودون شك ، في مقدمة الموضوعات التي تناولها مؤتمر القمة العربي في الجزائر ، وحظيتا بمزيد من الاهتمام من كافة الملوك والرؤساء العرب الذين اشتركوا فيه ، بل ومن مختلف الهيئات والمنظمات التي تتحمل عبء العمل النضالي في معركة التحرير .

وهاتان الحقيقتان أيضاً ترتبان مسؤوليات والتزامات على قدر بالغ من الاهمية على عاتق الدول العربية وشعوبها في هذه المرحلة الدقيقة والخطيرة في التاريخ الحديث للامة العربية . وهذه المسؤوليات والالتزامات انما تنبع من الاصرار على تحرير الارض وعلى الحفاظ على حقوق الشعب الفلسطيني من جهة ، ومن جهة اخرى فان إضاعة المكاسب التي حققتها الأمة العربية حتى الآن على مختلف الأصعدة السياسية والعسكرية مهددة بالضياع ، بل وان العدو يسعى جاهداً للاقلال من أهميتها ، وتحويل جوانبها الايجابية لمصلحته ، اذا لم تستمر الجهود العربية للحفاظ عليها ، وتحقيق مزيد من المكاسب الأخرى حتى يتحقق النصر .

لقد أظهرت حرب رمضان بشكل لا لبس فيه ولا غموض أن التضامن العربي كان له كل الفضل فيما حققته هذه الحرب من مكاسب ، طغت على جراح حرب حزيران ١٩٦٧ ، بل انها أظهرت بجلاء تام أن هذا التضامن كان ولا يزال ضرورة ملحة بل

ومبرمة من أجل مواجهة العدو الصهيوني والدعم الامبريالي له ، وتطويقها حتى تتحرر الارض ويحظى الشعب الفلسطيني بحقوقه المشروعة .

ولقد تكشفت الاحداث منذ صدور قرار وقف اطلاق النار في الثاني والعشرين من تشرين الاول الماضي ، على أن اسرائيل ما زالت كما كانت من قبل تعتمد الخداع والمناورة وأساليب التضليل والمراوغة في علاقاتها وصلاتها مع المجموعة الدولية . والله لا تزال هنالك أمام الامة العربية طريق طويلة محفوفة بالأشواك والمصاعب ، مليئة بالمفاجآت والمفارقات .

ولقد أكدت حرب رمضان بشكل جازم أن السبيل الوحيدة لمواجهة هذه التحديات ، ومحاولة تجاوزها والتغلب عليها ، إنما تتمثل بالتضامن العربي ، الذي برز في أروع مظاهره خلال تلك الحرب . بل إنها تتمثل الآن بتعميق هذا التضامن في مختلف المجالات ، وبصورة خاصة في المجال الاقتصادي . ذلك أن الاقتصاد كان ولا يزال عصب الحرب . بل ان التطورات العلمية والفنية والاجتماعية التي حدثت في العالم بعد الحرب العالمية الثانية أعطت الاقتصاد والأمور الاقتصادية لكل بلدان العالم أهمية أكبر عن ذي قبل ، بشكل أصبح معه غياب الجانب الاقتصادي من أية دراسة أو مشروع يعتبر نقصاً فادحاً ومدعاة للتشكيك فيه . وأضحت أية تعبئة عسكرية لا تأخذ بالحسبان النواحي الاقتصادية ، ولا تضمن استراتيجيتها هذه النواحي بعين الرعاية والاعتبار الكافيين ، تبقى تعبئة ناقصة ، واستراتيجية معرضة للفشل بكل تأكيد .

وأمام هذه الوقائع والحقائق ليس هنالك من مندوحة أمام الأمة العربية من تعميق التضامن بين دولها وأقطارها على امتداد الوطن العربي الكبير ، وفي مقدمة الخطوات على هذه الطريق ، زيادة التعاون الاقتصادي فيما بينها وتوسيعه بحيث يتناول الآتي :

- العلاقات الاقتصادية القطرية .
- العلاقات الاقتصادية بين الأقطار العربية والبلدان الأخرى .

وجوه التعاون الاقتصادي العربي :

ان تحديد وجوه التعاون الاقتصادي العربي على الصعيد القطري وأشكاله ، بل إن تعميق هذا التعاون ، والانتقال به من واقعه الحالي الى واقع أفضل وأمتن ، لا بد وأن

يستدعي استعراض ما تم حتى الآن في هذا المجال والذي يتمثل بالآتي :

اولاً – في نطاق التجارة والمبادلات التجارية :

هنالك مجموعة من الاتفاقات التجارية الثنائية التي ترتبط بعض الأقطار بموجبها بشروط وأحكام تفضيلية في مبادلاتهم التجارية مع بعضهم البعض أو تمنح بموجبها بعض المنتجات المحلية اعفاءات من الرسوم الجمركية أو من الرسوم والضرائب الأخرى .

والى جانب هذه الاتفاقات توجد اتفاقات جماعية كتلك المعقودة في نطاق جامعة الدول العربية فيما يتعلق بتسهيل التجارة وتنظيم الترانزيت بين الدول الأعضاء فيها التي عقدت عام ١٩٥٣ أو اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية التي عقدت عام ١٩٦٤ بين كل من سورية ومصر والعراق والأردن والكويت والسودان واليمن الشمالي . ثم قرار السوق العربية المشتركة التي بدأت أول مراحلها عام ١٩٦٥ والتي استهدفت تحرير المبادلات التجارية بين الدول الأعضاء فيها من القيود الادارية وأعضاء المنتجات المحلية من جميع الرسوم والضرائب الجمركية وغيرها على مراحل تنتهي في موعد أقصاه مطلع عام ١٩٧٤ ثم خفضت هذه المراحل بهدف التعجيل بتحقيق قيام هذه السوق دون أن يؤدي هذا التخفيض الى الغاية المبتغاة حتى الآن .

واذا كان يبدو واضحاً أن نطاق التجارة والمبادلات التجارية ربما كان أفضل المجالات التي تستطيع الأقطار العربية أن تحقق عن طريقه التعاون الأمثل فيما بينها ، فان ما تحقق في نطاق يعتبر محدوداً جداً ، اذ تظهر أرقام المبادلات التجارية بين هذه الأقطار وغير الأقطار العربية نمواً وتطوراً ملحوظاً وبنسب أعلى مما حققته المبادلات بين الأقطار العربية بعضها مع بعض خلال السنوات العشرين الماضية . فلا السوق العربية المشتركة قامت حتى الآن كما هو منصوص عليه في قرار انشائها ، ولا الوحدة الاقتصادية العربية استطاعت أن تحقق ما تنص عليه الاتفاقية الخاصة بها . وما زالت المنتجات العربية تجد العديد من الصعوبات لدخول أسواق البلدان العربية الأخرى التي تستورد ما يماثلها من البلدان غير العربية بيسر وسهولة أفضل .

إن هذا الوضع ، وان كان يبدو سيئاً ، الا أنه يحمل في طياته ما يحمل على ضرورة إعادة النظر فيه ، والانتقال الى الوضع الأفضل . وبكلمة مختصرة ، فانه يؤكد على أنه لا تزال هنالك مجالات واسعة لتعميق التعاون العربي من خلالها . ولقد أثبتت حرب

رمضان بصورة عملية أن رفع الحواجز وازالة القيود بين مختلف الأقطار العربية ممكن وميسور ، وان اقامة السوق العربية المشتركة ليس بالأمر الصعب ، عندما تحزم الدول العربية أمرها على تحقيق ما تريد ، مها كان هنالك من المصاعب والعقبات .

ثانياً ـ في نطاق الشؤون المالية والنقدية :

ربما كان مجال الشؤون المالية والنقدية من أرحب المجالات التي تستطيع الأقطار العربية أن تحقق تعاوناً مثمراً فيما بينها من خلاله . ولكن الملاحظ انه كان في الواقع أقل حظاً من المبادلات التجارية فيما حظي بـه من عناية ورعاية . ولقد بقيت اتفاقية تسهيل استثمار رؤوس الأموال العربية ، ثم اتفاقية صندوق التعاون الاقتصادي والاجتماعي ، ثم الاتفاقية المتعلقة باتحاد المدفوعات العربية فترات بل سنوات عديدة حتى خرجت الى حيز الوجود ، ومع ذلك فانها لا تزال محدودة الأثر ، ولا يستفاد منها على الوجه المرجو منها .

لقد توجهت بعض رؤوس الاموال العربية للاستثمار في بعض الاقطار العربية في بعض السنوات ، الا أنها لم تلبث أن انكفأت على أعقابها ، وعادت تفتش في مصارف البلدان الاجنبية عن الطمأنينة والترحيب المشجعين . وقد عثرت عليها لدى أكثر من بلد يؤيد العدو الصهيوني ويدعمه . ولم يجعلها هذا الحال تحجم عن التوجه لتلك البلدان ، حتى كانت حرب رمضان ، وما تكشفت عنه من مواقف غاية في التآخي والتضامن والتعاون العربي . ثم ما عكسته هذه الحرب من الوقائع والحقائق ، التي أبرزت أن ايداع الاموال العربية في مصارف الدول المؤيدة للعدو الصهيوني ، انما يسهم بشكل أو بآخر بتمكين هذا العدو من توجيه مزيد من الطائرات والقنابل الى قلب الوطن العربي ، بل والى أي قطر عربي مهما بعد أو قرب من حدود المواجهة ، حاملة الدمار والهلاك لسكانه ومنشآته .

لقد كانت الدول العربية تتعامل مع بعضها في هذا المجال بصورة غير مباشرة ، وبكلمة مختصرة ، كانت تتعامل بواسطة السماسرة والوسطاء . وهؤلاء كعادتهم أشبه بالمنشار ، الذي يقطع الخشب أو يزيد الشق فيه كلما نزل أو طلع ، انهم كانوا يحصلون من الدول الغنية والدول الفقيرة العربية على جانب بارز من الفائدة . فلقد كانت البلدان العربية الفقيرة بحاجة الى الكثير من رؤوس الاموال اللازمة لتنفيذ مشاريع التنمية

لديها . وكانت مضطرة بحكم هذا الاحتياج الى الحصول على ما تعرضه عليها بيوتات المال الأجنبية من الاموال العربية المودوعة لديها .

إن الاستغناء عن دور هؤلاء الوسطاء ليس بالامر الصعب ، ولكنه يتطلب الجرأة وتوفير الثقة . فبدون الثقة التي يقتضي على الدول الفقيرة أن توفرها لرؤوس الاموال لا تتوفر هذه الجرأة على أن تعمل في أي مشروع مهما كبر أو صغر في أراضي تلك الدول .

ولقد أظهرت حرب رمضان أن هذين العاملين ليس من الصعب توفيرهما . وبات على الجهات ذات العلاقة أن تبدأ العمل في هذا المجال الذي يمكن أن يخدم قضية التحرير واستعادة حقوق الشعب العربي في فلسطين بصورة ملموسة .

ثالثاً - في نطاق المشروعات الاقتصادية المشتركة :

أدركت الدول العربية الاعضاء ، سواء في جامعة الدول العربيـــة أو في مجلس الوحدة الاقتصادية العربية أهمية المشروعات الاقتصادية المشتركة في تدعيم الاقتصاديات القطرية وفي خلق اقتصاد قومي عربي متين ، وذلك منذ سنوات عديدة . وقد تم في نطاق جامعة الدول العربية عقد مجموعة من الاتفاقات لهذا الغرض ، تناولت الآتي :

- انشاء الشركة العربية العالمية للملاحة الجوية .
- انشاء الشركة العربية للناقلات البترولية .
- انشاء الشركة العربية للملاحة البحرية .
- انشاء الصندوق العربي للتنمية الاجتماعية والاقتصادية .

كما اتخذت عدة قرارات بهذا الصدد في نطاق مجلس الوحدة الاقتصادية العربيـة فيما بعد ، أكد بعضها على نفس المشروعات السابقة التي تناولتها الاتفاقات المعقـودة لدى جامعة الدول العربية ، في حين تضمن بعضها الآخر الرغبة في اقامة المشروعات المشتركة الأخرى التالية :

- انشاء شركة لصناعة مادة حمض الليمون .
- انشاء شركة لصناعة الجرارات والسيارات .

ومع أهمية مختلف المشروعات المتقدمة الذكر ، والضرورة الملحة لاخراجها الى

حيز التنفيذ بالسرعة الممكنة ، فان ماتم تحقيقه منها حتى الآن اقتصر على الصندوق العربي للتنمية الذي باشر أعماله منذ عام ونيف تقريباً بعـد مخاض عسير . بينا قبعت مشاريع الشركات الاخرى في أدراج الجامعة ومجلس الوحـدة والدول العربية ذات العلاقة . ما عدا الشركة العربية الملاحة ، التي أعلن عن قيامها نتيجة استكمال الاشكال القانونية لها ، إلا انها في الواقع مازالت نشاطاتها قاصرة على اجتماعات دورية لمجلس ادارة الشركة لم تتقدم أبحاثه من الناحية العملية في شيء .

واذا كانت قد تبدت أهمية تحقيق مثل هذه المشروعات منذ العديد من السنوات فان هذه الاهمية تبدو الآن ، وفي أعقاب حرب رمضان ، أكثر اهمية ، بل اكثر الحاحاً للتنفيذ مع غيرها من المشروعات الاخرى التي تبدت الحاجة اليها خـلال تلك الحرب أو بسببهـا .

وليس سراً ، بعد أن كشف النقاب عن الاضرار التي لحقت بالمنشآت الاقتصادية في كل من سورية ومصر نتيجة الغارات الجوية الاثيمة التي شنتها اسرائيل عليها ، الاشارة الى ماترتب من خسائر على الاقتصاد الوطني بسبب تلك الاضرار ، التي تناولت الطاقة الكهربائية والنفطية وبعض المعامل الصناعية ، مما انعكست آثاره واضحـة على مجمل الاقتصاد الوطني في مجالات الانتاج والنقل والمواصلات . وذلك على الرغم مما ساهمت بـه الدول العربية الأخرى من الدعم والمؤازرة لاعادة تسيير وتشغيل تلك المنشآت .

ومن خلال هذا الوضع ، بل هـذا الضيق الذي حصل ، والذي لا بد أن يحصل نتيجة الحرب ، أي حرب ، فانه تتبدى أهمية قيام المشروعات الاقتصادية المشتركة بين الاقطار العربية ، والتي تستطيع أن تحمل جانباً ملحوظاً من العبء في مثل هذه الظروف وتكون قاعدة متينة في مواجهة ما يمكن ان يلحق من اضرار أو خسائر في منشآت الاقطار العربية الاخرى ، التي تقع تلك المشروعات في اطارها . ولقد اظهرت حرب رمضان مدى الحاجة الملحة لوجود اسطول بحري تجاري عربي ، بعد ان عمدت شركات الملاحة الأجنبية ، ومعظمها يخضع للنفوذ الصهيوني او الاميركي ، الى وضع العراقيل والصعوبات لنقل البضائع الى المرافيء السورية والمصرية ، بـل وحتى الى الاقطار المجاورة لها ، كما تبدت الحاجة الى وجود اسطول جوي عربي يستطيع ان يسد الحاجة في الوقت الذي أغلقت فيه المطارات في بلدان المواجهة . وكذلـك الى قيام شركة للنقل والمواصلات البرية تسد الثغرة التي نجمت عن استخدام وسائل النقل في بلدان المواجهة

في الأغراض التعبوية . الى غير ما هنالك من المشروعات الأخرى الضرورية على مستوى التعاون والتكامل الاقتصادي العربي .

رابعاً ـ في نطاق الثروة النفطية :

على الرغم من ان ظهور النفط في عدد من الأقطار العربية يعود الى ماقبل الستينيات من هذا القرن ، فان الاهتمام بهذه الثروه بين الاقطار العربية لم يأخذ محل الجد الا بعد ذلك على ان هذا الاهتمام لم يخرج عن مشاريع وتوصيات كانت تصطدم عند محاولة وضعها موضع التنفيذ بمعارضة معظم الأقطار العربية التي تملك هذه الثروة . وليس لنا الآن في تبرير المعارضة الا ارجاعها لحالة عدم الوعي والادراك السليمين لمصلحة تلك الاقطار من جهة ومصلحة الامة العربية ككل من جهة اخرى .

غير ان هذه الحال تبدلت بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ ، وقيام مجموعة الدول العربية المصدرة للنفط بعملية التنسيق والتعاون في رسم سياسة الاسعار والعائدات التي تحصل عليها في تعاملها مع الشركات الأجنبية ذات الامتياز في استثمار النفط لديها ، أو في تصريف حصصها من النفط الى الخارج ، ثم في توفير الخبرات التي تحتاجها مشاريع النفط الوطنية وفي اعداد مجموعة من المواطنين للعمل في المشاريع العائدة لتلك الشركات . وكذلك في السعي لتحقيق مشروع الناقلات العربية وشركة خطوط انابيب عربية ايضاً .

ان هذه الخطوات التي تم التوصل اليها خلال فترة تقل عن عشر سنوات ، تعتبر انجازاً هاماً اذا ما قيست بفترة الجمود أو الرفض التي سبقت تلك الفترة ، والتي لم يتحقق فيها في هذا المجال شيء ما تقريباً . غير أن حرب رمضان أظهرت بشكل بارز جداً : أن هنالك امكانات واسعة ، ومتطلبات عديدة ، مشروعات على جانب من الأهمية ، يقتضي الالتفات اليها في نطاق هذه الثروة الضخمة من النفط التي تملكها الأقطار العربية .

واذا كانت قرارات الدول العربية المصدرة للنفط بوقف تصدير النفط الى الولايات المتحدة وهولندا وتخفيض الكميات المصدرة الى بعض الدول الغربية الأخرى ، تعتبر ضربة معلم ، خلال هذه المرحلة الحاسمة من النزاع العربي الصهيوني ، فانها سوف تكون أبلغ أثراً ، وأشد فاعلية إذا تجاوزت الدول العربية هذا الموقف الاحترازي تجاه الدول التي لم تقف الى جانب الحق العربي ، الى موقف ايجابي عملي ، يتمثل

بالمبادرة لاقامة مشروعات مشتركة للنفط العربي ، عن طريق استثماره وطنياً وتسويقه من قبل هذه المشروعات بصورة مباشرة ، ووفق الخطط العلمية والعملية ، التي تحول دون ضياع أثر تلك القرارات على البلدان الموجهة اليها .

خامساً ــ في نطاق انتقال الأيدي العاملة ورؤوس الأموال :

كان لا بد من أجل تحقيق تضامن واسع في مختلف المجالات الاقتصادية العربية لبلوغ الوحدة الاقتصادية أو الاندماج الكلي بين الاقتصاديات العربية من افساح المجال أمام الايدي العاملة العربية للانتقال بين الأقطار دون عوائق أو موانع ، وكذلك بالنسبة لرؤوس الأموال العربية . ذلك أن هنالك سوء توزيع في هذين العنصرين الأساسيين لأية تنمية اقتصادية من جهة ، ولأي اندماج اقتصادي من جهة أخرى ، فبعض الأقطار العربية تتوفر لديها أعداد كبيرة من الأيدي العاملة وتنقصها رؤوس الاموال اللازمة لاقامة المشروعات الانمائية لديها وتشغيل هذه الايدي ، في حين هناك أقطار عربية أخرى تملك من رؤوس الاموال ما جعلها تودعها المصارف الاجنبية لاستثمارها عن طريقها بينما لا تتوفر لديها الأيدي العاملة ، أو لا تتطلب مساحتها أو عدد سكانها العديد من تلك المشروعات الانمائية الكبيرة .

لقد تضمنت اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية وقرار انشاء السوق العربية المشتركة أحكاماً عديدة بالنسبة لتحقيق حرية انتقال الايدي العاملة ورؤوس الاموال العربية بين الدول الاعضاء فيها ، واتخذت ضمن نطاق هذه الاحكام من قبل هذه الدول ترتيبات عديدة خلال السنوات التي تلت وضع تلك الاتفاقية وذلك القرار موضع التنفيذ . غير أن عدم انضمام جميع الدول العربية للاتفاقية المذكورة والقرار يجعل الاجراء محدوداً بعض الشيء . وما من شك أن هذا الموضوع قد نال عناية ممثلي الدول العربية في اجتماعات المجلس الاقتصادي العربي التي جرت في مطلع كانون الاول ١٩٧٣ . ويبقى أن تبادر هذه الدول الى اخراج التوصيات التي توصل اليها المجلس المذكور الى حيز التنفيذ بالسرعة الكافية .

التعاون الاقتصادي العربي بمواجهة العالم الخارجي :

تلك هي أبرز وجوه التعاون الاقتصادي على الصعيد القطري ، والتي لا بد وأن

تتكل على الصعيد القومي مع البلدان الاخرى غير العربية بالعديد من الاساليب والاشكال وفي مختلف المجالات التي نبرز أهمها بالآتي :

١ – تضمنت اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية فيما تضمنته من أساليب الوصول للاندماج الكلي بين الدول الاعضاء فيها ، اقامة جدار جمركي موحد حول الدول هذه وبمواجهة الدول الاخرى . ويستهدف هذا الاجراء توحيد التعريفة الجمركية التي تطبق على المنتجات الاجنبية الى بلدان الوحدة وكذلك المعاملات المتعلقة بها أو تلك الخاصة بالمنتجات الوطنية التي تصدرها هذه البلدان الى الخارج. واتباع سياسة موحدة من قبل البلدان المذكورة فيما يتعلق بمبادلاتها التجارية مع البلدان الاخرى . ومن شأن هذه السياسة تمكين بلدان الوحدة الاقتصادية من توجيه تلك المبادلات بما يخدم مصالحها الاقتصادية وعلاقاتها مع البلدان الاخرى .

ومن الطبيعي أن يأتي هذا الاجراء مع الاجراءات الاخرى المعتمدة على الصعيد القطري بين البلدان العربية والتي تستهدف تحقيق سوق مشتركة فيما بينها تتنقل داخلها السلع والايدي العاملة ورؤوس الاموال بحرية ودون أية عوائق أو قيود .

واذا كانت اقامة هذا الجدار الجمركي لم تتحقق حتى الآن لأسباب عديدة ترتبط بالظروف والعوائق التي رافقت قيام السوق العربية المشتركة . فان الظروف الحالية التي قامت مع حرب رمضان وما بعدها باتت تلح على ضرورة الأخذ بسياسة عربية موحدة في نطاق المبادلات التجارية الخارجية مع البلدان الأخرى . اذا لم يكن بالمستطاع اقامة ذلك الجدار في الوقت الحاضر .

فلقد أكدت تلك الظروف بما لا يدع مجالاً للشك ، أن الأخذ بمثل هذه السياسة انما هو خطوة ملازمة للخطوات الأخرى التي اتخذت في مجال النفط أو العلاقات السياسية مع بعض البلدان التي لم تقف مع الحق العربي ، أو البلدان الأخرى وخاصة الافريقية التي أيدت ذلك الحق ، وكان موقفها مشرفاً في استنكارها بل رفضها الاحتلال الصهيوني للأرض العربية .

٢ – ويستتبع التعاون العربي ، بل توحيد السياسة العربية في مجال المبادلات التجارية مع البلدان الأخرى ، توحيد هذه السياسة في مجال التعاون الاقتصادي والفني مع البلدان المذكورة . ذلك ان جميع البلدان العربية تسير على طريق التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وهي بحاجة الى التجهيزات والآلات والخبرات الفنية اللازمة

لاقامة المشاريع الانمائية لدى كل منها . كما أنه قد توفر لدى بعضها انواع من الخبرات والامكانات التي اكتسبتها من خلال المراحل التي سارتها على تلك الطريق ، بحيث يمكن أن تسهم بها ولو بقدر محدود لدى الدول الافريقية التي قطعت علاقاتها السياسية مع اسرائيل التي كانت تقدم المعونات الاقتصادية والفنية لمعظم هذه الدول .

ان الحجم الكبير للبضائع الرأسمالية والخبرات التي تحتاجها عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية في البلدان العربية ، أو في البلدان الأفريقية جدير بأن يكون مجال اهتمام بالغ من قبل الدول العربية وتوحيد سياستها بصددها ، نظراً للنتائج البالغة الأثر التي يمكنها تحقيقها ، سواء في الضغط على الدول التي تدعم اسرائيل ، او مساعدة الدول الأفريقية التي وقفت الى جانب الحق العربي ، أو في تسريع عملية التنمية وتحقيق التنسيق والتكامل الاقتصادي بين الدول العربية .

٣ ـــ بصرف النظر عن الآثار التي استطاع النفط العربي ان يحققها في حرب رمضان وفي التطورات التي حدثت أو التي يقدر أن تحدث في اطار النزاع في الشرق الأوسط . فان اهمية التعاون العربي فيما يتعلق بهذه المادة الحيوية ، سواء من حيث انتاجها أو تسويقها أو تصنيعها انما تنبع من كونها الثروة الاقتصادية الكبرى ، التي تلعب دوراً أساسياً في علاقات الدول العربية المنتجة للنفط والمصدرة له مع العالم الخارجي ، بصرف النظر عن الانظمة السياسية السائدة في هذا العالم أو في بلدان تلك الدول . فاذا ما أضفنا الى هذا الدور العظيم تلك الآثار الضخمة التي حصلت عليها الامة العربية من جراء توحيد كلمة الدول العربية المصدرة للنفط خلال حرب رمضان وحتى الان ، وما كان لقرارها بتخفيض الانتاج ووقف التصدير • للولايات المتحدة الامريكية وهولندا وجنوب أفريقيا وروديسيا والبرتغال ، من نتائج بالغة الاهمية ، هزت العالم ، وجعلته يصحو على واقع جديد لم يكن يتصوره ، لانه كان يبني حساباته على تفريق كلمة العرب وخلافاتهم وتشتت قواهم ، فان الحاجة الملحة تبدو أكثر نحو تعميق هـذا التعاون وتوسيع اطاره في نطاق النفط بما يضمن الابقاء على النتائج الايجابية التي تحققت حتى الان وزيادة مـداها ، والحيلولة دون تمكن العدو الصهيوني وحلفائه من تحويلها الى نكسة أو خنجر مسموم في جسم الامة العربية .

وهنا لابد من التأكيد على الدور الاخر للنفط العربي ، أي عدم الاقتصار على استعماله سلاحاً سياسياً للضغط على الدول الأخرى لاعادة الحق الى الأمة العربية ، وانما

تجاوز هذا الدور الى تنظيم التعاون مع الدول الصديقة والمؤيدة لذلك الحق ، لحسن استثمار هذه الثروة وطنياً وتسويقها وتصنيعها ، وجعلها اكثر ريعية مما هي عليه الان.

٤ - إذا كان المجلس الاقتصادي العربي في دورته الأخيرة قد أوصى الدول الأعضاء بدراسة موضوع سحب أرصدتها من المصارف الأجنبية بصورة تدريجية وتحويلها الى المصارف العربية فان تنفيذ هذه التوصية يقتضي أن يسير بنفس الوقت مع قيام تنسيق وتعاون جديين بين الدول العربية التي تملك تلك الأرصدة أو تلك التي هي بحاجة لرؤوس أموال للاستثمار في مشروعاتها ، وذلك من أجل وضع برنامج منسق وزمني لكيفية سحب تلك الارصدة ومداه وأساليبه ووجوه استعمال المبالغ المسحوبة وأماكن ايداعها وغير ذلك من الامور الفنية والمالية والاقتصادية ذات العلاقة الوثيقة بعضها ببعض . ان مثل هذا التنسيق وذلك التعاون يعتبران من الضرورات المبرمة ليكون الاجراء فعالاً من وجهيه السياسي والاقتصادي ، مثله مثل استخدام النفط . اذ لا يكفي أن نلوح بهذا السلاح بوجه الدول المساندة للعدوان ، وانما يقتضينا أن نحسن استخدام هذا السلاح أيضاً لتحقيق نتائج أفضل مما تحصل عليه الدول العربية الآن منه ، ولا يكون ذلك إلا بمزيد من التعاون العربي وتعميق خطوات هذا التعاون على الدوام .

وبعد ، فتلك وجوه محددة للتعاون الاقتصادي العربي التي تحتاج الى مزيد من التعميق والمثابرة والتنظيم والتنسيق ، وخصوصاً في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها الامة العربية . وليس صعباً على الامة التي استطاعت أن تحقق بالدم في حرب رمضان في ضفتي القناة وفي بطاح الجولان الوحدة العربية ، وتجسدها واقعاً لارادة جماهيرها من الخليج الى المحيط ، أن تحقق العمق الاقتصادي الذي هي بأمس الحاجة اليه في الحرب والسلم ، وأن تزيد من التعاون والترابط الاقتصاديين فيما بينها لتحقق النصر الذي تصبو اليه ، والمنعة والازدهار اللذين تنشدهما .

حول

معركة السادس من تشرين

شحادة الخوري

إن معركة السادس من تشرين الأول ، في دوافعها ووقائعها ونتائجها ، ليست رقماً يضاف إلى عدد المعارك التي نشبت قبلها بين العرب واسرائيل ، منذ وجدت إسرائيل على الأرض العربية ، فلسطين ، ولكنها تمثل انعطافاً مهماً وحاسماً في الصراع الطويل المرير الذي خاضه شعبنا العربي بصبر وشجاعة ، ومازال يخوضه ، منذ وعد بلفور حتى اليوم ضد الغزو الصهيوني الامبريالي ... إنها صفحة مشرقة من صفحات

نضال شعبنا الطويل ، في سبيل الحياة الحرة الكريمة وما ينطوي عليه ذلك النضال من ذود عن الأرض التي عمرها قروناً عديدة وتمسك بالسيادة التي لا يحدّها حدّ والارادة التي لا يقيدها قيد .

ان هذه المعركة تمثل يقظة الشعب العربي من اغفاءة طويلة ودخوله حضارة هذا العصر بعزيمة وثقة وقوة ، وتغلبه على رواسب الجهل والتواكل التي علقت به في الحقب السالفة، أي أنها تمثل تحرر الذات العربية من السلبيات والمعوقات تحرراً يفتح أمامها آفاق مستقبل وضّاء .

إن هذه المعركة ليست خاتمة ولكنها بداية منعطف في مسيرة طويلة من الظلمة الى النور ، من الانسحاق الى القوة ، من القلق والضياع وردود الفعل المصيبة حيناً والطائشة حيناً آخر الى القدرة على التقرير والحسم وتحديد الهدف والوسيلة والأخذ بزمام المبادرة. بداية انتصار شعبنا العربي في معركة الوجود والبقاء ضد قوى البغي والعدوان وبداية انحسار المدّ الصهيوني الامبريالي في الأرض العربية وإنها الجسر الواصل بين حاضرنا الذي نتكوّن فيه أمة متلاحمة الأجزاء ، فاعلة ، تواجه التحديات وتؤثر في مجرى الأحداث وماضينا الغابر الذي كنا فيه أمة بنت حضارة إنسانية سامقة وأعطت من عقلها ويدها ودمها للخير والحق والعدل ومن أجل الوصول إلى تقويم صحيح لهذه المعركة لابد من النظر إلى واقعتين اثنتين :

أولاهما : ان اسرائيل التي أنشأتها الصهيونية العالمية الحالمة في اقامة امبراطورية من النيل الى الفرات تكون مرتكزاً للرأسمالية اليهودية ومنطلقاً لها للتحكم بمقدرات الشعوب ، بدءاً من الشعب العربي ، بالتعاون مع قوى الاستعمار والامبريالية الطامعة في السيطرة على الوطن العربي ونهب خيراته واستثمار موارده وفي مقدمتها النفط ، لم تقف عند حال واحدة بل نمت نمواً مستمراً حمل معه أخطاراً مافتئت تتزايد وتشتد منذ وعد بلفور حتى اليوم .

فالصهيونية ، الحركة الرجعية التعصبية العدوانية التي تدعي تمثيل يهود العالم زوراً وبهتاناً، استناداً الى ذريعة واهية « اسطورة أرض الميعاد»، أخذت على عاتقها سلخ اليهود الذين ينتسبون الى قوميات وبلدان متعددة والذين يتكلمون لغات مختلفةعن المجتمعات التي عاشوا فيها قروناً عديدة وتجميعهم في فلسطين هذا القطر العربي أهلاً

ولغة وتاريخاً وحضارة ، فكانت بذلك منذ وعد بلفور عام ١٩١٧ حتى قيام الدولة الاسرائيلية عام ١٩٤٧ تشكل خطراً على القطر الفلسطيني الذي أخضع بعد الحرب العالمية الاولى للانتداب البريطاني . وقد مكنت بريطانيا ، الدولة المنتدبة ، هؤلاء الغزاة الوافدين من وراء البحار ، وبكل الوسائل ، أن يمتلكوا ، خلال حقبة الانتداب، أرضاً وجيشاً وادارة ، هذه العناصر الأساسية في تكوين الدولة ، قبل أن تجلو عن فلسطين .

ومنذ قرار التقسيم واقامة دولة اسرائيل على حساب تشريد سكان فلسطين العرب ، غدا هذا الجسم الغريب يشكل خطراً لا على فلسطين كلها فحسب بل على الاقطار العربية المجاورة لها . ولذا نرى أن اسرائيل لم تتردد في مساندة الغزو الانكليزي ـ الفرنسي لمصر عام ١٩٥٦ ، إثر تأميم قناة السويس وكسر احتكار السلاح والعمل على انشاء السد العالي وتأكيد مصر ارادتها الوطنية وتحركها القومي ، ثم تقوم بعدوان عام ١٩٦٧ ، بتأييد الامبريالية الاميركية ، وريثة الاستعمار البريطاني ودعمها العسكري والمادي والسياسي على الاقطار العربية ، مصر وسورية والاردن ، اثر اعتزام سورية انشاء سد الفرات ودخولها مع مصر معركة التنمية الاقتصادية والاجتماعية وسير هذين القطرين العربيين في طريق التحولات الاجتماعية وانتهاجها سياسة تحرر وطني وتقدم ثابت في ميدان العلم والصناعة . ومن المعروف أن هذا العدوان الاخير عام ١٩٦٧ قد مكن اسرائيل من التوسع في اغتصاب الارض العربية : الجولان وسيناء والضفة الغربية ، والتسلل الى البلدان الافريقية والآسيوية ، زاحفة وراء النفوذ الاميركي تدعمه فيها وتشاركه نهبه واستغلاله ، وقد أقامت خلال هذا التسلل علاقات وطيدة مع الانظمة الرجعية والعنصرية في افريقيا وآسيا كجنوب افريقيا وروديسيا وكوريا الجنوبية ... كما أخذت على عاتقها مهمة محاربة التعاون القائم على أساس النفع والاحترام المتبادلين بين بعض الاقطار العربية والبلدان الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتي ، لأنها وجدت في هذا التعاون مصدراً من مصادر القوة النامية لدى العرب ولا سيما في القطرين الشقيقين : سورية ومصر في مجال التسلح والتدريب العسكري وفي مجال الانماء الاقتصادي والتطور العلمي . وبذلك أصبحت اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ لاخطراً على الاقطار العربية المجاورة لفلسطين فحسب بل خطراً على مجمل حركة التحرر العربية وخطراً يتغلغل في القارتين الآسيوية والافريقية ، اذ غدت ، في ممارساتها الاقتصادية والسياسية والعسكرية، قاعدة للامبريالية العالمية ولا سيما الامبريالية الاميركية وامتداداً لها في الشرق العربي .

وباختصار يمكننا القول إن اسرائيل قد مرت بمراحل ثلاث من حيث آفاق تطلعها إلى الوجود فالتوسع : مرحلة الوطن القومي الذي بني عليه وعد بلفور، ومرحلة الدولة بعد صدور قرار التقسيم عن الهيئة الدولية . ومرحلة مشروع الامبراطورية الذي أخذت تطمع فيها بعد عدوان ١٩٦٧ .

ومن نافلة القول أن نذكر ان اسرائيل في كل أحوالها ، وسواء أكانت الرقعة من الأرض التي تحتلها صغيرة أم كبيرة ، كيان مصنوع قائم على ذريعة باطلة ومناقض لحق شعب آخر في أرضه وحريته وكرامته ومعاد للأمن والسلام والطمأنينة في المنطقة العربية ، وعائق لتحرك الأمة العربية نحو الوحدة والتقدم الحضاري ... إنها تجسّد أبشع ما في العالم من نزعات الطمع والشر والحقد والعنف ... إن هذه الواقعة كانت حافزاً لتأهب القطرين العربيين سورية ومصر التصدي للعدوان ودرء الخطر المتزايد باستمرار ، وإنهاء احتلال الأرض التي اغتصبت عام ١٩٦٧ واستعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني في أرضه وحريته وذلك في نطاق استراتيجية التحرير الشامل . وقد لقي هذان القطران دعماً متعدد الأشكال من الأقطار العربية الشقيقة ومساندة فعالة من الدول والبلدان والهيئات الصديقة ولا سيما البلدان الاشتراكية ودول عدم الانحياز التي تأكدت بما لا يدع مجالاً للريب أن اسرائيل مقر ومعبر للامبريالية وعدوة لجميع الشعوب.

وثانيتها : أننا نحن العرب ، وعلى وجه أخص في سورية ومصر ، لم نكن قبل السادس من تشرين الأول في وضع يصح السكوت عنه أو القبول به . فالدولة الغاصبة تتمسك بالأرض التي احتلتها عام ١٩٦٧ في غفلة من الزمن ، وتتصرف فيها تصرف المقيم أبداً : تبني المستوطنات وتقيم التحصينات في غزة وسيناء والجولان والضفة الغربية. وقد بلغ عدد المستوطنات المنشأة حتى حرب ١٩٧٣ أربعاً وأربعين مستوطنة وشمل تخطيطها إقامة خمس وعشرين مستوطنة أخرى خلال السنوات الخمس القادمة . وهي تفعل هذا كله خلافاً لحق الانسان العربي في أرضه ، وهو حق طبيعي بدهي مقدس، وخلافاً لجميع الاتفاقات والأعراف الدولية وقرارات الأمم المتحدة . واسرائيل لم تسلك هذا المسلك الشائن عبثاً أو بحكم الصدفة بل ضمن خطة عنصرية توسعية تقوم على سلب الأرض وإخلائها من سكانها العرب بغية إعداد أماكن جديدة لمهاجرين جدد تنتزعهم الصهيونية من مواطن سكنهم وسكن آبائهم وأجدادهم منذ عصور بشتى وسائل الاغراء والخداع والتضليل لتستعمر بهم أراضي مأهولة ليست لها . أما السكان العرب في

الأرض المحتلة فتمارس ضدهم كل صنوف الاضطهاد لحملهم على ترك منازلهم وحقولهم وأملاكهم في تصرف المحتلين أو ترج بهم في السجون بنسبة تهمة ما إليهم ولا سيا تهمة الاتصال بحركة المقاومة الفلسطينية ، فيقدمون الى المحاكمات وتصدر بحقهم أحكام جائرة أو يتركون رهن الاعتقال والتعذيب مدة طويلة . واما الباقون فانهم يصبحون في وطنهم غرباء يشغلون في أعمال قاسية وبأجور أقل من أجور العمال الاسرائيليين أو يقعون فريسة للبطالة.وهكذا انقلبت الأمور بفعل القوة الغاشمة فأصبح العربي صاحب الحق في وطنه شخصاً مسلوب الكرامة مستغلاً ويحتل المنزلة الثالثة في سلم الطبقات الاجتماعية في اسرائيل : اليهود الغربيون واليهود الشرقيون ثم العرب .

هذا وقد نسجت اسرائيل وحماتها الاستعماريون وابواقها في وسائل الاعلام الغربية اسطورة منذ عام ١٩٤٨ وخاصة بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ مفادها انها واحة مدنية وحضارة ومركز تقدم علمي وصناعي في منطقة يسيطر عليها التخلف والجهل ،وانها قلعة منيعة لاتطال وأن جيشها لايقهر . وقد اقنعت نفسها بل كادت تقنع غيرها أن العربي لايحسن استعمال السلاح الحديث ولا يستوعب التقنية المعقدة ، كأن التخلف والتقدم صفتان ثابتتان تلازم إحداهما شعباً وتلازم الاخرى شعباً آخر !! وان العرب ضعفاء ومتفرقون ومتنابذون لايجمعهم هدف ولا توحد صفوفهم غاية أياً كانت ، وبالتالي فلن يثبتوا في معركة أو يحرزوا نصراً ولا بد لهم ، عاجلا او اجلا ، من التسليم بالأمر الواقع والاستسلام لما تفرضه عليهم من شروط ، شروط الغالب التي يمليها على المغلوب : مفاوضات مباشرة،وحدود آمنة...ومما ساعدعلى رواج هذه الأفكار وشيوع هذه الاسطورة النتائج التي تمخضت عنها احداث ١٩٤٨ و١٩٦٧ بالنسبة لنا ، حتى كدنا نحن أنفسنا، نصدقها ويتسرب الى نفوسنا ، من خلالها ، يأس قاتل يشل العزيمة ويقهر الارادة ، وتضمر به الى حد التلاشي آمالنا وتطلعاتنا ...

وازاء هذه الواقعة كان لابد ان يمتشق شعبنا العربي في سورية ومصر السلاح لتحرير الأرض المحتلة والارادة المكبلة معاً وقهر العدو والقنوط في آن واحد ، ووصل حاضرنا برباط المآثر والبطولات والأمجاد بماضينا الحافل بالمآثر والبطولات والأمجاد . وليست معركة الجولان وسيناء سوى امتداد لمعارك اليرموك وحطين وعين جالوت ، لأن هذه المعارك جميعها هدفت الى تحرير الأرض العربية من الغاصبين وطرد الغزاة والطامعين فيها .

وإننا لنتساءل الآن ، وقد هدأ قصف الطائرات ودوي الانفجارات وسكنت المدافع والدبابات ، في جبهتي القتال الشمالية والغربية الى أمد لانعرف مداه ، هل حققت هذه المعركة غايتها وماذا يستفاد من أحداثها ووقائعها ؟ .

قلت ان هذه المعركة ليست خاتمة صراع بين حق وباطل ، حق تكرسه الطبيعة والتاريخ وباطل يصطنعه العنف والغصب ، بين العرب والصهاينة ، ولكنها بداية الخاتمة . ليست نهاية مطاف بل منعطف في مسيرة طويلة ، اندفاعة في خطنا الصاعد إلى أعلى وانزلاقة في خط العدو الهابط الى أسفل ، ولكنها مع ذلك حافلة بالعبر والدروس .

لقد أثبتت هذه المعركة أن اسرائيل لا تطلب مجرد الوجود : وطن قومي أو دولة تضم كما تدعي أنهم مضطهدون في « بلدانهم » لأنهم يدينون باليهودية بل هي تريد التوسع ، مشروع امبراطورية عنصرية دينية رجعية في عصر التحرر الفكري والتحرر الوطني والتحرر الاجتماعي ! ولعل ما أحدثته في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ برهان يقنع المكابرين بأنها ليست « ضحية » عدوان بل مبعث العدوان وليست طالبة سلام بل استسلام وأنها تتخذ من فكرة الحدود الآمنة ذريعة لضم الأراضي بالقوة . وكذلك أثبتت هذه المعركة أن اسرائيل نازية جديدة — نازية ما بعد الحرب العالمية الثانية — وأنها كياناً ودولة ، وفكرة ومسلكاً ، مناقضة للسلام والأمن وسبب الاضطراب والقتال في المنطقة العربية التي حلت بها .

إن الضربات الشديدة التي أنزلها المقاتلون العرب باسرائيل ، في الجولان وسيناء ، والخسائر الجسيمة التي مني بها جيشها بالأرواح والعتاد ، خلال ثمانية عشر يوماً من القتال الضاري ، في الجو والبر والبحر ، قد أظهرت بطلان تلك الاسطورة التي زعمت أن جيش اسرائيل لا يقهر وان العربي لا يحسن استعمال الأسلحة الحديثة المعقدة ، وتبين أن اسرائيل أعجز من أن تواصل الحرب بدون الدعم البشري والحربي الذي حصلت عليه من الولايات المتحدة الامريكية ، فهي ليست قوية بذاتها بل تتقوى بغيرها وهي ، بالتالي ، موصولة عضوياً بقوى الشر والظلام في هذا العصر ، بالامبريالية الأميركية التي تمدها بالسلاح والمال والرجال والمساندة السياسية والمعنوية ..

وهذه المعركة ، قد أظهرت ، من طرف آخر ، أن شعبنا العربي قد استطاع أن يتخلص من شوائب الضعف واليأس لينتصب مارداً جباراً يقاتل قتال الفارس العربي الذي ضربت به الأمثال على مدى الأجيال ، ببسالة وشجاعة نادرتين ، وانه جواد

معطاء يبذل من دمه وجهده وماله دون حساب ، قد حطم الجندي العربي في قتاله المحكم أسطورة ما قيل عن تخلفه وجهله باستخدامه الأسلحة الحديثة بكفاءة وبراعة أثارت اعجاب الخبراء العسكريين من أصدقاء وأعداء .

وفي ساحة المعركة برزت حقيقة أغنت الباحثين عن كثير من الدرس والتنقيب وهي حقيقة ان العرب أمة واحدة من الخليج الى المحيط ، ذلك ان امتزاج الدماء في ساحة الشرف ، دماء الرجال الذين خفوا من عدة أقطار عربية ، قريبة من ساح القتال وبعيدة عنها بالمؤازرة أبناء سورية ومصر ، لبرهان ساطع على وجود هذه الامة واستمرارها عبر الزمان والمكان .

إن الخطة الحكيمة التي ترسمتها القيادة السياسية في سورية ومصر قد أعطت المعركة في كل من هذين القطرين طابعاً وطنياً فأسهمت فيها جميع فئات الشعب ، وأعطتها على مستوى الوطن العربي ، طابعاً قومياً فأسهمت فيها الاقطار العربية جميعها بأشكال مختلفة : المشاركة في القتال ، الدعم بالمال ، وقف ضخ النفط الى الدول المؤيدة لاسرائيل .

لقد فعلت أيام القتال التشريني في الانسان العربي ، مقاتلا على خط النار أو غير مقاتل ، ما لم تستطع أن تفعله أكداس الخطب والمواعظ والمقالات الطافحة بالنصح والارشاد ... لقد حررت نفسه من بذور الشك والريبة وسموم القلق والخوف ، وأعادت اليه ثقته بنفسه واعتزازه بشخصه وأمته ، وارتباطه بأمسه ويومه وغده ، وحلت وثاق عقدة الذنب والشعور بمرارة الهزيمة والتقصير ، وأحيت في اعماقه الامل والرجاء وبعثت فيه القوة والجرأة والقدرة على الصمود والتحدي والفعل ... وأما في معسكر العدو فقد زرعت الاضطراب والخيبة والنقمة على الطغمة الحاكمة والقادة المتغطرسين اذ تكشف لسكان اسرائيل ولذوي الشهداء ، قبل غيرهم ، ان اسرائيل ليست واحة دعة واطمئنان ، بل بؤرة آلام وأحزان ، وانهم وان تخلصوا من « غيتو » صغير فقد وقعوا في « غيتو » كبير أسواره أحقاد وكراهية ودماء ودموع !

اننا في حاجة الى مزيد من اليقظة والتلاحم على الصعيدين الوطني والقومي لأن المعركة قاسية وطويلة . واذا كان يحسن بنا ألا نضخم من قوة العدو ونبالغ في تقدير تقدمه وخبرته ، فانه ليحسن أيضاً ألا نستصغر شأنه لأن خلفه الصهيونية الدولية والامبريالية العالمية ، سلاحاً ومالا ونفوذاً .

المهم الاستمرار في المعركة : سياسية كانت أم حربية ، لأن الاستكانةالى مؤتمر السلام والمفاوضات والضمانات والوعود ، قد تخيب الامل وتفوت فرص الفوز والنصر ، وليس من طبيعة الأمور أن يلقي المعتدي سلاحه طائعاً ويسلم بحق خصمه راضياً . وهذه المكاسب التي حققناها بتضحيات غالية سيحاول العدو أن يسلبها منا مستعيناً بالسياسة الاميركية التي لبست لبوس الناصح والحكم والوسيط ، ولكننا بيقظتنا يمكن أن نكشف التآمر والزيف والتضليل .

وإنني وان كنت أجتنب التشاؤم والتفاؤل في النظرة إلى المستقبل وأحرص على الموضوعية في تقويم الأمور ورصد الأحداث ، فاني الى التفاؤل أقرب اعتقاداً على هذه الرؤية المستقبلية : ان عدونا يمثل قوة عنيدة شرسة ولكنها رجعية بلغت ذروة نموها وجنحت الى الهبوط ، وتسانده قوى متجانسة معه رجعية وانحطاطاً . قوى تتشبث بالبقاء متوسلة الى ذلك بكل أسلحة العنف والاستغلال ، وفي تناقض مرير ، مع مصالح الناس وتطلعاتهم الى حياة سعيدة فضلى ، في حين أننا نحن العرب قوة نامية متقدمة ، طالعة من السبات الى اليقظة ومن الظلمة الى النور ومن الشتات الى الوحدة ، والى جانبنا القوى الخيرة في العالم ، في آسيا وافريقيا واوربا ، القوى السائرة في الخط المتوافق مع تطور الانسانية ونموها والمتوافق مع رغبات الناس وآمالهم في غد أفضل .

إننا نمر ، بعد وقف اطلاق النار ، في مرحلة دقيقة تتطلب كثيراً من الحيطة والجد واليقظة والعمل لمواجهة شتى الاحتمالات ، ولكننا على كل حال مدعوون لعمل كل ما يعزز قدرتنا المعنوية والمادية ، العسكرية والسياسية : توطيد القدرة القتالية لجيوشنا ، توطيد الوحدة الوطنية في كل قطر ، وتعزيز التضامن القومي ، الافادة من كل طاقاتنا وأسلحتنا وثرواتنا ولا سيما النفط لكسب المعركة ، وخلق روح الاستمرار في البذل والتضحية لدى كل مواطن ، أياً كان مكانه في معركة المصير : في ساحة القتال أو خلف الخطوط في المعمل والحقل والمكتب ..

إن كلمة أخيرة أود أن أقولها وهي أن معركتنا ضد اسرائيل وحماتها الامبرياليين وحلفائها العنصريين لا تضاهيها أية معركة أخرى سمواً وشرفاً وإنسانية ، ذلك أننا عندما نقاتل من أجل تحرير أرضنا المحتلة واستعادة حقوق شعبنا العربي الفلسطيني ،

نخلق الظروف الملائمة لوحدتنا القومية وتطورنا الحضاري ، ونقاتل في الوقت ذاته لتخليص جميع الشعوب من جريمة الصهيونية الدولية وتآمرها وخداعها ومن استغلال الامبريالية وشراهتها وشراستها ، ونقاتل من أجل غد أفضل لنا ولغيرنا يسود فيه السلام القائم على العدل ، والحرية المستندة الى الحق ، والأمن الذي لا يجرؤ المعتدون على خرقه ساعة يشاؤون .

* * *

صور من التزييف الصهيوني للاشتراكية

الدكتور حسام الخطيب

يلفت نظر الباحث في تاريخ الفكر الصهيوني وفي ممارسات الدولة الصهيونية شدة تأصل ما يمكن أن نسميه بالباطنية الفكرية والتطبيقية التي أتاحت للايديولوجية الصهيونية أن تلبس اللبوس المناسب حسب اختلاف عوامل الزمان والمكان ، بحيث أمكن لها أن تخلق حججاً تخاطب اليهود وغير اليهود على النحو الذي يساعدها على

تجميع أكبر عدد من الأنصار . ومن السهل أن يجد الانسان في الأدبيات الصهيونية حججاً تخاطب اليهود المتدينين المتعصبين وأخرى تخاطب الضمير الانساني المتفتح ، وأفكاراً تمالىء اليسار وأخرى تتجاوب مع اليمين ، وتصريحات تدل على منتهى التآلف مع التحركات الاستعمارية وأقوالاً تشير الى التعاطف مع الحركات الثورية (١) . والمسألة ليست مسألة تكنيك ذكي للدعاوة الخارجية تفرضه ظروف مرحلية كما يخيل لكثير من الناس ، وانما هي عقلية متأصلة وأسلوب في العمل موجه بالدرجة الأولى الى الجماهير اليهودية التي يفترض أن تؤلف المضمون البشري للايديولوجية الصهيونية . واذا دل ذلك على شيء فانما يدل على أن هذه الجماهير ، مصلحة ومصيراً ، ليست هي المسألة التي تقلق الحركة الصهيونية . بل ان السهم الصهيوني الأكبر متجه الى كيفية تجنيد هذه الجماهير لخدمة مآرب الحركة الاستعمارية التي نشأت الصهيونية في ظلها واستمرت حليفة لها وعوناً . وان هذه العلاقة الاستغلالية بين الصهيونية وجماهيرها المفترضة هي التي تتيح لها أن تلعب بمثل هذه السهولة ، وبعيداً عن أي التزام ، لعبة « الحرباوية » الفكرية – ان صح التعبير .

ولعل أغرب وجه من وجوه هذه « الحرباوية » الفكرية ، إن صح التعبير ، محاولة الصهيونية خلق لغة من التخاطب بينها وبين اليسار وانتحال أساليبها في بادىء الأمر على قطاعات كبيرة من اليسار ، مفكرين وجماهير . وقد حاول دعاة الصهيونية منذ البدء أن يعطوا وجهاً اشتراكياًثورياً لحركتهم وجرت محاولات عديدة لاستنباط مصالحة بين الفكر الاشتراكي والفكر الصهيوني على ما بينهما من تباعد بل تناقض . والسبب الأساسي من وراء هذه المحاولات يكمن طبعاً في ظروف نشأة الحركة الصهيونية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . فقد كانت هذه الفترة فترة تأجج ثوري وكانت طبقة العمال بالذات تتلمس – لأول مرة في تاريخ العالم – طريقها الى الثورة المنظمة على الظلم وإحقاق حقها والانتظام في حركات وأحزاب ثورية ذات مناهج وبرامج سياسية محددة. وبما أن جماهير اليهود في مختلف البلدان الاوربية – ولا سيما أوربة الشرقية – كانت هي الرصيد الذي تتطلع الحركة الصهيونية الى استخدامه في سبيل بناء مخططاتها الاستعمارية

---

(١) انظر أمثلة لهذه المواقف الفكرية المتضاربة في الدراسة الغنية التي نشرتها « الطليعة » المصرية بعنوان الصهيونية : التاريخ، الحركة ، الأفكار ، المصالح. ع ١١، س ٧ ، نوفمبر ١٩٧١ .

فقد حرصت هذه الحركة على إشعار هذه الجماهير بوجود رابطة مشتركة بينها تتجاوز الأقطار الأوربية ، واتخذت من الوجه الاشتراكي الزائف للصهيونية وسيلة لإبعاد هذه الجماهير عن الانخراط في الحركات الثورية في كل قطر أوربي على حدة وإغواء فقراء اليهود للانضواء تحت شعارات الصهيونية . ولهذه المحاولات تاريخ طويل ربما كان من أهمها تاريخياً كتاب « المسألة اليهودية والدولة الاشتراكية اليهودية » الذي وضعه « نحمن سيركن » محاولا أن يقيم التوفيق المطلوب بين الدعوة الصهيونية الرجعية وبين الأفكار الاشتراكية التي كانت تمثل «روح العصر» ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وفيما بعد ظهرت محاولات كثيرة على هذا النحو منها « حركة عمال صهيون » ، ثم حركة بوروشوف «اتحاد العمل الصهيوني الاشتراكي» في أول القرن العشرين، ثم « الاشتراكيون الصهيونيون » ... الى آخر هذه القائمة الطويلة التي كانت تمثل حركات اقليمية متناثرة هنا وهناك تحاول أن تستعين بالشعارات الاشتراكية من أجل التخفيف من طابعها الرجعي الصهيوني حتى تكون مقبولة في الأوساط العمالية واليسارية .

وكان طبيعياً أن تظهر مقابل ذلك حركات اشتراكية تنطوي على محاولات خاصة لاجتذاب اليهود الى الاشتراكية واتجهت هذه المحاولات أحياناً الى الاعتراف بخصوصية وضع العامل اليهودي والتركيز على حل (مشكلته) الخاصة من خلال العمل الاشتراكي ، كما هو شأن حزب البوند الذي جاء في بعض مقرراته ان :

« الاتحاد العام لكل المنظمات الاشتراكية اليهودية يعلن بأن هدفه ليس العمل على تحقيق المطالب السياسية الروسية العامة فحسب بل سيعمل بشكل خاص على الدفاع عن المصالح المحددة الخاصة لعمال اليهود ، وعلى الاهتمام بحقوقهم المدنية وعلى محاربة قوانين التفرقة المعادية لهم ، هذا لأن العامل اليهودي لايعاني من وضعه كعامل فحسب ، بل من وضعه كيهودي » (١) .

ومن الواضح ان هذا الكلام يتناقض مع مبادىء الماركسية التي قام عليها الحزب لأن الماركسية تؤمن بالاندماج اليهودي والنضال من خلال الطبقات ، وفيما بعد أدان الماركسيون حزب البوند وبينوا ما داخله من العناصر الصهيونية .

(١) انظر تفصيل هذه المسألة في :

العظمة ، عزيز : اليسار الصهيوني من بدايته حتى إعلان دولة إسرائيل ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص٣١ — ٣٦ .

وليس من أغراض البحث الحالي تتبع أمثال هذه المحاولات التاريخية على كلا الجانبين فذلك له مجال آخر . واذا اقتصر الكلام على الناحية العملية فحسب يمكن القول ان المحاولات الصهيونية لاستغلال التطلعات الاشتراكية لدى فقراء اليهود كانت مصحوبة دائماً بعداء صريح للاشتراكية وللماركسية بالذات ، بل ان الصهيونية كانت دائماً ترى ان الماركسية هي العدو الأول لفكره تجميع اليهود في دولة واحدة تحت شعارات قومية انغلاقية لأن ذلك يتعارض مع أبسط مبادىء النضال الطبقي والاممية . ومنذ القديم عملت الصهيونية على محاربة الاشتراكية بطرق عديدة من أبرزها .

أولا : طمس تلك الجوانب من الفكر الاشتراكي التي تحلل المسألة اليهودية تحليلا اقتصادياً اجتماعياً وبالتالي تقترح حلا اشتراكياً (لاصهيونياً) لهذه المسألة . ومن المعروف مثلاً أن الصهيونيين عملوا على اخفاء مقالة ماركس عن (المسألة اليهودية) التي تؤكد ان الحل الاساسي للمسألة اليهودية يقوم على ازالة الاستغلال من العالم واندماج اليهود في مجتمعاتهم المحلية .

ثانياً : تشويه الأفكار الاشتراكية بل تقديمها بشكل معكوس أحياناً ولاسيا في الحلقات والمؤتمرات الخاصة بالمنظمات الصهيونية . وقد وصل الأمر بالصهيونيين الأوائل الى درجة مضحكة . وفيما يلي فقرة من تقرير قدم لمؤتمر منظمة (تسيرى زيون) الصهيونية في ايار عام ١٩١٨ .

«ان الصهيونية خلق وبعث والاشتراكية تهديم وانحلال . الصهيونية تعني السلم والاشتراكية تعني الضغينة .

الصهيونية تعني توحيد جميع اليهود ، والصهيونية تعني نضال طبقة ضد أخرى داخل اليهود .

الصهيونية تحتاج الى النظام المعاصر (الرأسمالية) ، أما الاشتراكية فانها تشهر سيفها في وجه هذا النظام .

ان الاشتراكية تعترض سبيل الصهيونية ، لذا فانها ليسا نقيضين

فحسب ، بل هما عنصران ينفي أحدهما الآخر نفياً تاماً ».(١)

ومن الملاحظ ان هذا العداء المباشر للاشتراكية كان يزداد وضوحاً واصراراً مع ازدياد تبلور الارتباط الصهيوني بالاستعمار ولكن ذلك لم يمنع الصهيونيين من الاستمرار بالتمسك بالرداء الاشتراكي الخادع مع محاولة واضحة لاقامة صلات تعاون مع الحركات الاشتراكية المسيحية والديمقراطية في أوربا الغربية ومع الاشتراكية الدولية بوجه عام Socialist International .

وهكذا نشأت حركة « يسار صهيوني » في ظل الصهيونية العالمية ولم تكن هذه الحركة لتختلف في شيء عن الحركة الأم الا من حيث التشديد على قيمة العمل المباشر واتخاذ الأفكار الاشتراكية ستاراً للاهداف الصهيونية . وقد اصبح اليسار الصهيوني تياراً بارزاً في الحركة الصهيونية وانعكس ذلك على التركيب السياسي لليهود في فلسطين حيث استطاع هذا التيار ابتداء من العشرينات أن يكون القوة الاولى في السياسة الداخلية الصهيونية :

« فقد كان يسيطر على الهستدروت ، وفي انتخابات الهستدروت للعام ١٩٢٦ مثلا ، حصلت الأحزاب اليسارية مجتمعة على ٨٨٫٨٪ من الأصوات ، كما سيطر اليسار على المجلس القومي الذي كان الحاكم السياسي الفعلي ليهود فلسطين ، فقد كان سكرتير هذا المجلس دافيد بن غوريون ، ومن أعضائه اسحق بن زفي وغيره من قواد « اتحاد العمل » ، وبهذا الشكل كان اليسار هو المسيطر على المجلس التنفيذي والجهاز الاول للوكالة اليهودية »(٢) .

وقد احتفظ اليسار الصهيوني بالسيطرة السياسية منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، وظل حزب العمل « الماباي » أقوى الأحزاب الاسرائيلية قبل قيام الدولة الصهيونية وبعدها كذلك . وقد تعرض هذا الحزب لانشقاقات وهزات كثيرة ولكنه ظل الحزب الحاكم خلال ربع القرن الماضي. وتؤكد تجربة هذا الحزب قبل الحكم وبعده أن الرداء الاشتراكي يخدم هدفين أساسيين ،

(١) نقلاً عن : إيفانوف ، يوري : احذروا الصهيونية ، منشورات نوفوستي ، الترجمة العربية ، ١٩٦٩ ، ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) العظمة : اليسار الصهيوني ، ص ٨٨ .

الاول : صرف العمال اليهود والطبقات الكادحة عن الانخراط في الحركات الاشتراكية ذات الطابع غير الصهيوني .

الثاني : تقديم صورة براقـــة لليسار العالمي تحجب حقيقة التجربة الصهيونية الاستعمارية وتضفي عليها طابعاً اشتراكياً تقدمياً .

ولكن الصهيونية لم تكتف بتطعيم المضمون الرأسمالي لأحزابها بشذرات اشتراكية من هنا وهناك بـل إنها حاولت في كل مـن المجالين العمالي والفلاحي أن تقيم تجربتين استعماريتين كاملتين على أرض فلسطين وأن تلبسها لبوس الاشتراكية وتقدمها للعالم على أنها ممارسة من نوع خاص جـداً ينفرد به المجتمع الصهيوني عـن كل من المجتمعين الكبيرين المتناقضين: الاميركي والسوفيتي أو الرأسمالي والاشتراكي.وقد ذهب بن غوريون، الزعيم الصهيوني المتشنج ، إلى القول :

« إن جـاذبية الأشكال الاجتماعية في اسرائيـل أقوى من التجربة السوفييتية والرأسمالية الأميركية »(١) .

ومن بين هـذه الأشكال الاجتماعية التي يشير اليها بن غوريون يحتـل كل من الهستدروت والكيبوتز مـكان الصدارة.وتعتبر هاتان المؤسستان أبرز صورتين للتزييف الصهيوني للاشتراكية ومن هنا سوف نتعرض لها بالتحليل ونتخذهما مثالين لاستمرار المحاولة الصهيونية للخداع الفكري على المستويين الداخلي والخارجي « الهستدروت » .

والهستدروت هو « الاتحاد العام للعمال اليهود في اسرائيل » ، وقـد اسس سنة ١٩٢٠ ثم أسست بمساعدته نقابات واتحادات مختلفة ، وهـو بذلك يختلف عن كثير من الاتحادات العمالية في العالم من حيث انه لم ينشأ عن تضامن نقابات وهيئات مهنية انما هو الذي أنشأها وفق تخطيط سياسي على مستوى القيادة الصهيونية العليا . وتزيد من الطبيعة السياسية لهـذا الاتحاد أن معظم الأحزاب الاسرائيلية تسهم فيه وتشترك في قيادته ورسم سياسة منظماته . ولذلـك لم يكن مستغرباً أن يضم هذا الاتحاد ٩٠٪ من مجموع العاملين اليهود في اسرائيل ، ولو أن ذلـك أمر غير مألوف في البلدان التي تتبنى

---

(١) انظر : الكيالي ، عبد الوهاب : الكيبوتز أو المزارع الجماعية في فلسطين ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٩٥ — ٩٦ .

نظام الديمقراطية البرلمانية . وان المرء ليتساءل : هل هذا هو التايز الذي أراد بن غوريون أن يبز به أشكال التنظيم الاجتماعي في كل من أميركا والاتحاد السوفييتي . في لحظة ما يخيل للمرء أن التجربة الصهيونية تود لو تبز النظامين الأساسيين القائمين في العالم كلا بما يتميز به عن غيره ، ففي مجال التنظيم العمالي الشامل يستطيع الهستدروت أن يفخر أمام الاشتراكيين باحتوائه الحركة العمالية وتنظيماتها عن بكرة أبيها ، وبأنه يلعب دوراً هاماً في مجالات الثقافة والتعليم يمتد الى جميع أرجاء البلاد، وبأن المؤسسات والهيئات المنبثقة عنه تتكفل بمعالجة مختلف المشكلات الاجتماعية . ولكنه يستطيع في الوقت نفسه أن يدل على النقابات في دولة رأسمالية مثل أميركا بأنه قادر على أن يلجم العمال جميعاً ويبسط عليهم سلطانه ويميتهم جوعاً اذا هم خالفوا سياسته العامة ، بل له أن يزيد على ذلك بأنه اتحاد منتج قادر على منافسة الاحتكارات الرأسمالية نفسها عن طريق الأشكال الأربعة للمشاريع التي يتولى الاشراف عليها ، وهي :

١ – المشاريع التعاونية ، وهي مشاريع تموّل عن طريق مجموعة من رؤوس الأموال الخاصة ، وتقدم لها المساعدات والاشراف والحماية ، وتشمل فيما تشمله تعاونيات المواصلات التي تسيطر على ٨٥٪ من حركة المواصلات في اسرائيل ، كما تشمل حوالي ٦٠٠ تعاونية زراعية ، وهي مسؤولة عن ثلاثة أرباع الانتاج الزراعي في البلاد .

٢ – شركات منبثقة عن المشاريع التعاونية المذكورة . وتكاد هذه الشركات تسيطر على تسويق معظم الانتاج الزراعي في اسرائيل وتشرف كذلك على مطاحن الحبوب والمصانع الزراعية ومؤسسات التسليف وما شاكلها .

٣ – شركات تسهم في ملكيتها هيئة الهستدروت التنفيذية مع الحكومة أو الوكالة اليهودية ، وذلك مثل « شركة المياه الوطنية » وشركة « زيم » التي تعد أكبر شركة للملاحة في اسرائيل وشركة الخطوط الجوية الاسرائيلية الخارجية « العال » والداخلية « آركيا » ونفوذ الهستدروت في هذه الشركات يفوق عادة اسهامه المالي .

٤ – شركات يملكها ويديرها الهستدروت كلياً . ومثال ذلك « بنك العمال » وهو ثاني مصرف في اسرائيل من حيث الحجم والأهمية و « سوتيل بونيه » وهي شركة ضخمة للمقاولات الصناعية . وتقوم مع شركة « زيم » بمشروعات كثيرة في الخارج ولاسيما في افريقية(١) .

(١) القاضي ، ليلى ، الهستدروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ٤٩ – ٥٥ .

غير أن هذا النشاط الاجتماعي – الانتاجي الذي يبرز الصهاينة وجهاً واحداً منه فقط يجب أن لا يصرف الأنظار عن الطابع السياسي الصهيوني الاستعماري لأهداف الهستدروت وتركيبه . فمنذ البدء اعتبر الهستدروت نفسه « أداة عملية الاستيطان وتنشيط الهجرة اليهودية » كما جاء في لائحة أهدافه . وقد نصت هذه اللائحة بالتفصيل أن :

« هدف الهستدروت الرئيسي هو تحقيق الفكرة الصهيونية. ويعتبر الهستدروت نفسه جزءاً لا يتجزأ من العوامل الأساسية في العمل الصهيوني والهجرة والتوطين . . والسيطرة على فلسطين ووضع الأسس اللازمة لاقتصاد سليم ومزدهر قادر على امتصاص أكبر عدد ممكن من المهاجرين » (١) .

ان الهستدروت في أهدافه وتطبيقاته أبعد مايكون عن طبيعة المنظمات العمالية، بل هو منظمة سياسية صهيونية ضالعة مع المؤسسة العسكرية ، وكانت نشاطاته منذ البدء ذات طابع عسكري وهو الذي زود المنظمات الاجرامية مثل هاغاناه وارغون وشتيرن بأكثر من ٦٠٪ من أعضاء هذه المنظمات.ومنذ تأسيسه سنة ١٩٢٠ لعب دور «حكومة ظل» في فلسطين قبل قيام الدولة الصهيونية . وانغمس في نشاطات اقتصادية واستيطانية واسعة ، ويصح أن يقال فيه انه « دولة ضمن دولة » .

وقد دعمه رأس المال الصهيوني قبل قيام اسرائيل ، شأنه شأن جميع الأشكال الاسرائيلية ذات الطابع الاشتراكي ، وبعد قيام الدولة تلقى مزيداً من الدعم بحيث اصبح يشكل مؤسسة راسخة من المؤسسات التي تدعم السلطتين السياسية والعسكرية ، خلافاً لما هو معروف في الدول ذات النظام البرلماني .

وبالنسبة للعلاقات الخارجية يمارس الهستدروت نشاطاً مخططاً ومنظماً في اوساط الحركة العمالية في العالم ، وله ارتباطات مع الاتحادات الدولية للعمال ، وبوجه خاص يرتبط بـ « الكونفدرالية الدولية للنقابات الحرة » . ولديه برامج مختلفة لما يسمى بتقديم المساعدات الفنية للدول الناشئة ، وتعمل الشركات التابعة له في أنحاء كثيرة من آسية وإفريقية . ومن أخطر المحاولات التي قام بها . للتغلغل في اسية وافريقية انشاء « المعهد الافرو آسيوي للدراسات العمالية والتعاون » .

---

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٢٥ .

وقد انشيء هذا المعهد سنة ١٦٦٠ وهو يدار ويمول بالتعاون مع « الاتحاد الاميركي للعمل » الذي أسهم سنة ١٩٦١ بمساعدة قدرها ١٨٠٠٠٠ دولار وسنة ١٩٦٢ بمساعدة قدرها ١٢٠٠٠٠ دولار؛ كما تسهم في دعم هذا المعهد مؤسسات عمالية اخرى في اميركا وبريطانيا واسكندنافيا . ويتحمل المعهد نفقات الدراسة والاقامة لطلابه ، وأحياناً نفقات السفر . وقد بلغ عدد طلابه ألفاً سنة ١٩٦٦ . وهناك ايضاً « مركز الدراسات العمالية والتعاونية لبلدان أميركا اللاتينية » الذي انشيء سنة ١٩٦٢ ، وهو يستقبل طلاباً من اميركا اللاتينية والبحر الكاريبي (١) .

ويشير يوري ايفانوف الى ان الغالبية العظمى من طلاب المعهد الافرو آسيوي .. تدرس في فروع الزراعة ، وتهيأ لكي تتقن فن « احتلال مراكز قيادية في الحركة العمالية للسكان الاصليين » ؛ وينقل ايفانوف عن الصحفي الاميركي جورج موريس أن المعهد المذكور « هو مؤسسة تتحكم بها بشكل نشيط الاستخبارات الاميركية بمساهمة من النقابات الاميركية » . ولا تفتأ الحكومة الاسرائيلية تعلن عن رسالتها التاريخية في « اسداء المساعدة للشعوب المتخلفة والبدائية » بمنطق لا يختلف عن المنطق المغرق في النزعة الاستعمارية .

ومن الواضح أن اتحاد العمال الاسرائيلي يقوم بجزء من المهمة التي أناطتها الامبريالية بإسرائيل ، وهي كما لخصها ميخائيل بريتشر :

« الاستعداد للقيام بدور الجسر بين الدول الاستعمارية الكبرى في الغرب والمناطق التابعة سابقاً » «٢» .

وقد تناول الحديث حتى الآن الوجه الأول لهذه المؤسسات الصهيونية وهو الوجه الاستعماري ، ولكن الصورة لا تكتمل الا بالاشارة للوجه الثاني ، وهو الوجه العنصري، ومنذ إنشائه كان الهستدروت وفياً للعنصرية الصهيونية ، على خلاف ما ينتظر من مؤسسة عمالية تدّعي الاشتراكية ؛ وقد حرم العمال العرب من الانتساب اليه وحاربهم في رزقهم وكان شعاره : « على الأرض اليهودية ، وفي المشاريع اليهودية ، يجب أن

---

(١) المصدر السابق ، ص ٦٢ — ٦٦ .

(٢) من أجل الأقوال السابقة أنظر : ايفانوف ، يوري ، احذروا الصهيونية ، ١٣٣ — ١٣٤ .

لايستخدم إلا اليهود فحسب » ، وفي حالات كثيرة لجأ الهستدروت الى القوة لمنع اليهود من التعامل مع اليد العاملة العربية أو شراء المنتوجات الزراعية العربية .

على أنه في السنوات الأخيرة ، ولأسباب تتعلق بالرأي العام في الخارج تقرر قبول العمال العرب في الهستدروت وبلغ عدد الذين ضمتهم من العمال العرب ٤٠،٨٠٠ عامل عام ١٩٦٦ . ولكن هؤلاء لايعتبرون كاملي العضوية ولا يتمتعون بالحماية ولا بالمساواة، وهم معرضون للبطالة باستمرار (١) .

وبسبب من ارتباطاته الاستعمارية والصهيونية يعاني الهستدروت من مشكلات كثيرة منها طبيعة علاقته بالدولة ومنها تشابك المصالح التي يمثلها وجزء كبير منها غير عمالي قطعاً ،ومنها البيروقراطية الناجمة عن تعقد أجهزته ، ومنها ازدواجية عمله كرب عمل ونقابة للعمال . وفي الماضي لعبت عوامل كثيرة في إعطاء الأشكال الاجتماعية الاسرائيلية الزائفة نوعاً من المكانة الدولية ،ولكن انكشاف الطبيعة الاستعمارية العنصرية لهذه المؤسسات وانكشاف علاقتها المباشرة بالاجهزة الاستعمارية وانكشاف دورها التخريبي في الدول الناشئة ، كل ذلك أدى إلى تقلص واضح في مكانتها الداخلية والخارجية ودفع مؤسسات عالمية وحكومات عديدة لان تقف منها موقف المستريب ، وأن تخفف أو تقطع الصلات التي تربطها بهذا الحصان الطروادي الاستعماري الحريص على الاصبغة الاشتراكية . وفيما يلي شهادة الكاتب الفرنسي كريستيان جارسيا الذي تابع نشاط الهستدروت في أعقاب حرب حزيران وانتهى الى النتيجة التالية :

« ان ما حاولت الهستدروت أن تحققه في باريس بعد العدوان الاسرائيلي على الأمة العربية ، وان التحليل الدقيق لدورها داخل اسرائيل ولتنظيمها الداخلي ، كل ذلك يؤكد تأكيداً قاطعاً لا جدال فيه أن هذا الاتحاد النقابي المزعوم يشكل أداة لا وظيفة لها سوى خدمة الاستعمار الصهيوني والرأسمالية العالمية ولاسيما الاميركية» (١).

« الكيبوتز » : ومع الهستدروت تذكر دائماً تجربة الكيبوتز، ذلك أن التجربتين

---

(١) القاضي : الهستدروت ، ص ٦٧ — ٦٨ .

(١) جارسيا ، كريستيان ، « الهستادروت أو اتحاد النقابات المزعوم » ، في : عاجلاً أو آجلاً ستزول اسرائيل ، بقلم ١٥ كاتباً فرنسياً ، ترجمة ريمون نشاطي ، بيروت، ١٩٦٨ ، ص١٥ ، وقد أدخلت بعض التعديلات اللغوية على الترجمة .

متشابهتان في طبيعتها وأهدافها وفي الهالة الدعاوية التي أضفيت عليها ، ومتقاربتان في زمن نشوئها . ذلك أنه على أثر التزايد النسبي لهجرة اليهودية الى فلسطين في مطلع القرن العشرين ، سارع الصهيونيون الى التخطيط لامتلاك الاراضي الزراعية وانشاء المجتمع الصهيوني الزراعي العسكري الذي يؤمن الاهداف الصهيونيـة الاساسية كربط اليهود بالارض وبتشجيع الممارسة المباشرة للعمل وتوفير سبل المناعة العسكرية ، ويشكل في الوقت نفسه تلبية للميول الاشتراكية لشباب أوربة الشرقية الذين كانوا يفدون الى فلسطين من منطقة مشبعة بالروح الثورية الاشتراكية . وقد عملت على انشاء مزارع جماعية تطورت الى نوعين متمايزين . ويجري العمل فيه وفقاً للمبدأ المعروف من كل حسب مقدرته ولكل حسب حاجته .

والنوع الثاني يسمى « الموشاف » ، ويقوم على أساس تعاوني ، وهو أصلاً ملك لتعاونيات العمال ، ويتقاضى عماله اجورهم حسب الانتاج كما ينالهم نصيب من الأرباح السنوية .

ويسيطر هذان النوعان على القسم الاكبر من القطاع الزراعي في اسرائيل ،وتعنينا هنا بوجه خاص تجربة الكيبوتز باعتبارها أكثر أشكال المجتمع الصهيوني تظاهراً بالاشتراكية. ان تناقض المستدرون يتضح هنا ببساطة فها نحن إزاء مستعمرات جماعية يراد لها أن تقيم حياة اشتراكية وان تجسد في الوقت نفسه أهداف الحركة الصهيونية التي تتناقض تناقضاً كلياً مع معطيات الاشتراكية وأهدافها . ان وظيفة الكيبوتز في الصميم وظيفة استيطانية لا تتم الا عن طريق غزو الأرض وبناء الحصون وممارسة القتل والارهاب ، ولذلك يختار سكانهـا من الشبان الأقوياء الذين يستطيعون أن يعملوا مقاتلين وبنائين ومزارعين في وقت واحد . ويتم توزيع مستوطناتهم في نقاط استراتيجية مختارة وفقاً لخطط العامـة للقيادة الصهيونية وبنيان الكيبوتز يعتمد فكراً وممارسة على العنصرية والتعصب والتمييز ضد الآخرين ، وتمجيد الروح العسكرية والعدوان ، والانعزال،ومنع غير اليهود من أية مشاركة ، وطرد العرب من أراضيهم ، وحرمانهم حتى من حق العمل المأجور فيهـا ، وترحيلهم من الجوار عن طريق الارهـاب والابادة الجماعية ان أحوج الأمر «١» .

---

(١) للتفصيل انظر : هنري ، جورج : « المستعمرات اليهودية حصون ضـد العرب » ، في المصدر السابق ، ص ٣٦ — ٤٣ .

واليوم بعد أن فترت موجة الحماسة الاستيطانية القديمة تنكشف الكيبوتز على حقيقتها ويعرف كل المطلعين أن مثل هذه المستعمرات انما تنشأ اليوم باشراف المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ولأهداف عسكرية خالصة، وهي تستخدم حصوناً أمامية ومراكز لتدريب المتطوعين الفتيان في الجيش وتستقي وظيفتها الأساسية من هذا الاعتبار ، وان كانت تحاول حتى اليوم الاحتفاظ بطابع العمل الجماعي المشترك .

ان المستعمرات الجماعية التي أنشأها الصهيونيون منذ مطلع هذا القرن تتعرض اليوم للصعوبات والتراجع ، ولكنها ما زالت تشكل عصب الزراعة الاسرائيلية ، فهي تعد حوالي نصف القرى التعاونية في اسرائيل ويسكنها حوالي خمس العاملين في القطاع الزراعي،وعلى الرغم من أن معدل ميزانياتها يقترب دائماً من حافة الخسارة ويتجاوزها في بعض الأحيان فانها ما زالت مصدراً مهماً من مصادر الانتاج الزراعي في اسرائيل.

وتتصف حياة الكيبوتز بالتقشف والجماعية شبه التامة ، والمرافق العامة مشتركة حتى الحمامات والمغاسل والمطابخ ، وهناك صالة أكل مشتركة للقرية ؛ والأطفال يعيشون في دور حضانة خاصة بهم ، والعمل إجباري ، والنظام عسكري ، وتطبق على المخالفين عقوبات صارمة جداً.والادارة في الكيبوتز ذاتية وتتألف من الاجتماع العام،والسكرتير، واللجان المختلفة . وتنشأ عن ذلك مشكلات عملية مختلفة أخذت تتزايد مع تطور الحياة الاجتماعية في فلسطين المحتلة ، ومن أبرز هذه المشكلات :

١ ـ النكوص عن الاسهام في الادارة الذاتية وذلك بالتغيب عن الاجتماع العام واللجان المختلفة .

٢ ـ التبرم بتوزيع العمل حسب الحاجات اليومية والموسمية ـ خلافاً لقاعدتي الرغبة الشخصية والاختصاص .

٣ ـ عدم انسجام المرأة مع المجتمع المشاعي وتعاستها بسبب بعدها عن الاطفال وبسبب نوع الاعمال التي تسند اليها (١) .

وبالاضافة الى الاغراض العملية الاستيطانية ـ العسكرية ؛ خدمت المزارع الجماعية أغراضاً دعاوية كثيرة داخلية وخارجية يمكن ايجازها بما يلي :

---

(١) معظم حالات هجر الرجال للكيبوتز تتم بتحريض من المرأة أو بسببها.

١ — اجتذاب الشباب الصهيوني الناقم في أوربا الشرقية واعطاؤه معاني الطليعة والعزة والعمل اليدوي والجماعية .

٢ — ارضاء المشارب المختلفة للمهاجرين ، فمن ناحية هناك الكيبوتز الديني باعتباره أفضل مكان لأداء الشعائر الدينية المشتركة ، ومن ناحية اخرى هناك الكيبوتز اليساري باعتباره تجسيداً عملياً لاقوى المبادىء الاشتراكية .

وهناك أيضاً مجال لارضاء خيال المغامرين والفوضويين والمتذمرين والمعدمين والمنبوذين .

٣ — إعطاء طابع اعماري إيجابي لغزو فلسطين واستدرار العطف والتبرعات داخلياً وخارجياً .

٤ — تقديم مثال ملموس لطراز جديد من الحياة ومنافسة الشيوعية في مجال الاجتذاب الجماهير اليهودية المضطهدة .

٥ — نفي تهمة الامبريالية والرأسمالية واستخدام تجربة الكيبوتز للتسلل الى الحركات الاشتراكية العالمية .

٦ — التغلغل في دول آسية وافريقيا النامية «ومما يلفت النظر أن « بورما » بدأت علاقتها باسرائيل نتيجة للاعجاب بالكيبوتز . ثم توالى إعجاب الدول الآسيوية الافريقية بهذه الظاهرة . وقد عملت إسرائيل من الاستفادة القصوى من ذلك وهيأت برامج دعاوية واستقدمت الوفود الآسيوية الافريقية ودربت شباناً من بلدان مختلفة ، وتغلغلت في بلدان إفريقية كثيرة عن طريق إرسال خبراء لتنظيم الشبيبة في منظمات شبه عسكرية على غرار مؤسسات الكيبوتز وتنظيماتها ، وهو ميدان تحتكره إسرائيل تماماً «١» .

ان الصعوبات التي تواجه الكيبوتز كبيرة ومتزايدة، وهو يحمل في صميمه مشكلة التناقض بين رأسمالية الهدف والانتماء وبين اشتراكية التطبيق العملي ، واذا كان صحيحاً أن التطورات الأخيرة تشير الى توقف بناء الكيبوتز الا فيما يتعلق بالكيبوتزات العسكرية الصغيرة فانه يبقى صحيحاً ان القرى الجماعية ما زالت تشكل عماداً رئيسياً للاقتصاد الزراعي الاسرائيلي وسياجاً عسكرياً لا يستهان به . أما الناحية الأظهر

---

(١) انظر ، الكيالي، عبد الوهاب : الكيبوتز ... ، ص ٩٣ ــ ٩٦ بوجه خاص.

لاخفاق الكيبوتز فتكمن في عجزه عن تغيير بنية اسرائيل الرأسمالية وفي اضطراره المتزايد الى الاعتماد على الرأسمال الصهيوني؛ فالكيبوتزات تعاني من الخسائر المتكررة و « ان عدم تمكن الكيبوتزات من التوفير أرغمها أن تعتمد في كثير من الحالات على المساعدات والقروض والمنح من جهات متعددة . ونتيجة لذلك فقد شرعت هذه الجهات في التدخل في عملية اتخاذ القرارات في الكيبوتز . ان سياسة « الكيبوتزات الموجهة » التي تمارسها الوكالة اليهودية هي نوع من انواع هذا التدخل »«١» .

وتماماً كما حدث للهستدروت ، بدأت تتكشف طبيعة الكيبوتز الصهيونية ، وأخذت تمحي بالتدريج الهالة التي احيطت بها هذه التجربة ، وتبين على المستويين الداخلي والخارجي ان مؤسستي الهستدروت والكيبوتز لا يمكن ان تخرجا عن نطاق البنية الرأسمالية للدولة الصهيونية المرتبطة بالشريان الاستعماري والتابعة لمخططات الأمبريالية .

* * *

(١) عتز ، موسى حنا : الكيبوتز من الداخل ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت - ١٩٧٠ ، ص ١١٤ .

المراجـــع

- ايفانوف ، يوري :

احذروا الصهيونية ، منشورات نوفوستي ، الترجمة العربية ، ١٩٦٩ .

- جارسيا ، كريستيان :

« الهستادروت أي اتحـاد النقابات المزعوم » ، في « عاجلاً أو اجلا ستزول اسرائيل » . بقلم ١٥ كاتباً فرنسياً ، ترجمة ريمون نشاطي ، بيروت ، ١٩٦٨ .

- الطليعة :

الصهيونية : التاريخ ، الحركة ، الأفكار ، المصالح . ع ١١ ، س ٧ ، نوفمبر ، ١٩٧١ .

- العظمة ، عزيز :

اليسار الصهيوني ، من بدايته حتى اعلان دولة اسرائيل ، منظمـة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ، بيروت ، ١٩٦٩ .

- عنز ، موسى حنا :

الكيبوتز من الداخل ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحـاث ، بيروت ، ١٩٧٠ .

- القاضي ، ايلي :

الهستدروت ، منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٧ .

- الكيالي ، عبدالوهاب :

الكيبوتز أو المزارع الجماعية في فلسطين ، منظمـة التحرير الفلسـطينية . مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٦ .

- هنري ، جورج : « المستعمرات اليهودية حصون ضد العرب » .

في « عاجلا أو آجلا ستزول اسرائيل » . بيروت ، ١٩٦٨ .

في البحث عن الجذور

صفوان قدسي

على الرغم من أن الحركة الصهيونية قطعت شوطاً بعيداً في طريق التحلل من علاقاتها الوثيقة مع القارة الأوربية ، بعد أن وجدت في الولايات المتحدة الأمريكية قوة المستقبل التي سوف يكون لها دور بالغ الخطورة في صناعة وتصميم المشهد السياسي العالمي .

وعلى الرغم من أن الحركة الصهيونية تحولت شيئاً فشيئاً عن ارتباطاتها الأوربية ، بعد أن ظهر من المؤشرات مايكفي للدلالة على أفول النجم الأوربي وصعود النجم الامريكي ، خصوصاً بعد أحداث السويس المجيدة عام ١٩٥٦ وما نجم عنها من سقوط مروع للسياسة الانكلو - فرنسية في منطقة الشرق الأوسط. وعلى الرغم من أن الحركة الصهيونية وجدت نفسها في وقت متأخر من نهاية الستينات، ووقت مبكر من بداية السبعينات ، في مجابهة موقف أوربي لايرضى بالتسليم بكل ماتطلبه اسرائيل ، ولا يقبل بالانقياد الكامل لكل ماتريده اسرائيل . على الرغم من ذلك كله ، فإن البحث في تاريخ الحركة الصهيونية لابد وأن يبدأ بالبحث في تاريخ القارة الأوربية وعلاقة هذا التاريخ بتاريخ الحركة الصهيونية .

صحيح ان الحركة الصهيونية نجحت بقدر أو بآخر في أن تبث نوعاً من الايحاء بأنها حركة تقف خارج التاريخ، غير ان الصحيح أيضاً هو ان النظرة المدققة ماتلبث أن تميط اللثام عن حقيقة مفادها أن جذور الحركة الصهيونية إنما نمت وترعرعت في المناخ الأوربي وفي التربة الأوربية ، وان الحضارة الأوربية تحمل في أحشائها بذور التراث اليهودي ، وان هذا التراث يشكل مظهراً من مظاهر هذه الحضارة، وانه لكي تفهم الظاهرة الصهيونية بصورة جيدة فإنه لا بد وأن يسبق ذلك فهم مماثل للظاهرة الأوربية .

ومنذ نهاية القرن الماضي ، أي منذ أن بدأت الصهيونية تكتسب طابعها السياسي وتتحول شيئاً فشيئاً إلى حركة تطالب بوطن قومي لليهود ، كانت أوربا مهيأة للقيام بأداء الدور الذي تطلبه منها الحركة الصهيونية .

وكان ثمة نوع من المصالح المتبادلة بين الطرفين بحيث بدت الأمور و كأن كلا الطرفين كان يعلم مسبقاً بقيمة الخدمات التي يمكن أن يقدمها له الطرف الآخر، ولم تكن الحركة الصهيونية في محصلتها النهائية غير الابنة الشرعية ، أو ربما غير

الشرعية، للظاهرة الاستعمارية التي كانت تحكم أوربا وتحركها وكما يقول الكسييف وايفانوف، وهما كاتبان سوفيتيان مرموقان، فإن الدوائر الحاكمة في بريطانيا وفرنسا وألمانيا التي كانت تتوق إلى تقسيم التركة العثمانية مقدماً، رأت في الصهيونية نائباً مثالياً ينوب عنها ويقوم عنها بالتنفيذ الاستعماري في أقاليم الشرق الاوسط التي كانت تتبع الامبراطورية العثمانية المتهاوية. ولم تكن الصهيونية من جهتها تأمل أبداً في تحقيق أهدافها التوسعية دون تأييد القوى الاستعمارية. وخلال تاريخها بأكمله، كانت الصهيونية تسعى باستمرار وراء التأييد المالي والسياسي لدولة استعمارية أو أخرى، ولم تكن الصهيونية تدقق كثيراً في اختيار أسيادها.

وحين وقع اختيار الحركة الصهيونية على بريطانيا لمساعدتها في تحقيق أهدافها، فان بريطانيا كانت جاهزة لأداء هذه المهمة، بل لعلها هي التي سعت اليها بهدف استخدام الحركة الصهيونية كوسيلة من وسائل تحقيق أهداف الامبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس. ولم يكن الوعد الذي قدمه لورد بلفور، وكان وزيراً للخارجية البريطانية في ذلك الوقت من عام ١٩١٧، بمنح وطن قومي لليهود في فلسطين، غير اعلان شبه رسمي عن الزواج بين الحركة الصهيونية والسياسة البريطانية.

ومن يقرأ مذكرات ونستون تشرشل، فانه سوف يقع على مجموعة اعترافات لم يتردد رئيس الوزراء البريطاني في اعلانها. من ذلك مثلاً ان تشرشل يعترف بأنه ما كان لبريطانيا أن تسهم كل هذا الاسهام في انشاء دولة يهودية في فلسطين لولا ان ذلك كان بشكل خدمة فعالة للأهداف البريطانية الحيوية. ومن ذلك مثلاً ان رئيس الوزراء البريطاني يعترف في هذه المذكرات الذائعة الصيت بأن اقامة هذا الكيان الصهيوني كان من شأنها أن تضع حاجزاً بين مشرق الوطن العربي ومغربه يحول دون قيام أية فرصة لاقامة الدولة العربية القومية، وهي

الحلم الأكبر للأمة العربية ، وكان من شأنها أيضاً أن تؤمن الحماية الضرورية لقناة السويس التي تشكل طريق بريطانيا إلى الهند ، جوهرة التاج البريطاني كما كانت تسمى في وقت من الأوقات ، وكان من شأنها في الوقت نفسه أن تخدم أهدافاً بريطانية متعددة يذكرها تشرشل في مذكراته بصورة مفصلة .

وفي خلال ما يقرب من ثلث قرن ، نجح الحلف البريطاني ـ الصهيوني في تمكين الحركة الصهيونية من اقامــة كيان لها في فلسطين . ولم تخطىء السياسة البريطانية كثيراً حين ذهب بها الظن إلى أن هذا الكيان سوف يخدم أهدافها هي بالذات ، بالقدر نفسه الذي يخدم أهداف الحركة الصهيونية . ففي خلال ربع قرن من الزمن ، أسهم هـذا الكيان في امتصاص جزء لا يستهان به من الطاقة العربية التي كان يمكن ان توجه إلى حيث تعود بمردود حقيقي على التطور العربي ، وفي لجم الثورة العربية المعاصرة وكبح جماحها عن الانطلاق إلى حيث كان عليها أن تنطلق ، وفي ضرب وتصفية أية محاولة يقوم بها العرب للسير على طريق بناء دولتهم القومية ، ولم تكن أحداث السويس عام ١٩٥٦ ، وانفصال عام ١٩٦١ ، ونكسة عام ١٩٦٧ ، إلا الأمثلة الأكثر وضوحاً في هذا المضمار .

غير ان المثل البريطاني القائل انه ليست هناك صداقات دائمة ولا عداوات دائمة ، وانما هناك مصالح دائمة ... هذا المثل وجد تطبيقه العملي في وقت لاحق . ذلك انه حين ادركت الحركة الصهيونية ان اوربا لم تعد قادرة على ان تلعب ذلك الدور الذي سبق ان لعبته على مسرح السياسة العالمية في وقت من الاوقات ، وان القارة الاوروبية بدأت تتحول شيئـاً فشيئاً من دور صانع الاحداث الى دور المشارك في صنعهـا ، بادرت على الفور الى اقامة جسور لها ، أقوى وأصلب ، مـع الولايات المتحدة الامريكية . وكانت الولايات المتحدة قد أخذت تمد يدها الى حيث يمكن

لها ان تصل ، وكانت تحاول ان يكون لها دور فعال ومؤثر في صنع المشهد السياسي العالمي ، وكانت تملك من الاسباب ما يجعلها قادرة ، ولو لفترة من الزمن ، على القيام بهذا الدور .

وحين انتهى المشهد الامريكي - الصهيوني إلى هذه العلاقة الخاصة جداً بين الولايات المتحدة واسرائيل ، كانت أوربا قد بدأت تدرك شيئاً فشيئاً أن سياسة اسرائيل سوف تؤدي في نهاية المطاف إلى سقوط الغرب في الشرق الأوسط سقوطاً مروعاً ، وكان ثمة إدراك متزايد بأن السياسة غير المتوازنة ازاء الصراع العربي - الاسرائيلي لم تعد تفعل فعلها القديم في خدمة المصالح الأوربية . وظهرت أصوات في أوربا تنادي بسياسة أوربية جديدة تقوم على رفض التوسع الاسرائيلي ، وعلى الاستناد إلى موقف متوازن إزاء الطرفين المتصارعين ، وعلى البحث عن المصالح الأوربية قبل أي شيء آخر .

وعلى الرغم من ان هذا كله لم يتبلور بشكل نهائي ولم يتحول بعد الى سياسة أوربية واضحة المعالم في هذا المجال ، إلا أن الأمور على ما يبدو آخذة بالسير في هذا الاتجاه . وحين تتبلور هذه السياسة الأوربية ، فان تحولات هامة سوف تطرأ لا محالة على المشهد السياسي والعسكري في هذا الجزء المتفجر من العالم ، إن لم يتسع الأمر ليشمل المشهد السياسي العالمي .

- ٢ -

ماهي الجذور السياسية للحركة الصهيونية ؟ .

كيف أمكن لهذه الحركة ان تبلور أهدافها وتنطلق نحو تحقيق هذه الأهداف ؟ .

ماهو التاريخ السري لهذه الحركة التي لم تترك وسيلة الا ووضعتها في خدمة الهدف الذي تسعى اليه ؟ .

هذه التساؤلات يطرحها كتاب ظهر في مطلع الستينات في الولايات المتحدة الأمريكية . والكتاب من تأليف وألن تايلور ، ويحمل العنوان الآتي : « مدخل الى اسرائيل » .

وبرغم مرور عقد من الزمن ، فما زال لهذا الكتاب أهمية خاصة باعتباره بشكل وثيقة بالغة الأهمية تميط اللثام عن الوسائل التي استخدمتها الحركة الصهيونية في سعيها من أجل تحقيق حلمها القديم باقامة الوطن اليهودي .

وتروي دراسة مفصلة نشرت عن الكتاب المذكور عام ١٩٦٥ ، ان المؤلف ينبه منذ البداية الى ان القول الشائع إن الصهيونية حركة دينية ، قول غير صحيح . فهي في الواقع حركة سياسية قامت تحمل الرد السياسي على نزعة معاداة السامية ،ذلك الرد الذي تلخص في خلق دولة صهيونية واعطاء اليهود صفة القومية . .

والخطأ الثاني الشائع الذي يقول المؤلف انه يريد ان ينفيه هو الوهم الذي يظن ان قيام دولة اسرائيل جاء مصادفة ، نتيجة للأمل اليهودي القديم في العودة الى فلسطين . وهذا غير صحيح . فالحقيقة التي يريد أن يثبتها الكتاب هي ان اسرائيل قامت نتيجـــة للجهد المخطط المنظم الذي بذلته الحركة الصهيونية . ان الصهيونية تبدو لمن يتأملها تأملاً عابراً ، حركة مليئة بالفرق والشيع والأحزاب ، ولكن من يحلل سياستها وتصرفاتها يجدها تتم في ترتيب وتنسيق عجيبين ، يوحي بوجود قيادة واحدة على الدوام ... وملاحظة ثالثة وأخيرة يسجلها المؤلف في تقديمه للكتاب ، هي ان كلمة الصهيونية في كتابه إنمـــا تنصرف الى الصهيونية السياسية ، ففي بدء الحركة الصهيونية ، كانت هناك صهيونيتان على الأقل : صهيونية ثقافية تهتم ببعث اللغة اليهودية والثقافة اليهودية ، وصهيونية سياسية لا تستهدف سوى إقامة الدولة اليهودية .. وهذه الصهيونية السياسية ، كما تقول الدراسة المنشورة عن الكتاب المذكور ، كانت في البدء مستعدة لاقامة الدولة في أي مكان

آخر ممكن غير فلسطين ، مما يؤكد انها كانت منصرفة بالدرجة الأولى الى اسباغ صفة القومية السياسية على العنصر اليهودي ، وان فكرة العودة الدينية الى فلسطين لم تظهر الا فيما بعد كورقة رابحة لا غير[1] .

في هذا الكتاب، يسلط المؤلف مزيداً من الضوء على الظروف والملابسات التي أملت على الحركة الصهيونية اتخاذ قرارها الخاص بنقل مركز نشاطها من أوربا إلى الولايات المتحدة الامريكية .

حدث ذلك إبان الحرب العالمية الثانية . وكانت الحركة الصهيونية في ذلك الوقت ترى من المؤشرات ما يكفي لاقناعها بأن مركز بريطانيا لن يكون في المستقبل بمثل ما كان عليه في الماضي ، وان النجم الصاعد هذه المرة هو الولايات المتحدة . وبالاضافة إلى ذلك، فإن الحركة الصهيونية كانت تسعى الى أن تجعل من الولايات المتحدة مركز ضغط على بريطانيا التي كانت تشعر بالحاجة الماسة إلى دور عسكري تقوم به الولايات المتحدة لصالح الدول المتحالفة ضد النازية في الحرب العالمية الثانية . اي ان الحركة الصهيونية كانت تحاول التأثير على بريطانيا عن طريــــق الولايات المتحدة .

ويشتمل الكتاب على تفاصيل بالغة الأهمية عن الوسائل التي استخدمتها الحركة الصهيونية بهدف ان تجعل من الولايات المتحدة حليفاً لها بدلاً من الحليف البريطاني. من ذلك مثلاً، الجهود التي بذلت بهدف كسب ثلاث قوى رئيسية داخل الولايات المتحدة، وهي الرأي العام والكونغرس والحكومة . ويقول احمد بهاء الدين في كتابه «اسرائيليات» ان اكبر حليف في رأي مؤلف كتاب «مدخل الى اسرائيل» كان جهل

«١» ــ يعرض أحمد بهاء الدين في الفصل الأول من كتابه « اسرائيليات » لكتاب « آلن تايلور » ويمكن العودة الى الفصل المذكور للاطلاع على مزيد من المعلومات ــ كتاب الهلال ــ العدد ١٦٨ ــ الصفحة ١١ .

الرأي العام تماماً بقضية فلسطين . ونجح الضغط الصهيوني المنظم في ان يترك اثراً ملموساً على الكونغرس الذي منح خلال فترة قصيرة من الزمن تأييده للحركة الصهيونية . وعلى صعيد التأثير المطلوب إحداثه على الحكومة الامريكيـــة ، فان الحركة الصهيونية ، كما هو شأنها في كل الأوقات ، عمدت الى ان « تترك مهمة الاتصالات العليا بالشخصيات الكبرى الى رجلها المحنك في هذا المجال منذ الحرب العالمية الأولى : حاييم وايزمان » . وكما يقول مؤلف كتاب « اسرائيليات » فان وايزمان كان يؤمن بحقيقة ثبت انها في محلها .. كان لا يضيع وقته مع الخبراء وكبار الموظفين الرسميين لأن هؤلاء على خبرة كاملة بمثل هذه الموضوعات ، و كثير منهم يعرفون الشرق الأوسط جيداً ، فكانت الصهيونية تجد انه من الصعب دائماً ان تضلل هؤلاء او تحملهم على اتخاذ موقف ضد العرب . اما الاتصال بالزعماء الكبار فكان اجدى ، فهؤلاء خبرتهم بالمنطقة قليلة ، والتأثير عليهم من خلال المصالح السياسية المحلية ممكن . ثم ان من سلطتهم ان يضربوا برأي الخبراء عرض الحائط ، الامر الذي كان يحدث كثيراً كما يقول مؤلف كتاب « المدخل الى اسرائيل » .

يبقى بعد ذلك ان مؤلف الكتـاب ، برغم اخلاصه الواضح في عرض التفاصيل الخاصة بالمحاولات التي بذلتهـا الحركة الصهيونية لوضع الولايات المتحدة في خدمة اهدافها ، لم يقدم عرضاً مماثلاً للتفاصيل الخاصة بالمحاولات التي بذلتها الولايات المتحدة لوضع الحركة الصهيونية في خدمة أهدافها . وبطبيعة الحال ، فان المؤلف يستطيع ان يعتـذر عن ذلك بقوله ان هدف الكتاب هو تسليط الاضواء على الاساليب التي لجأت اليها الحركة الصهيونية بهدف تحقيق اغراضها ، واماطـة اللثام عن الجـذور السياسيـة للحركة الصهيونية .

غير ان الأمر ، كما هو واضح من سياق الاحداث ، لم يكن مجرد استجابة امريكية لضغط صهيوني لاقبل لها بمجابهته ، وانما كان في حقيقة

الامر استجابة لسياسة امريكية وجدت في الحركة الصهيونية قوة قادرة على الاسهام في خدمة هذه السياسة .

ولعل في هذه السنوات التي انقضت على قيام اسرائيل ما يكفي لوضع اليد على حقيقة ان كلا الطرفين ، الحركة الصهيونية والولايات المتحدة ، حاول أن يضع الطرف الآخر في خدمة اغراضه . وفي ذلك كله مافيه من اشارات لاتخطئها العين الى حقيقة هذا المشهد السياسي الذي تمضي فصوله في تتابع يميط اللثام عن تلك العلاقة المتشابكة بين الحركة الصهيونية والولايات المتحدة على مدى ربع قرن من الزمن .

- ٣ -

في مطلع الستينات ، اصدر «ابا ايبان» كتاباً تحت عنوان : «موجة القومية» . وقد حاول ايبان في هذا الكتاب أن يثير الشكوك حول اعتقاد كان سائداً في ذلك الوقت وهو ان العلاقات السيئة بين العرب والغرب انما تعزى الى سبب وحيد هو اسرائيـــل ، وانه لولا وجود اسرائيل لكانت الصورة مختلفة كل الاختلاف .

وبطبيعة الحال فان محاولة ايبان انصبت على نقطة رئيسية هي اظهار ان علاقات العرب بالغرب لايمكن فهمها في ضوء وجود او عدم وجود اسرائيل ، ذلك ان هذه العلاقات كانت سيئة قبل قيام اسرائيل . ويعرض كاتب سياسي معاصر وجهة نظر ايبان كما وردت في كتابه بقوله ان ايبان يقرر ان نظرة العرب الى الغرب مرت بثلاث مراحل ، في المرحلة الاولى كان العرب ينظرون الى أوربا نظرة ازدراء واستهزاء ، وذلك أيام تفوق الحضارة العربية ، في حين كانت أوربا غارقة في الظلام .

ويقول آبا إيبان ان العرب معهم حق في هذه النظرة .. وهو ينقل فقرة من كتاب « المسعودي » المؤرخ العربي القديم يقول فيها عن الاوربيين مامعناه: « ان دمهـم بارد ، اجسادهم ضخمة ، أجلاف ، عاداتهم خشنة ، فهمهم غبي ، والسنتهم ثقيلة » . والمرحلة الثانية كانت بالعكس ، مرحلة خضوع العرب لاوربا واعترافهم بسيطرتها وتفوقها خلال فترة انهيارهم . ثم المرحلة الثالثة التي نعيشها الآن ، ويقول عنها ايبان ان العرب فيها لايشعرون نحوها بالخضوع . ولكن المشكلة ان البعض منهم يصر على ان النفوذ الاستعماري لم يندثر بعد . ان هؤلاء البعض من العرب لايكتفون بأنهم حققوا المساواة مع الغرب ، بـل يصممون على « تسوية الحساب » والانتقام من اخطاء الماضي .

ويمضي الكتاب بعد ذلك في محاولة مدروسة لشرح فكرته القائلة ان الصراع العربي ـ الاسرائيلي ليس هو السبب الوحيد للعلاقات السيئة القائمة بين العرب والغرب ، وانه لكي نفهم الأسباب الحقيقية التي تقف وراء سوء العلاقات ، ينبغي أن نقلب كتب التاريخ لكي نكتشف العداء المتأصل للغرب لدى العرب .

وبعد مضي أكثر من عشر سنوات على صدور كتاب ايبان ، مـايزال الفكر الصهيوني يعمل في الاتجاه نفسه . والميزة التي يتمتع بها الفكر الصهيوني هي انه يستطيع أن يصل إلى العقل الأوربي مباشرة ودون أية وساطة. ذلك ان الفكر الصهيوني ، بشكل من الأشكال ، ليس اكثر من استطالة للفكر الاوربي . ولا يوجد اي قدر من الشك حول الفكرة القائلة إن الحركة الصهيونية تمتد بجذورها الى الحقيقة الاوربية . وكما يكتب الدكتور اسعد رزوق في كتابه « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » ، فان الدعوة الصهيونية التي بشر بها تيودور هرتزل ، ظهرت على صورة حركة عالمية

منظمة في النصف الثاني من العقد الاخير للقرن التاسع عشر . غير ان جذورها ترجع الى ماقبل فترة الظهور بعقود عديدة من الزمن . فهي وليدة البيئة والتفكير الأوربيين في النصف الثاني من القرن الماضي ، ووريثة التقليد العريق لتلك الصهيونية الاممية ، صهيونية الاعتبار التي مابرحت منذ الربع الاول للقرن السابع عشر ، ترفع لواء الدعوة الى ارجاع ملك اليهود بفلسطين لسابق عهده القديم ، بحيث يأتي الارجاع والاسترجاع كمقدمة لاهتداء اليهود الى الدين المسيحي ودخولهم في حظيرة الايمان الصحيح . ويخصص المؤلف فصلا من كتابه للحديث عن الجذور الاوربية للصهيونية في محاولة للوقوف على التيارات والاتجاهات الفكرية الرئيسية في اوربا عشية ظهور الحركة الصهيونية وتبلور الفكرة التي قامت عليها في كتابات هرتزل ونوردو بشكل خاص .

اين يمكن العثور على الجذور الاوربية للصهيونية ؟

إذا اتفقنا على ان القرن التاسع عشر يشكل الرحم الذي تكونت فيه الحركة الصهيونية والذي وجدت فيه أساسها الايديولوجي ، فانه يمكن القول مع مؤلف كتاب « الصهيونية وحقوق الانسان العربي » ، إن الاجابة عن السؤال : « ما هي أبرز التطورات التي شهدها القرن التاسع عشر بشكل عام ؟ » تتحقق بالاتيان على ذكر الحركات والقوى التالية :

١ ـ العلم ومنجزاته ، وانتشار الأفكار العلميـــة من خلال حركة « الداروينية الاجتماعية » .

٢ ـ النزعة العلمانية والتطورات التي رافقتها وأدت إلى استكمال الفصل بين الدين والدولة .

٣ ـ التصنيع والحضارة الصناعية والآلية .

٤ ـ الليبرالية والمبادىء التي قامت عليها في شتى الحقول والمرافق .

٥ ـ الماركسية وتعاليمها ومواقفها ، والأحزاب الاشتراكية التي تبنت مبادئها .

٦ ـ القومية وحركاتها التي اعتنقت العنصرية وتحولت إلى امبريالية جديدة .

يكتب المؤلف : ما علينا سوى الرجوع الى كتابات هرتزل ونوردو بالذات ، كي نتلمس في أفكارهما صدى الاتجاهات التي عرفها القرن التاسع عشر ، ونقتفي آثار الآراء التي اقتبسها الاثنان عن حضارة العصر وعاشا في مناخها السائد طيلة السنوات التي سبقت ظهور الحركة الصهيونية ومهدت لها .

وعلى أية حال ، فإن المسألة الواضحة هي ان الصهيونية تكونت بفعل عوامل متعددة اسهمت الحضارة الأوربية في صنعها وتشكيلها . ولعل هذا يفسر تلك العلاقة التي قامت في يوم من الايام ، والتي ماتزال آثارها واضحة حتى الآن ، بين اسرائيل والقارة الأوربية . ذلك أن اسرائيل كما يكتب أحمد بهاء الدين في دراسته « أقدار متصادمة » ، هي بنت أوربا ، وان كانت بنتها غير الشرعية . فاضطهاد اليهود في أوربا أمر صحيح تاريخياً ، وكونهم ذبحوا بالآلاف حقيقة واحدة ، والذي ارتكب هذا الجرم هو حضارة أوربا ، الأمر الذي دفع مئات الآلاف منهم الى الفرار .. لكن هؤلاء المهاجرين كلهم اوربيون بغير شك . ومن هنا تنشأ علاقتهم المعقدة بأوربا ، علاقة ابن السفاح بأبيه . ان الأب في هذه الحالة يخجل من ابنه الذي انجبه سفاحاً . انه لا يحب أن يراه الناس أو ينسبونه اليه . انه لا يستطيع أن يجعله يعيش معه في بيته تحت سقف واحد ، ومع اولاده الشرعيين . ولكنه مع ذلك لاينسى أنه ابنه وانه ينتمي اليه ، فهو يحرص على مساعدته والاهتمام بأمره ، عن بعد .

واذا كان قد طرأ ، في السنوات الاخيرة ، تحول ملحوظ على العلاقات الاسرائيلية ـ الاوربية ، فلعل ذلك ان يكون مرده الى سببين واضحين :

١ - ان الحركة الصهيونية اختارت ان تربط نفسها بالولايات المتحدة وان تتحلل من بعض ارتباطاتها القديمة بالقارة الاوربية ، بفعل تحول مركز القوة والتأثير من اوربا الى الولايات المتحدة .

٢ - ان العلاقات الدولية علاقات مصالح ، والمصالح ليست ثابتة وانما هي تتغير بتغير الظروف والاحوال .

وفي ذلك مافيه من اشارات الى طبيعة الحركة الصهيونية واساليب عملها وقدرتها على التحرك حيث يكون هذا التحرك في خدمة اهدافها .

★ ★ ★

الموت في البوسفور

عبد الوهاب البياتي

•

الى ذكرى
ناظم حكمت

•

(١)

مررتُ باستامبولَ بعد الليلة الألف وبعد السنة العاشرة. التقيتُ بالرفاق: كان بعضهم مات ، وكان بعضهم شاخ ، وكان بعضهم خان ضياء القمر الطالع في البسفور بعد الليلة الأولى، وكان البعض ما زال — كما تركته — يرحل في الرسوم

والأشعار والخمرة والحب الى مدينة الحلم ، ويبكي كلما حاصر « طروادة » في أحلامه « الأغريق » دكوا سورها واغتصبوا نساءها ؛ يبكي، ولا يبكي عذاب الفقراء عندما يُحاصرون ويُبادون على أسوار هذي المدن الشهيدة. التقيت بالرفاق: كان يونس الأعرج قد مات، وكان يوسف السجين عند النبع ما زال الى «مدريد» في سفينةٍ من ورقٍ يرحل وهو يخدع السجان بالغناء عند النبع مقهوراً ؛ وكان الشيخ بدر الدين في عباءة حمراء من شقائق النعمان مذبوحاً من الوريد للوريد. كان قمر الخيانة الأسود في أساور النساء والأقراط والحانات والأسواق والمراكب البيضاء في البسفور . كان عامل الميناء في معطفه الأزرق مشبوحاً على كرسيه في البار : عملاقاً بلا أسلحةٍ : كأننا لم نضرب البحر بسيف البرق أو لم نحترق من أجل أن نضيء ليل البشر — الآلهة — الطيور . كان البعض ما زال — كالعادة — يمارس التمثيل فوق المسرح الخاوي وفي السيرك على ظهر جواد الخشب . الرفاق كانوا يذبلون ويموتون على أرصفة الميناء في بطءٍ ؛ ولكن المغني كان في غنائه يقاوم الذبول والموت ، وفي جحيمه محترقاً يضيء ليل البشر — الآلهة — الطيور .

(٢)

بعدك كان الموت والفراق في استامبول .

يمارسان لعبة المنتظر المخدوع .

« منوَّر » تزوجت ورحلت .

والآخرون أحرقوا الجسور .

(٣)

تغوص في الأعماق لكنك لا تغرق . هل عدتَ من المنفى الى سلطانة العشق على سحابة خضراء ؟ هل رأيت في عيونها : الحريم والأقمار؟ نجم القطب

لا يبوح بالسر . سأبكي عندما تفتح لي بوابة* الحديقة : الوصيفة** الزرقاء العينين وهي تفرش السجادة الحمراء تحت قدمي ، يتبعني يونس في عكازه . السلطان في مملكة الموت : أنا : ساعي بريد يحمل الدموع والجليد والشموس للعشاق . هل رأيت من نافذة السجن : ينابيع الربيع وقطار الليل وهو يرسل العويل في عاصفة ثلجية ؟ كنت الى المنفى أساق وأنا مقيد بشعرها الأحمر أعوي وأعض القيد . من يرحل في نفسي ؟ ولا يعود ؟ هل رأيت ؟ لاشيء سوى التصفيق والضوضاء في القاعات . كان الليل في كل مكان وأنا مقيد بشعرها أتبعها كالعبد . هل رأيت ؟ كان يوسف السجين قد أصبح للسلطة جاسوساً وكان عاملاً في محلج القطن وفي المطبعة السرية . الزمان دار ، سقط الثلج على بوابة الحديقة . السلطان في مملكة الموت أنا ، أتبع مولاتي الى المنفى ، قبور الشهداء هي ميراثي ، سأبقى حاملاً وسامهم خارج قاعات الملوك ولصوص الشعر والقبائل الجديدة . الرفاق كان بعضهم ضيع أوضاع ، وكان بعضهم مازال في بسالة يواصل المسيرة الكبرى ، وكان يونس الأعرج مازال على ايمانه ، يذرع كل ليلة خريطة العالم في عكازه ، وعندما يعود للقبر يمد يده ليمسح التراب عن وجه المغني ، وهو في غنائه يقاوم الذبول والموت وفي جحيمه محترقاً يضيء ليل البشر ــ الآلهة ــ الطيور .

استامبول ٤ - ١١ - ١٩٧٣

---

* يونس الاعرج ويوسف والشيخ بدر الدين من أبطال بعض قصائد ناظم حكمت .

** أما (منور) فهي زوجته الأولى التي كتب لها وفيها أجمل قصائده عندما كان في السجن . وقد تزوجت بعد موته ورحلت .

السمفونية الغجرية

عبد الوهاب البياتي

كان المغني الغجري يرشق العذراء بالوردة ، والعـذراء مثل ريشة تدور حـول نفسها ، تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مشارف « الحمراء » مقتولاً تغطي صدره الخناجر ـ الزنابق ـ النجوم ، كان الغجري شـاحباً يطرد في غنائه الأشباح ، كانت يده ترسم في الهواء شارة الغريق ـ العاشق ـ المخدوع ؛ والعذراء

مثل ريشة تطير خلف يده الواجفة . الضارعة . الحمراء كان غارقاً كعهده بالصمت . صاح الغجري :

استيقظي ايتها الأعمدة - الهياكل - الأقواس ، يا مكعبات النور في قصيدة المستقبل - النبوءة - الرحيل . صاح : استيقظي أيتها الاسطورة - القبلة . العذراء مدت يدها ليده ، وعانقتها ، رقصا معاً ، وأصبحا لسان لهب ، فاشتعلت في شعرها الوردة ، صاح الغجري : احترقي ايتها الصغيرة الحسناء . مال رأسها ، تلاقت العيون والشفاه ، هذا زمن الموت على وسادة الربيع ، مال رأسه ، فاحتضنته وهو يبكي ، يطرد الأشباح في غنائه الصاعد من قرارة الاسطورة - القبلة . الحمراء كان غارقاً كعهده بالصمت ، والفجر على ابوابه يرسم أشجاراً وقبرات ليل راحل . تلاقت العيون والشفاه . صاح الغجري خائفاً : توقفي ايتها الريشة في مدار هذي اللعبة الفاجعة . العذراء دارت دورتين وقفت ، تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مشارف الحمراء ، مقتولا تغطي صدره الخناجر - الزنابق - النجوم . توقفت هجرة أحزان المغني ، وقع الطائر في الكمين ، مرت عربات الفجر ، الليلة ، في وحول هذا الشارع المحاصر ، المسكون بالأشباح . كان الغجري يمسح السكين في منديله ويعبر الشارع محشوراً مع الأشباح في المقهى ، يغني خائفاً لنفسه ، قارئة الكف له ، قالت : هناك مدن رائعة أخرى وراء النهر ، حيث الشمس لا تغيب في الليل ، ولا يخدع فيها العاشق - الغريق في منتصف النهر ولا ترحل فيها الريشة - العذراء . صاح : اقتربي ، فأنني رأيت عينيك بأسفار النجوم - الربيع أجدادي على بوابة الشمس وفي المدافن السرية - الكهوف ، كانوا يرسمون وجهك الغارق بالنور وكانوا ، كلما عاد الربيع ، احتفلوا بعودة الروح الى الطبيعة الميتة . الاشباح ولت واختفى المقهى ، وكان الغجري راكعاً يبكي ، وكانت يده في يدها . قارئة الكف له ، قالت : هناك مدن رائعة أخرى وراء

النهر ، فارحل ، فهنا الخطوط في كفك لاتقول شيئاً . طفقت تبكي ، وكان الغجري راكعاً يبكي على مكعبات النور في قصيدة المستقبل - النبوءة - الرحيل. صاح : استيقظي أيتها الأعمدة - الأقواس في وحول هـذا الشارع المحاصر ، المسكون بالأشباح . كانت يده في يدها صمـاء ، لاتقول شيئاً . نهضت قارئة الكف ودارت دورتين ، ووقفت ، تحاول اللحاق بالليل الذي كان على مشارف « الحمراء » مقتولاً تغطي صدره الزنابق - الخناجر - النجوم .

* * *

الجدل

علم جبر الثورة

مجاهد عبد المنعم مجاهد

« إلى كوكب القمر ..

إلى التي أجرى وجودها حواراً مع وجودي

فتفتحنا ... »

مجاهد

« الجدل هو القوة الكلية التي لا تقاوم التي لا يمكن لأي شيء أن يقف في وجهها ، مهما اعتبر هذا الشيء نفسه محصناً وثابتاً » .

(هيغل)

قال متصوف العصور الوسطى ايكهارت : « انك لا تستطيع أن ترى الا بفقدان النظر ، ولا أن تعرف الا بعدم المعرفة ، ولا أن تفهم الا بالضلال » (عن فولكييه : الجدل ٤٨) فهل هذا تلاعب بالألفاظ أم في هذا الانفراق يكمن جوهر الجدل ومسيرته الجدلية ؟ ان الجدل ليس إلا رؤية انقلابية تستخرج الانسان من تناهيه وتحرره من تشيئه .. واذا كان ماركس في «أطروحات عن فيورباخ» يرى «ان من الجوهري تربية المربي نفسه» (ملحق بكتاب الايديولوجيا الألمانية ص ٦٤٦) فان وسيلة هذا قائمة عند القديس أوغسطين الذي « اعتبر الجدل (علم العلوم) لأنه يعلمنا كيف نتعلم ويعلمنا كيف نتعلم » (عن فولكييه: المرجع المذكور ص ٢٥) واذا أمكن البرهنة على هذه القضية ، فهل يمكننا أن نذهب مع أفلاطون حين قال : « اذن فستوافق على أن الديالكتيك هو قمة العلوم وتاجها وأنه لن يوجد علم آخر يستحق مكانة أرفع منه » ؟ (أفلاطون : الجمهورية ص ٢٧٥) .

ولكن ، ما هو هذا الجدل الذي نتحدث عنه ؟ ولكن ، اذا كان الجدل — كما سيتبين بعد قليل — هو الكشف عن الجوهري وفرزه من اللاجوهري ، فهل تعريف الجدل هو الشيء الجوهري فيه ؟ ولما كان هيجل « يقصد بجدله في التناهي أن يكشف سر (اللاتناهي الأصيل) » (توكر : الفلسفة والأسطورة عند كارل ماركس ص ٥٨) فهل تعريف الجدل هو الشيء اللامتناهي في الجدل ؟ ألا يمكن في كل وقت وكل زمان وعند كل مفكر أن نلقى تعريفاً مغايراً للجدل ؟ إذن فان التعريف ليس هو الشيء الجوهري في الجدل لأن هناك دائماً تجاوزاً له .. إذن ما هو الشيء اللامتناهي الذي يتبقى في الجدل ؟ إنه مهمة الجدل : الشيء الجوهري في الجدل هو الرسالة التي يؤديها .. ومن ثم فليس الجدل موضوعاً نلتقي به في الطريق ندرسه ونصنفه ولنتأرجح بين جدل لاهوتي وآخر علمي وثالث وجودي ورابع ماركسي .. بل الجدل رؤية انقلابية حتى يمارس العقل رسالته على نحو جدلي ..

يقول فيورباخ : « الجدل الحقيقي ليس مونولوجاً لمفكر وحيد مع نفسه ، بل هو حوار بين الأنا والأنت » (عن توكر : ص ٩٠) ومع أن « الغرض الأول في الجدل هو الالزام » كما يذكر ابن سينا (الشفاء : المنطق — الجدل ص ٢٤) ومع أن « الغرض من الجدل إن كان الجدلي سائلاً معترضاً الزام الخصم واسكاته » كما يقول الصادق الحلواني (عن التهانوي .. كشاف اصطلاحات الفنون ج١ ص ٣٤٥) ومع ان الجدل في اللغة « الخصام واللجاجة » (المرجع نفسه ص ٣٤٤) ومع

ان الجدل هو « المنازعة في الرأي ويطلق على شدة الخصومة واللدد فيها » (معجم ألفاظ القرآن ج١ ص١٩٤) إلا أن قوامه الحرية ... ان نتحاور يعني أن يدخل كائنان في منطقة الحرية ... ان الجدل كما يقول شوبنهور « يعالج التفاعل بين كائنين عقليين هما ، لانها عقليان ، يجب ان يفكرا بشكل مشترك ، ولكنها بمجرد أن يكفا عن الاتفاق . مثل ساعتين تحافظان بالضبط على الوقت نفسه ، يخلقان منازعة أو منافسة عقلية » (شوبنهور : فن المجادلة ص٦) ... فاذا ما دخل كائنان في منطقة الحرية عن طريق الجدل فان هذا يعني أن يحترم كل منها الآخر ... ومن ثم قال الرب لنبيه : « فجادلهم بالتي هي أحسن » بل اننا نجد ان « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها » .. لقد كان الله رحب الصدر حتى انه قد سمع للآخر ، استمع الى تلك التي تجادل ... ومن ثم التقت في فعل المجادلة نفسه الدكتاتورية . . الأمر اذن على نحو ما قاله الشاعر هولدرلين ، وابرزه هيدجر « لما كنا حواراً وكنا قادرين على أن يستمع الواحد للاخر » (هيدجر : الوجود الانساني والوجود العام ص٢٩٣) وهكذا نظل منذ البداية على الجدل باعتبار ان جوهره الحرية .. أو بمعنى أدق ، ان هدفه هو تحرير الانسان من احاديثه ونزعته التجزيئية والخضوع للقيد . والحرية بالتعريف السارتري « هي عدم رد النظام الحضاري الى النظام الطبيعي » (سارتر مشكلة المنهج ص١٥٢) وربط الجدل بالحرية هو عين مارآه ماركيوز وهو يتحدث في ندوة عقدت عن جدل التحرر فقال ، « اننا لنتناول جدل الحرية (وهي بالفعل عبارة فضفاضة لا معنى لها لانني أؤمن بأن كل جدل تحرر) وليس تحرراً بالمعنى العقلي فحسب بل تحرر يتضمّن العقل والجسد ، تحرر يضم الوجود الانساني كله .. فكّروا في أفلاطون: التحرر من الوجود في الكهف . فكّروا في هيجل : التحرر بمعنى التقدم والحرية على المستوى التاريخي » (ماركيوز : التحرر من مجتمع الوفرة ص ١٧٥) وبهذا التفتح في الحرية يستهدف الجدل خلق الانسان الشامل بالمصطلح الغربي أو الانسان الكامل بالمصطلح العربي أو الانسان المطلق بالمصطلح الصوفي.أي ان هدف الجدل احداث تغيير انقلابي ثوري في الانسان يخرجه من فردانيته الى معانقة العالم بعد دربة طويلة من محو العلائق..

ولكن ، ألم يقل ان الجدل له سير معين ، له مصير محدد محكم بحيث لايترك فسحة الحرية ؟وان هذا يطرح قضية ما اذا كان الجدل علماً أو فناً .. لكننا بقولنا ان الجدل علم (أو) فن انما يجعلنا هذا نخرج من الجدل بطريقة غير جدلية . فلكي نكون أمناء مع جدليتنا فان الجدل فن (و) علم معاً ، حيث هناك حوار جدلي بينهما كما سوف

لتبين بعد حين، الجدل علم لأن له قواعد، وفن لأنه يترك فسحة للخلق الانساني . هو علم، له قواعد والا وقعنا فيما حذرنا منه ابن سينا من الاعتماد على الحدس والتخمين عندما قال : « أول ذلك أننا إذا حصلنا على المواضع التي فيها تستنبط الحجج على كل مطلوب ، والآلات التي بها يتوصل الى استنباطها وعرفنا كيفية استعمالها ، كنا مرتاضين متخرجين . ومعنى الارتياض التمكن من تكثير أفعال جنس واحد وتحسينه . أما التكثير فان تكون مواضع استنباط الحجة لنا معلومة معددة فلا يكون حالنا كحال مَنْ يحتاج الى أن يتوكل على الخاطر والحدس » (ابن سينا ، ص ٤٨) وهذا أيضاً ما حذرنا منه سارتر عندما قال : « لا يجب على الانسان أن يخلط ومض الأفكار بالجدل » (سارتر : مشكلة المنهج ص ٣٨٤)..والجدل فن أيضاً لأن الفن علم ، ففي الفن جانبان: جانب نظري هو تعلم أصول الفن وجانب تطبيقي هو الممارسة « ولكن بجانب تعلم النظرية والتطبيق يوجد عامل ثالث ضروري . لكي يصبح الانسان استاذاً في أي فن يجب أن تكون مسألة السيطرة على أي فن مسألة اهتمام قصوى ، لا يجب أن يكون هناك أي شيء في العالم اكثر أهمية من الفن » (إريك فروم : فن الحب ص ٢٢) أي أن على الجدلي أن يقوم بمجموعة من الرياضات والمجاهدات أو الارتياض على حد تعبير ابن سينا والتدريبات على حد تعبير أرسطو كي يتحقق له ما يتحقق للمتصوف ألا وهو الوصول الى حالة الصحو بعد المحو .

ولما كان هدف الجدل هو خلق الانسان الشامل أو الكامل أو المطلق ، فان الجدل مشروع ، إنه اتجاه نحو المستقبل ، ومن ثم فهو ليس تحليلاً باهتاً وشاحباً وجامداً للماضي أو الحاضر ، وانما هو كشف عن خصب المستقبل، وتحقق الامكانية سواء بالنسبة للفرد أو الواقع كله.. ومن ثم يمكن للجدلي أن يتصف بالوصف الذي أطلقه اسحق دويتشر على تروتسكي : « إن ميزة تروتسكي الأساسية هي انه مفكر الأمام بالمعنى الذي تقول فيه الأسطورة الاغريقية إن بروميثوس هو مفكر الأمام على عكس أخيه إبيميثيوس مفكر الوراء . ان عقله وارادته وحيويته موجهة نحو المستقبل » (تروتسكي : الثورة الدائمة ص ١٢) وهذا ما دفع سارتر الى القول ، « طالما أن الانسان لم يدرس أبنية المستقبل في مجتمع محدد فان الانسان يتعرض بالضرورة لخطر عدم فهم أي شيء مهما يكن مما هو اجتماعي » (سارتر : المرجع المذكور ص ٩٧) ومن ثم يمكننا أن نعتبر أن « الجدل الهيجلي مكرس من أجل المستقبل لأن دراسة عملية التطور تعني السيطرة عليها مستقبلاً بمعرفتها معرفة موضوعية » ، (مجاهد عبد المنعم مجاهد : ثورة الجدل الهيجلي) وهذا

يكون الجدل الهيجلي منهجاً للكشف لا للعرض على عكس ما ذهب اليه كوفمان عندما قال « ان جدل هيجل هو على الاقصى منهج للعرض ، وهو ليس منهجاً للكشف » (كوفمان : هيجل – اعادة تفسير ص ١٦٢) .

ولما كان هدف الجدل هو خلق الانسان الشامل أو الكامل أو المطلق اذن فان الجدل يهدف الى هدم الحاضر والماضي معاً أو إظهار تناهيها .. بمعنى أن تفقد الاشياء والاوضاع قدسيتها وصنميتها وثباتها . . وهذه رسالة الانبياء رسالة الجدليين ، هدم الاصنام وخلق الجديد .. وهذه رسالة الشعراء رسالة الجدليين : هدم الاوثان والتجنيح على المستحيل .. وهذه رسالة المفكرين رسالة الجدليين : هدم محدودية الانسان الفكرية والاطلال على خصب الامكانيات الانسانية . . وهذه رسالة الثوريين رسالة الجدليين : هدم الروتين والسير النمطي والاندفاع بالفعل الحاد النفاذ سريعاً الى المستقبل .. » ولا يزال الانسان تُخرق له العادات بها (أي بالامور القدرية الصادرة عن معرفة التنويعات الحكمية) في ملكوت القدرة حتى يصير له خرق العوائد (أي القوانين الطبيعية) عادة في فلك الحكمة . فحينئذ يؤذن له بابراز القدرة في ظاهر الاكوان » (القول للجيلاني عن عبدالرحمن بدوي : الوجودية والانسانية في الفكر العربي ص ٤٤-٤٥) .

والتناقض هو مفجّر الجدل من الداخل . . هو حركة الانسان نحو المستقبل .. انه التفجر من باطن الانسان والاشياء . . ومن ثم لا يجب أن نبحث في التناقض عن الوحدة ، بل ان نبحث في الوحدة عن التناقض . . وبهذا يكون الجدل تكشف الوجود بالمصطلح الهيدجري .. انه تجلية الكامن وكشف المتحجب..انه رحلة الداخل والاعماق.. هو جعل الداخل والاعماق يخرجان الى السطح بداخلية وعمق . . والانسان هو مفجّر الجدل ، فالجدل لا ينفجر من تلقاء نفسه . . « ان المفهوم الجدلي – على أساس نظري وتطبيقي – يعلن عن يأسه: ان الواقع الانساني هو تاريخه ، وفيه لا تنفجر التناقضات من تلقاء نفسها » (ماركيوز : الانسان ذو البعد الواحد ص ٢٥٣) والثوري الحقيقي هو الذي يقوم بتفجير التناقض لا التهدئة بين المتناقضات ، كما يمكن أن يفعل الجدل على نحو مقلوب . . والجدلي الثوري عليه ان يتخذ المبادرة ويفجّر الجدل ويقال له . . لا تنتظر حتى تلجأك المطاردة الى الاختباء» (القول لصمويل بيكيت عن«ماركيوز»: الانسان ذو البعد الواحد ص ٢٤٣) .

ولكن قبل أن نواصل السير تكشيفاً لجوهر الجدل ورسالته ، ألم يوَجّه أصلا

الى الجدل نقدٌ بأنه أقل في المرتبة المنطقية من القياس مثلاً ؟ أم يُوَجَّه اليه النقد شقشقة لفظية مثلاً ؟ أم يُوَجَّه اليه نقد بأنه يلغي التجربة الواقعية عندما نفى زينون الحركة مثلاً ؟ أم يوجه اليه فرنسيس بيكون مثلاً النقد فقال : « ان الجدل لا يساعد على اكتشاف الفنون . فكثير من الفنون قد اكتشفت بالمصادفة » (عن هيجل : محاضرات حول تاريخ الفلسفة ج٣ ص ١٨٠) ؟

هل قصد المعلم الاول حقاً ان يحط من شأن الجدل ؟ قيل ان البرهنة أو القياس هو ذروة التفكير المنطقي عند ارسطو حيث ان الانطلاق هناك من مقدمات يقينية تنتج عنها نتائج بالضرورة تتسق مع هذه المقدمات اليقينية . ومن ثم فهنا اكتمال يتفق على ان الجدل قياس ينطلق من مقدمات ظنية . . . قيل هذا عن ارسطو لكن ارسطو قال قولا اخر . فقد قال المعلم الاول : « الجدل عملية نقد حيث يكمن الدرب الى مبادىء جميع المباحث » (أرسطو ، الاعمال الكاملة ، ج١ : ١٠١ أ ٤٥) .. بل لقد أدرك أرسطو انّنا بالجدل نكون وسط المشكلات ، لكننا بالحجاج المنطقي نكون وسط القضايا . . والاولى تقتضي حلا على حين ان الثانية لا تضيف جديداً .. يقول : «الحجج تبدأ « بالقضايا » على حين أن الموضوعات التي تشتغل عليها الاستدلالات (مشكلات) (المرجع نفسه : ١٠١ أ ١٠١) . على ان ابن سينا المفكر العربي قد أوضح ان في الجدل شرفاً على المنطق ذلك انه يشتغل على المسائل السياسية والاخلاقية والاجتماعية للانسان ومن ثم فهو يشتغل على أرض الواقع .. يقول : « لكن ها هنا قياسات اخرى نافعة في الامور الشركية ، وقياسات اخرى مغلطة ، والنافعة في الامور الشركية فيما ما يتعلق – أول تعلقها أو أنفع تعلقها – بالامور الكلية ؛ ومنها ما يتعلق أول تعلقها أو أنفع تعلقها بالامور الجزئية .

فيجب أن نتعلم هذه الاصناف أيضاً لما لا تخلو عنه من منفعة ، بل لما تدعو الى استعمالها في الأمور المدنية من الضرورة « ابن سينا : المرجع المذكور ص٨ » بل إن ابن سينا أظهر محدودية التفكير المنطقي البرهاني على حين أن الاشتغال جدلياً يتيح فرصة الخلق الانساني والحرية الانسانية وربط هذا بنفع الانسان ... يقول : « أما الحاجة الداعية الى تفصيل الامر في كتب المشهورات دون البرهانيات أن البرهانية محدودة الشرائط غير مخرجة عن حدّ المطلوب في كل باب ، وأما الشهرة فليس شيئاً يتبع أجزاء المقدمات ويلحقها من نفسها ، بل هو شيء يأتي من خارج ، فلا يكون

القانون المستند الى اعتبار اجزاء المقدمات نافعاً في ذلك ، بل نحتاج الى أن نحصي اموراً بما عرفت من الشهرة الخارجية . فتبين من جملة هذا أن هذا النمط من القياسات لاينفع الانسان استعمالها ولا تحصيل ملكتها فيما بينه وبين نفسه بالذات ، بل انما منفعتها على سبيل المخاطبة ، ولا ان ينفع المخاطب في ان يكمل ذاته ، بل ينفع في أمر اخر ، إمّا مؤدٍّ الى تكملة ذاته بالقصد الثاني واما مؤدٍّ الى قوام المصلحة الشركية (المرجع نفسه ص ١٣) .

بل لقد أوضح شوبنهور أن البرهان عند أرسطو مقدمة للجدل ، أي أن الجدل هو الأصل والبرهان هو الفرع .. يقول : « يبدو لي ... أن أرسطو قد رسم منطقه الجديد أو تحليله كأساس واستعداد لجدله وجعل من الجدل مهمته الرئيسية ، فالمنطق يُعنى بمجرّد شكل القضايا، والجدل يعنى بمحتواها أو مادتها — بكلمة، يعنى بجوهرها. ومن ثم من اللازم النظر في الشكل العام لكل القضايا قبل الشروع في جزئياتها . » (شوبنهور : فن المجادلة ص ١٠) وأوضح شوبنهور أيضاً المسألة بجلاء شديد حين قال : « يقول أرسطو ... اذا كانت القضايا من وجهة النظر الفلسفية يجري تناولها من حيث صدقها ، فان الجدل ينظر اليها حسب معقوليتها أو المعيار الذي به تكسب استحسان ورضى الآخرين » (المرجع نفسه، ص ١٠) فاذا كان الجدل يبدأ من المعرفة الظنية فان في هذا يكمن كماله لا نقصه ..

وإذا قيل إنّ الجدل شقشقة لفظية ، فلا يجب أن نأخذ القول أخذاً سطحياً .. بل حتى إذا حدث توحّد بين الجدل والسفسطة وأخذت الأخيرة بالمعنى السيء فان حجج السوفسطائيين المجادلين دليست بالضرورة على نحو يجعل الناس خاضعين لهم كما أنها ليست بالضرورة حقيقية، ولكن حججهم بشكل او بآخر قد تجعل خصومهم يتأملون في آرائهم وهذا يؤدي خدمة ممتازة لخصومهم»(فونج يورلان : روح الفلسفة الصينية ص٤٩)..

وإذا كان أبيلار يُهاجَم من زاوية أنه يتلاعب في جدله بالألفاظ فان « الجدل الذي أعطى له أبيلار ثقلا كبيراً لم يكن مجرّد تلاعب لفظي أجوف بل كان بالنسبة له أداة ، أكبر أداة مميزة عرفها في عهد نحو فهم الوجود الانساني » (جرين : بيتر أبيلار ص ٨٥) ..

إن الجدل تشكيك فيما هو شائع بهدف الوصول إلى الجوهري الخفيّ قبل عملية التشكيك .. يقول الفيلسوف الصيني وي شي Hui Shih = « أذهب اليوم إلى مملكة

(يوم) وقد وصلت إلى هناك أمس » (فونج يورلان : المرجع المذكور ص ٥٢) هل هذا تناقض في التعبير أم تساؤل أصيل عن حقيقة الزمن ؟ هل هناك زمن مطلق أم أن الزمن نسبي والانسان معياره ؟ وعندما قال : « الشمس في الظهيرة هي الشمس في الأفول ، والمخلوق الذي يولد هو المخلوق الذي يموت » (المرجع السابق ص ٥١ - ٥٢). أليس هذا هدماً لثبات الأشياء وكشفاً لديناميتها الحركية ؟ وقد يقال إن سفسطة الجادلين قد تصل إلى القضية وعكسها ، فان كنج يسن لونج يقول : « إن حصاناً أبيض ليس حصاناً . فكلمة (حصان) تشير إلى شكل ، وكلمة (أبيض) تشير إلى لون . وتسمية لون ليس تسمية شكل . ولهذا أقول إن حصاناً أبيض ليس حصاناً » (كريل : الفكر الصيني ص ٧٧) أما أحد أتباع موتزو Mo Tzu فيقول : « إن حصاناً أبيض (هو) حصان وان تركب حصاناً أبيض يعني تركب حصاناً . وان حصاناً أسود هو حصان ، وانّ تركب حصاناً أسود هو ان تركب حصاناً » (المرجع نفسه : ص ٧٧). فانّ الجادلين وصلا إلى نتيجة واحدة كانت هي هدف جدلها ، الجوهري .. الجوهري في الحصان هو وظيفته .. الأول يرى ان نفرز الجوهري من اللاجوهري .. ان نفرز الحصانية من اللونية مثلاً .. والثاني يرى ان الجوهري قائم في الوظيفة الحصانية بصرف النظر عن اللون ..

وإذا قيل ان الجدل ينفي الواقع المعتاد للناس ، حيث نفى زينون الحركة رغم أن الناس يتحركون، فانّ ما نفاه زينون ليس الحركة بل نفى تطابق الزمن مع المكان ، فكأنه ألقى بنظرة جدلية أعمق على العلاقة الزمكانية وبهذا استطاع أن يخرج من فجاجة الحسّ المباشر توصلاً الى جوهر الأمر و « النتيجة العامة للجدل الايلي قد أصبحت هكذا » (الحقيقة هي الواحد وكل ما عدا هذا زيف) » (هيجل : محاضرات حول تاريخ الفلسفة ج ١ ص ٢٧٧) ومن ثمّ « يجب النظر الى عبارات زينون من وجهة النظر هذه ، لا على أنها موجهة ضد حقيقة الحركة كما يبدو للوهلة الأولى ، بل كاشارة الى كيف أن الحركة يجب أن تتحدد بالضرورة واظهار المجرى الذي يجب اتباعه » (المرجع نفسه ص ٢٦٧) .

وهكذا فان الجدل سلاح الانسان وسط معاشه، وسط مشكلاته ، وسط مجادلاته، وسط تشابكاته ، وسط تعرّقلاته .. ولكن ألم يقتصد بالجدل على الأقل قديماً - أن يكون فن السؤال والجواب منعزلاً فحسب في هذه اللعبة النظرية مبتعداً عن أرض الواقع ؟

لكن السؤال يجد ذاته مغروس في قلب الواقع.. فان أسأل سؤالاً لايعني أن هناك شيئاً معطوباً ، سواء صدقاً أم كذباً ، حقاً أم زيفاً في الشيء المسائل عنه .. وهذا ما جعل أرسطو يفرّق بين السائل والمجيب ، وأوضح ابن سينا هذا عندما قال : « وبئس ما ظن مَنْ ظنّ أن القياس الجدلي هو فعل يصدر عن السائل لاغير ، كأنه لم يسمع المعلم الأول يقول في « أنا لوطيقا » : « ان المجيب يقيس من المشهورات والسائل من المتسلمات ، بل المجيب إنما هو مجيب من حيث هو حافظ وضع والسائل هو سائل من حيث هو ناقض وضع » (ابن سينا : المرجع المذكور ص٥٠٢) ... ان الجدل سير من نقض وضع واحاطته بالتساؤل حتى تصل الى القضية الأولية الجذرية ومن هنا فان « الأساس الحق للجدل التاريخي هو على أية حال مما وجده فيشته (مثل هيجل) في الجدل المنطقي . «إن الفلسفة عند فيشته يجب أن تبدأ بتحليل المعتقدات التي تبدو لنا مؤكدة ونظلبهاحتى نجد القضية الأولية الحقــة بشكل بدهي » (كامنكا : فلسفة لودفيج فيورباخ ص ٨) ولقد تنبّه المعلم الأول منذ القدم الى أن الجدل الحق هو التساؤل الحق ، هو طرح السؤال الأساسي .. يقول في كتابه (طوبيقا) :

« ان اي شخص يعكم صياغة أسئلة عليه أولاً أن ينتقي الأساس الذي منه ينبغي أن يوجه هجومه ، وثانياً عليه أن يصوغها ويرتبها سؤالاً بعد سؤال لتتضح لنفسه . وثالثاً وأخيراً عليه أن يشرع بالفعل فيطرحها على الطرف الآخر . وبالنسبة لاختيار الاساس تكون المسألة سواء بالنسبة للفيلسوف والجدلي، ولكنه كيفية الشروع في تنظيم النقاط وصياغة الأسئلة مسألة تهم الجدلي فحسب (ارسطو . المؤلفات الكاملة ، المجلد الاول ١٥٥ ب ٣) وان عملية طرح السؤال الأساسي عملية هدم وضع وبناء وضع جديد ..

ان الجــدل لما كان في الأصل حواراً فان الحرية سارية فيه منذ البداية .. ليست هناك مصادرة على طرفي الحوار.. يقول برايس بران : « لما كان الجدل بالماهية حواراً فانه يفترض بداهة وجود اثنين . ولهــذا فهو ضد فكرة الواحدية » (عن فولكييه ، الجدل ص ٦٩) وكارل بوبر يوضح المسألة فيقول ، « يمكن ترجمة التعبير اليوناني He dialektiké بـ (فن) الاستخدام الخــلاقي للغة .. (كارل بوبر : تخمينات وتفنيدات ، ص ٣١٢) وهذا الخلاف هو الذي يجعل الجدل بالطبيعة جدل الحرية . . يقول هربرت ماركيوز : « يمكننا أن نسمي المنطــق الديالكيتكي (منطق حرية) أو بتعبير أدق منطق (تحرير) ذلك ان الصيرورة هي صيرورة عــالم مستلب لايستطيع

(جوهره) أن يصبح (ذاتاً) ... الا اذا هدم وتجاوز الشروط التي (تناقض) تحققه »(ماركيوز : الماركسية السوفياتية ص ١١٦) وهذا الهدم يبدأ بفعل التحاور.. ان التحاور قائم على السؤال والجواب . والسؤال يعني هدم وضع .. وهذا يعني أن هناك معياراً اخر لدى طارح السؤال بالنسبة للمسألة المطروحة ..ومن ثم فان الايجاب موجود منذ البداية في السؤال ، فالسؤال ليس بالضرورة وفقط أمراً سلبياً .. والجواب نفسه هدم للعنصر السلبي في السؤال..غير ان هذا الحوار الجدلي لا يتجلى الا اذا سئلت الاسئلة الجوهرية .. ومن ثم فالجدل ليس فحسب سؤالاً وجواباً ، بل هو بالاحرى كما قال جارودي « فن طرح الأسئلة بقدر ما هو طريقة لإعطاء الجواب عليها» (جارودي «ماركسية القرن العشرين ص ٨٥) فالسؤال الجوهري تساؤل حول استبقاء الجوهري حتى لايضيع وسط العرضي .. ومن ثم فان التساؤل هو حجر الزاوية في الجدل حتى لو كان بمعنى الحوار .. فبالتساؤل تسقط أبدية الأشياء وتخلق الثورة .. وبهذا المعيار استطاع هرتزن أن يقيم فلسفة هيجل عندما قال: « ان فلسفة هيجل هي علم جبر الثورة ، إنها تحرر الانسان الى درجة فريدة ولا تترك حجراً قائماً من العالم المسيحي ، من عالم التراث البالي » (هرتزن : الأعمال الفلسفية المختارة ص ٥٢١) بل « لقد وصف هيجل ذاته لب جدله بأنه (روح المناقضة)» (ماركيوز: العقل والثورة . هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية ص ٣٥) ويحدثنا ماركيوز عن مفهوم العقل عند هيجل فيقول : « ان لمفهوم العقل عند هيجل طابعاً نقدياً خلافياً مميزاً ، فهو مضاد لكل استعداد لقبول الأوضاع القائمة » (المرجع نفسه : ص ٣٥) المبدأ الاول في الجدل وهو المبدأ الأول في الثورة : لا قداسة للاشياء .. لا ثبات للاوضاع .. وعلى هذا كتب هيجل في موسوعته الفلسفية: « من الأهمية القصوى تأكيد وفهم طبيعة الجدل على نحو حق . سواء كانت هناك حركة ، سواء كانت هناك حياة، سواء كان لأي شيء تأثير على العالم الواقعي ،هناك جدل يعمل . انه أيضاً روح المعرفة التي هي علمية حقاً » (عن كارل بوبر : المرجع المذكور ص ٣٢٨) وترتب على هذا أن قال عن الجدل إنه « القوة الكلية التي لا تقاوم والتي لا يمكن لأي شيء ان يقف في وجهها ، مهما اعتبر هذا الشيء نفسه محصناً وثابتاً » (عن المرجع نفسه ص ٣٣٣) وربما كانت القدرة التي في الجدل على هدم الأشياء هي دافع أبيلار الى اعتناق الجدل فقد قال : « لقد فضلت حرب المناهج الجدلية على كل التعاليم الأخرى في الفلسفة وهكذا قايضت الأسلحة الحربية بأسلحة أخرى وأطلقت معارك الجدل الكلامي على غنائم الحرب»

(عن جرين : بيتر أبيلار ص ٣٥) .. ان روح الثورة هي لب الجدل ، بل ان هذه الروح نجدها حتى في جدل أفلاطون : « الجدل عنده ليس ايجابياً فحسب مثلما كان عند سقراط ، بل هو جدل دينامي ، انه يتضمن حركة للروح ، انه يتضمن توثباً نحو القهر والفتح ، تجاوزاً لما هو 'معطى' بشكل أولي » (فولكييه : الجدل ص ٢٢) وهذا هو جوهر الجدل : « فهل توافق ايضاً على ان تطلق اسم العالم (بالجدل) على ذلك الذي يرتقي الى تفسير ماهية كل شيء ؟ ألا ترى ايضاً أن من لا يستطيع تقديم هذا التفسير لنفسه وللآخرين يكون عقله عاجزاً بهذا القدر ؟ » (افلاطون : الجمهورية ص ٢٧٤).

ان الثورية لا تتأتى إلا بطرح السؤال الجوهري الذي يوصل الى المبدأ الأول ، وعلى هذا قال أفلاطون في جمهوريته : « اذن فالمنهج « الجدلي » هو وحده الذي يمكنه أن يرتفع الى المبدأ الاول ذاته بعد أن ينبذ الفروض واحداً بعد الآخر كيما يضمن سلامة لنتائجه . وهو وحده القادر بحق على أن يخلص عين النفس من وهدة الجهل الفادح التي تردت فيها برفعها الى أعلى مستخدماً في هذا العمل ما عددناه من العلوم » (أفلاطون : المرجع المذكور ص ٢٧٣) .. ومن ثم فالجدل بالضرورة فلسفة حيث ان الجدل والفلسفة جوهرهما واحد ، تنمية العرضي ونزع القشور توصلا الى الجوهري ولب الأمور .. لكننا لا يجب أن نعتبر الوصول الى الجوهري والمبدأ مسألة من مسائل النظر فحسب ، بل هو مطلب عملي أيضاً : الوصول الى أن نحيا في حياتنا العملية حياة أفضل .. ومن ثم فهدف الجدل عند افلاطون مثلا هو الوصول الى مثال الخير لتقويم الحياة ... يقول : « ان العارف (بالجدل) عليه ان يتمكن من تمييز مثال الخير والتفرقة بينه وبين كل الصور الاخرى وعليه أن يعرف كيف يصمد أمام كل الاعتراضات وذلك بأن يحاول إقامة براهينه على ما هو موجود لا على ما هو ظاهر ويظل ظافراً إلى النهاية دون زلة واحدة . فان لم يفعل ذلك فلا أظنك تقول عن مثل هذا الشخص انه يعرف الخير في ذاته أو أي شيء آخر يتصف بالخير ، بل انه إنْ كان يدرك ظلا من الخير فما ذلك إلا بالظن لا بالعلم ، ولا تقول عن حياته إلا أنها حلم ومنام لن يتيقظ منه في هذا العالم بل سيهبط قبل ذلك الى العالم الأدنى حيث يدوم سباته الى الأبد » (أفلاطون ، المرجع المذكور ص ٢٧٤) .. ان الجدل عمل ، وإذا كان فيه جانب نظر فهو عمل أيضاً وربما كان هذا هو السبب الذي جعل سارتر « يميل الى استخدام مصطلحاته أكثر مما يميل إلى تعريفها ، وهذا يتمشى مع استراتيجيته الجدلية لأنه في كل

مستوى من العينية تتخذ مصطلحات سارتر دلالة جديدة ويضمن المصطلحات القديمة في منظور كتبات أوسع (لبنج وكوبر : العقل والعنف ص ١٠) وإذا كان الجدل عملاً فربما هذا هو الذي يجعل تعريف الجدل ليس جوهرياً حيث يجب اسقاط تعريف الجدل وتجاوزه إلى ممارسة .. بل لأن الجدل عمل ربما كان هذا هو الذي يجعل الجدل أقدم من المنطق ممارسة لا مجرد مصطلح ، بل إن شوبنهور يقول : « يبدو أن الجدل كلمة أقدم من المنطق » «ه» (شوبنهور : المرجع المذكور ص ٥) بل ان سارتر قد ربط بين الجدل والبراكسيس أو السلوك الفرضي الانساني فقال : « لا أستطيع أن أصف هنا الجدل الحقيقي للذاتي والموضوعي . وعلى الانسان أن يبين الضرورة المشتركة لـ (تبطين ما هو خارجي) ، و (السلوك الفرضي الانساني) هو في الواقع انتقال من الموضوعي الى الموضوعي من خلال عملية التبطين . والمشروع باعتباره التجاوز الذاتي للموضوعية نحو الموضوعية وباعتباره ممتداً بين الظروف الموضوعية البيئة والابنية الموضوعية لمجال الممكنات يمثل في ذاته الوحدة المتحركة للذاتية الموضوعية ، يمثل تلك المكونات الرئيسية للنشاط » (سارتر : مشكلة المنهج ص ٩٧) . ولان الجدل عمل فهو مشروع نحو المستقبل وهذا ما يجعل الزمن جدلياً ـ فالجدل كحركة للواقع ينحل اذا لم يكن الزمن جدلياً ـ أي اذا رفض الانسان المستقبل كمستقبل لعمل معين » (ليفنج وكوبر : المرجع المذكور ص ٩٤) . فالجدل وهو عمل هو اخراج الانسان من سباته وغفلته وهذا هام لكل الناس لكي يكونوا ثوريين .. وهو هام بصفة خاصة للسياسيين لان الجدل عمل .. وفي هذا يقول فوكلييه شارحاً جدل أفلاطون : « ان حدس المثل هو ضروري بصفة خاصة لرؤساء المدنيسة الذين لا تتوقف وظيفتهم حسب الافلاطونيـة فقط على التنظيم المادي للأمة بل أيضاً توجيه الافراد » (فوكلييه : المرجع المذكور ص ٢٧) .

فاذا كان الجدل عملاً فان الجدل علم وفن معاً . علم نظري يقود العمل ، وفن ممارسة هذا العلم بشكل خلاق مع اهتمام بجعل هذا الفن شغل الانسان الشاغل في الحياة .. ان الجدل علم من حيث أن هناك مجموعة من المبادىء تنتظمه ؛ والجدل فن من حيث أن هناك خلقاً في الممارسة . ثم ان العلاقة الجدلية بينهما محكومة بالظرف التاريخي والمستوى الحضاري ..

«ه» سوف أعرض لهذه القضية بالتفصيل في كتاب لي قادم بعنوان « تاريخ المنطق في العالم » حيث يجري تتبع الصراع بين المنطق الجدلي وجميع اشكال المنطق الاخرى مدللاً على اسبقية التفكير الجدلي على التفكير المنطقي . . .

لكننا لانريد ان نصل الى ما وصل اليه جارودي من ان قوانين الجدل هي كشف حساب مؤقت لأننا بهذا نكون قد خنّا الجدل وأفقدناه جوهره وهو البحث عن المبادىء والعلل الاولى .. فلأنه هو نفسه بحث عن المبادىء والعلل يجب أن تكون له من باب أولى مبادؤه وعلله الأولى . لقد انتهى جارودي الى . . « اذا نحن اعتبرنا عدداً من قوانين الجدل – وهي في الواقع وفي كل عصر كشف الحساب المؤقت دائماً لانتصارات العقلانية وهي بالتالي حقيقة مطلقة بوصفها كشفاً لانتصارات الماضي وحقيقة نسبية كطريق الى انتصارات مقبلة – اذا اعتبرنا هذه القوانين حقيقة مطلقة ومكتملة ثم أردنا أن نحكم على نظرية علمية ما بأنها صائبة او خاطئة ، حسبما تكون متوافقة أو غير متوافقة مع قوانين الجدل المعنية اذ ذاك (كما حدث مثلاً بشأن علم الحياة) فان هذه الصورة من الماركسية لا تمارس ابداً دورها التحريري القصب بل تصبح كابحاً دون البحث » (جارودي ، ماركسية القرن العشرين : ص ٧٤) .. وانّ للجدل مبادئه الأولية التي تثرى بثراء الحضارة وتنضاف اليها مبادىء جديدة .. ولكن هذه المبادىء لا تستمد بطريقة التجريب والمحاولة والخطأ كما ذهب كارل بوبر ، كما انها لا تتم بمعرفة تجريبية بعدية على نحو ما ذهب اليه شوبنهور عندما قال : « الجدل في معظمه يمكن ان يُشيَّد بعدياً posteriori اي اننا قد نتعلم قواعده بمعرفة تجريبية » (شوبنهور : فن المجادلة ص ٦) .. للعقل الجدلي مبادؤه الأولى مثل : « الفكر يكون جدلياً بشكل دائم اذا مال الى ان يتجاوز نفسه » (فولكييه : المرجع المذكور ص ١٢٥) اما شكل هذا التجاوز ومداه فهو محكوم عليه بفنية المجادل وتمكنه من فنه وتملكه لناصية المبادىء الجدلية ومحكوم بالظرف التاريخي وباستكشاف الجدلي لخصوصية التناقض في كل مجال كما ذهب ماوتسي تونج في دراسته « في التناقض » .. وعلى هذا يكون هناك ارتياض من جانب الجدلي لاستخدام هذه المبادىء وبهذا يكون الجدل صناعة على حد تعبير ابن سيناء وشرط الصناعة : الاستعداد والتجارب التي تحصل من الممارسة والقوانين الكلية التي تعتبر معايير يقيس بها الجدلي ثم خصوصية الموضوع المطروق وطواعيته او عدم طواعيته لامكان الاشتغال عليه جدلياً والأداة المستخدمة في الصناعة .

واذا كان جارودي قد أعطانا بيمينه الحرية في خلق مبادىء الجدل فانه عاد وسلبنا اياها بيسراه .. يقول : « دور العقل الجدلي في التاريخ هو نسبياً يسير التحديد ، ذلك ان التاريخ هو آخر الامر جماع ما فعله البشر ، وبالتالي يمكن أن نعثر فيه على الجدل الاولي ، جدل العمل » (جارودي : المرجع المذكور ص ٨٣ - ٨٤)

ان هذا موافقة على ان ماتم " ، تم " بجبرية لا دور فيها للفرد وابداعاته .. بل ان هذا متناقض مع ماقاله بعد ذلك وهو يحدد الخصائص العامة للمنطق الجدلي عندما قال : « ان المنطق الجدلي هو أولاً العقل في حالة التكون ... المنطق الجدلي هو فن طرح الاسئلة على الاقل بقدر ما هو طريقة لإعطاء الجواب عليها . . من خصائص المنطق الجدلي أن يربط بين عقل يرشد العمل دون أن يحتمه وبين عزيمة مسئولة عقلانية وحرة معاً تتخطى العقل المتقوم دون أن تحطمه .. المنطق الجدلي هو لحظة من البناء العقلاني للواقع أي أنه ليس تأملاً في نظام بل هو بناء لنظام . ولحظة السلبية فيه ، لحظة رفض النظام السابق المتقوم ، ورفض الانخداع بوهم وجود عالم مكتمل الصنع خارجاً عنا ومن دوننا هي لحظة جوهرية لأنها تلك التي بها يتأكد التوحيد المتنامي بين تاريخ الطبيعة وتاريخ الانسان ، بين ماهو عقلاني وما هو عملي » (جارودي : المرجع المذكور ص ٨٥ — ٨٦) واذا كان جارودي يخشى أن نصل الى الجمود مثلاً مثلما فعل ستالين بالجدل وقوانينه الاربعة (انظر ستالين : المادية الجدلية والتاريخية) وانجلز بقوانينه الثلاثة (انظر انجلز : جدل الطبيعة) فليس معنى هذا ان نصل الى العكس ونصبغ الجدل بصبغة تجريبية تفقد الجدل أنه البحث عن الاصول .

لقد حدث أن تساءل سارتر : « هل هناك تضام بين الحركة الجدلية الواقعية والتفسير الجدلي الذي نعطيه لها ؟ » (عن فيجيه ، الجدل والعلم الطبيعي ص ٢٥٦) ان هذا تساؤل بشكل اخر عن علاقة الجانب العلمي بالجانب الفني في الجدل .. ان هذا تساؤل بشكل اخر عن جدلية الجدل نفسه لأن الجدل نفسه اذا كان خلواً من الجدلية فقد الحرية ، وبالتالي فقد الثورية ، ومن ثم ينقلب على نفسه .. فأين نعثر بالجدلية داخل الجدل؟

الجواب كامن في فكرة الأنموذج : فسير الجادل ليس سيراً ذاتياً محضاً ، بل هو سير موضوعي يحتوي المثال أيضاً بالمعنى الذي نجده عند هيجل وأفلاطون وجارودي وسارتر وبعض فلاسفة الصين .. يقول روبرت توكر عن جدل هيجل : « ان هيجل يقصد بالجدل الأنموذج أو ميكانيزم التطور من خلال الصراع الباطني . وعلينا أن نتذكر أن " كانت " قد ذكر أن الحياة الخلقية للانسان تتركز في صراع باطني أو (جدل طبيعي) للواجب ضد الهوى . ان الفكرة الهيجلية للجدل هي تحول لفكرة كانت . انها تظل مفهوماً للصراع الباطني لكن النفس قد أصبحت الآن نفساً عالمية ، وان صراعها مع نفسها قد اصبح صراعاً يحتوي العالم » (توكر : الفلسفة والاسطورة عند كارل ماركس

ص ٥٧ ـ ٥٨) هاهنا تتجاوز جدلية الانسان الحدود الضيقة لها وتصبح جدلية العـالم كله .. وهذا ما أبرزه فونـج يو ـ لان في دراسته : « روح الفلسفة الصينية » : « أن تقف ضد عالم الأشكال والصفات وتنتقده بشرط ألا يكون مجرد جدال من أجل الجدال انما يتضمن أن الناقد لديه معرفة عن العالم يتجاوز العالم الذي يتجاوز الاشكال والصفات، ومن ثم لديه معيار لأغراض النقـد » (ص ٥٠) .. وفي هـذا المعنى جاء معنى الجدل السارتري « فالجـدل عند سارتر هو منهج لتأسيس تجربة العينية وتطوير خطاطية تصورية سديدة لمثل هذه التجربة معـاً » (لينج وكوبر : العقل والعنف ص ١٠) ويجعل جارودي الأنموذج حافظاً لجانبي الجدل : العـلم والفن : فكرة (الأنموذج) تتيح الاحتفاظ باللحظتين الجوهريتين في نظرية المعرفـة الماركسية : اللحظة المادية، لحظة الانعكاس ، التي تنجينا من الوهم المثـالي الهيجلي ، الذي يخلط بين اعادة بنـاء الواقع بالمفاهيم وبنائـه ، واللحظة الفاعلة لحظة البنـاء التي تنجينا من الوهم المعتقدي ذلك الذي يخلط بين هذا الأنموذج المؤقت وبين حقيقة مطلقة ومكتملة » (جارودي ماركسية القرن العشرين ص ٧٣) ان الأنموذج هو نفسه المبادىء التي تسعى الى تأسيسها، وهي مبادىء القيم أيضاً .. ونحن نعرف مثلاً أن «الجدل الأفلاطوني هو الفن الذي ترتفع به الروح .. إلى مثـال العالم المعقول » (فولكييه : الجدل ص ٢٠) واذا كانت هـذه المثل هي خاتمة المطاف في السير الجـدلي فانها في الوقت نفسه هي الأنموذج الذي يسير به هذا السير الجدلي .. فاذا جعلت الحيز الأقصى هو نقطة وصول السير الجدلي فهو نفسـه الأنموذج الذي بمقتضاه يحدث السير الجدلي نفسه .. ونحن نجد عند ابن رشد مثلاً : « ان نقطة النمو البشري العليا ليست سوى النقطة التي تبلـغ ملكات النفس عندها الى أقصى قوتها » (ارنست رينان : ابن رشد والرشدية : ص ١٥٦) .

فالجوهري في الجدل ليس خلـع ما هو عرضي فحسب والا وقعنا في السلبية بل هو ايضاً استبقاء لعملية الخلع كأنموذج وهذا هو الشيء الايجابي .. ومن ثم نستطيع ان نفهم مصطلح هيجـل Aufhabung الذي يحتوي المعنيين المتقابلـين : الخلـع والابقاء .. المحو والصحو .. إنّ مـا نخلعه هو العرض وما نستبقيه هو عملية الخلع نفسها.. إنّ ما نخلعه هو التحقق بالفعل وما نستبقيه هو عملية خلع هذا التحقق بالفعل أي استبقاء التحقق بالامكان مجدداً .. انّ ما نخلعه هو محتوى الحرية وما نستبقيه هو عملية خلع هذا المحتوى أي استبقاء شكل الحرية مجدّداً .. وهذا قريب من بعض ما قاله مفكرّو العرب .. فهنا نقد صريح لمبدأ عدم ارتفاع النقيضين لم يتورّع السجستاني

أن يصرّح به « نحن لم نجمع بين النقيضين فنقول إنه حي وليس بحي ، بل رفعنا النقيضين فقلنا (لا موصوف) و (لا لا موصوف) » (القول أورده ابن تيمية في العقيدة الأصفهانية ، انظر : علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام ص ١٢٠) .. إن فعل الخلع فعل استبقاء أيضاً ، ومن ثمّ نستطيع أن نفهم كيف أن الجزئي كلي أيضاً .. « لقد اكتشف كونج سن لونج ما يسمى في الفلسفة الغربية باسم (الكلي) والمصطلح الفعلي الذي يستخدمه هو Chih (ومعناه الحرفي « الأصبع » أو « السهم ») ... إنّ الـ Chih هو ما يدل عليه اسم من الأسماء ؛ اي من جهة ان ما يشير إليه الاسم هو جزئي ومن ثمّ قال كونج سن لونج .. (إن الاسم هو ما يشير إلى شيء فعلي) والشيء الفعلي جزئي ، ولكن من جهة أخرى إنّ ما يشير إليه الاسم هو كلي . مثلا ان اسم حصان يمكن أن يشير الى هذا أو ذاك من الأحصنة العينية،لكنه يمكن أن يشير أيضاً الى كلية الحصانية » (فونج يو لان : المرجع المذكور ص ٥٢ – ٥٣) .. مرة أخرى انّ ما يتم خلعه هو العرضي وما يتم استبقاؤه هو عملية الخلع نفسها.. ومن ثمّ فانّ عملية الخلع دائمة .. هي الشيء الدائم الوحيد في العملية الجدلية.. انها الدودة في ثمرة الوجود (انظر : سارتر ، الكينونة والعدم) .. هي المبدأ الأول .. هي اسقاط ثبات الأشياء .. هي الثورة ، فالثورة هي الاهتداء دوماً بعملية الخلع حيث لا قدامة الا بعملية الخلع نفسها .. هي المطلق .. وعند أفلاطون « المطلق هو نفسه يجب النظر اليه على أنه هذه الحركة نفسها للالغاء الذاتي؛ هذه هي المعرفة الفعلية الوحيدة والمعرفة بالمطلق » (هيجل ، محاضرات حول تاريخ الفلسفة حـ٢ ص ٥٢٧) وان « عملية نسخ المرحلة الماضية جوهرية في الجدل ... ولقد لخص ماركس – وان كان يتهكم – عملية النسخ المستمرة لكل قضية عند هيجل قائلاً : « ان الكيف منسوخاً يكافيء الكم ، والكم منسوخاً يكافيء المقياس ، والمقياس منسوخاً يكافيء الماهية ، والماهية منسوخة تكافيء الظاهر ، والظاهر منسوخاً يكافيء الوقائعية Facticity والوقائعية منسوخة تكافيء المفهوم Concept والمفهوم منسوخاً يكافيء الموضوعية والموضوعية منسوخة تكافيء الفكرة المطلقة ، والفكرة المطلقة منسوخة تكافيء الطبيعة والطبيعة منسوخة تكافيء العقل الذاتي ، والعقل الذاتي منسوخاً يكافيء العقل الموضوعي الأخلاقي ، والعقل الأخلاقي منسوخاً يكافيء الفن ، والفن منسوخاً يكافيء الدين ، والدين منسوخاً يكافيء المعرفة المطلقة » (عن « مجاهد عبد المنعم مجاهد » ثورة الجدل الهيجلي ص ١٣٨) ..

اذن الجوهري في الجـدل هو عملية النسخ ..عملية الخلع الدائمة .. وهي عملية لامتناهية .. انها هي الامكانيةالانسانية اللامتناهية ..انها هي الحرية اللامتناهية .. انها اللاتجاوز اللامتناهي .. هي السعي الى الوحدة اللامتناهية حيث أن عالم الواقع ممزق .. « ان وحدة العالم الذاتي والموضوعي ليست أمراً واقعاً،ليست شرطاً معطى ، بل ينبغي الوصول اليها من خلال الصراع بين شروط متعادية متنافية . وما ان يصبح هذا الصراع عالم الوجود الواعي ـ وبتعبير اخر ، لدى الكائن الانساني ـ حتى تصبح الصيرورة « الجدلية » هي الصيرورة التاريخية » « ماركيوز : الماركسية السوفياتية ص ١١٥» وهكذا فان نفي النفي ليس الاعملية الخلع لا محتوى الخلع .. انه عملية المحو لامحتوى المحو ومن ثم تبقى عملية المحو في الصحو .. وهذه العملية مستمرة ومن ثم نفهم ان الجدل تاريخي بقدر ما ان التاريخ جدلي .. والتاريخية التي في الجدل استمرارية عملية النفي..» ولقد تحدث هيجل عن الجدل باعتباره (جدل التناهي الذي يضطر التناهي..وراء وجوده المباشر او الطبيعي أن يستدير فجأة الى ضده) » (توكر . . المرجع المذكور ص ٥٨) وما جدل التناهي الا « دينامية تضخم ذاتي نحو اللامتناهي » (المراجع نفسه ص ١٤١) وقد شرح هذه القضية عند هيجل الدارس سول في دراسته .. مدخل الى ميتافيزيقا هيجل » فقال « ان التناهي كمقولة ما عند هيجل قائم في استبعادها ومن ثم تحدد بمقولة معارضة ،ومحو الطابع الطردي بالتبادل للمقولات عن طريق الجدل هو ايضاً محو" لتناهيها . وهكذا فان الجدل على الأقـل في جانب منه هو منهج فلسفي موجه الى المأزق الذي تطرحه ضرورة استخدام المقولات المتناهية الخـاصة بالفهم لاستيعاب الواقـع اللامتنا هي للميتافيزيقا . . والجدل يحل هذا المأذق باستبقاء هذه المقولات على حين يمحو تناهيها» . (ص ١٤٠) ولقد قـال هيجل : « في استيعاب الأيجابي في السلبي تتألف المعرفة (التأملية) . هذا هو أهم جانب في الجدل » (هيجل علم المنطق ، الجزء الاول ص ٦٧) و « يؤكد هيجل ان نفي النفي ليس (حياداً) بل هو بالأحرى (اثبات) . وهذا يعني أن العملية الجدلية بالرغم من انهـا هدامة بشكل مباشر في التكوين ، هي بناءة في النتيجة » (توكر : المراجع المذكورة ص ٥٩).. ان ادراك التناهي وعي تعس . والسعادة هي قهر هـذا التناهي . . قهر الوعي التعس .. و « الجـدل هو الوعي في شقائه ، في المسافة المعاودة للظهور دوماً من الاشياء ومن نفسها ؛ لكن مصيرة كما تبين هيجل ربما هو في أن يجعل سعادتنا تتم من

هذا الوعي الشقي" عندماندرك حرمات العقل كتعبير عن تكثر الأشياء والعكاس حركاتها» (جان فال : درب الفيلسوف ص ٣١٨) .

ولكن قد يقال اننا حتى الآن قد ركزنا على تعريف الجدل مع ان تعريف الجدل ليس هو الشيء الجوهري فيه ، وأن الجوهري فيه مهمته . لكن فلنتذكر أيضاً أن هيجل قال ان اللاجوهري هو ايضاً جزء من الجوهري حيث أننا نقوم بخلعه وصولاً الى الجوهري .. ومن هنا فان تعريف الجدل جوهري لفهم جوهر الجدل ، لفهم مهمته.. لكن التعريف أيضاً لاجوهري لأنه ليس الا لحظة عابرة في عملية الجدل .. عملية رفع للتعريف وخلع له وتجاوزه الى مهمة الجدل .. ومن ثم نجد أن تعريف الجدل مسألة تاريخية حيث أنه يغتني ليخصب مهمة الجدل ويضيف لها أبعاداً جديدة باعتبارها المسألة الجوهرية في الجدل ..

فاذا كان الامر هكذا ، فانه يحق لنا الآن ان نسأل : ماهي المسيرة الجدلية ؟ من أين تنبع وما دربها والى أين تصب ؟ .. يبدأ الجدل مما هو شائع لدى الناس جميعاً. يبدأ من تلك المعرفة التي هي والجهل سواء لأنها معرفة ناجمة عن الاتصال المباشر بالأشياء .. إنه يبدأ من الواقع بعبثه . بما فيه من وهم وكذب ونفاق ، بما فيه من احكام مبتسرة ، بما فيه من أخطاء ومصالح .. ان المسيرة الجدلية تبدأ من عبث الواقع بلغة الحياة أو من الوجود ككل بلغة الفلسفة .. واذا كانت معرفة الواقع بعبثه أشبه بعدم معرفته فهذا أشبه بأن الوجود ككل هو والعدم سواء . فالجدل الذي هو حرية ، والحرية استنارة ، يبدأ بالاشتغال على أرضية بلا استنارة .. يبدأ بلا حرية مفروضة على الانسان .. ومن ثم يبدأ التساؤل عن صدق هذا الواقع . يبدأ بالتشكك في الحساسية الفجة .. وبفعل السلب هذا تتولد الحرية .. ويبدأ سير الجدل ، الذي هو سير الحرية .. فعندما يبدأ التساؤل يتسلل العدم في الوجود على نحو ما قاله سارتر في « الكينونة والعدم » .. من الممكن — خلال التساؤل — أن يسقط الوجود في هوة العدم .. والعدم يكون قوة محركة . . فالتساؤل جوهره سلب . و « السلب عند هيجل يصبح عنصراً إيجابياً ، انه يصبح القوة المحركة التي تؤكد نفسها على شكل تعارض ونقد ضد كل شيء يسعى الى ان يثبت في ذاتيته » (كورنو : أصول الفكر الماركسي ص ٤٤) .. ان ما نحب ان نؤكده هنا هو أن الجدل ليس كالبرهان ينطلق من النقاء الفكري والواقعي .. ان البرهان ينطلق من مقدمات يقينية على حين ان الجدل ينطلق

من مقدمات ظنية .. ومن هنا ينطلق الجدل من مصادمات ، ذلك أن النـاس ليسوا جميعاً على حق ، فيهم المكار والمخادع ومفتعل المكر والخداع ، وفيهـم الذي يستخدم عقله ، والذي يستخدم عقله ضـد عقـله « ولو لم تكن الطبيعة الانسانيـة وضيعة ، ولو كانت مشرّفة تماماً ، لما كان ينبغي في كل جدال ألا يكون لنـا غرض سوى اكتشاف الحقيقة » (شوبنهور : المرجع المذكور ص٧) ..! اذن فالجدل لا يتجنب الخطأ بل يعلم المخطيء كيف يخرج من خطئه .. انه يعلم فعل النقاء الثوري لا يتجنب الخطأ بل بكيفية الخروج منه .. ولقد حذّرنا هيجل : « انّ أشدّ شيء ضار هو (محاولة ابقاء المرء بعيداً عن الاخطاء) » (عن كوفمان : هيجل : اعادة تفسـير ص١٥٧) ومن هنا ينتفي عن جدل هيجل ما قاله ماركيوز : « ان جدل هيجل يظل داخل الاطار الذي يقيمه مبدأ الواقع القائم » (ماركيوز : العشق والحضارة ص ١١٧) بل إنّ « جوته لم يكن قريباً من الروح من جـدل كتاب (الفينومينولوجيا) فحسب ، بل هناك احتمال في انه أثّر فيـه بشكل عميق عندما كتب في « فلهلم ميستر » ، (ليس واجب مربيّ الناس هو تجنيبهم الخطأ ، بـل إرشاد الخاطيء حتى تركه يتجرع خطأه حتى الثمالة من القناجين الممتلئة حتى حافتها ـ هذه هي حكمة الدارسين) » (كوفمان: المرجع المذكور ص ١٥٦) ويلاحظ عن ابيلار ان الجدل « كان عنده — من جهة — علم التمييز بين المجادلات الصادقة وغير الصادقة وكان من جهـة اخرى اكتشاف طريق للمجادلات نفسها من أجل الانسان » (جرين : بيتر أبيلار ص ٤٠) .

وإذا كان سيْر الجدل هو توصل الى المباديء ـ وليس هنا مكان تفاصيل هـذا السيْر — فانّ هناك سيْراً آخر مطلوباً وهو الهبوط من المباديء الى عالم الواقع على نحو مافعله أفلاطون ، تاركاً الحرية في بداية المسيرة الجدلية وفي نهايتها « فلم تجر البرهنة على أن الهبوط من الخير الى الأجناس الأدنى مستمر ؛ فمن الممكن أن يكون هناك انقطاع بين الخير والماهيات الأقصى المستمدة منه ، وهناك يبدو وجود انقطاع أيضاً بين الأجناس الأدنى والأفراد .وهكذا ،يبدو أنّ هناك انقطاعين : واحداً في بداية السلم الجدلي وواحداً في نهايته ؛ ويمكننا أن نقول : انّ هذين الانقطاعين يضمنان حرية في العملية الجدليـة » (جان فال : درب الفيلسوف ص ٣١٣) وقد ركّز جان فال على هذا الطريق الجدلي المقطوع جيئة وذهابا ، « الجدل هو طريق ، طريق يُقطع مرة أخرى جيئةً وذهاباً ويتكوّن ـ إذا استعرنا تعبيراً من عنـد داماسقيوس ـ عن طريق تمزيق الفروض والأفكار »(المرجع نفسه ص٣١٦ - ٣١٧) .. وعندمايقطع الانسان هذا الدرب جيئة

وذهاباً فان نفسه تضطرب » وعلى ذلك فان المرء إذا مارأى نفساً مضطربة عاجزةعن تأمل شيء ما فان من الواجب قبل أن يسخر بلاتفكير أن يتساءل إن كانت تلك النفس قد اضطرب أبصارها لأنها أتت من حياةٍ نورها أبهر ولم تعتد الظلمة بعد ، أم أنها أتت من ظلمات الجهل إلى النور فبهرها الضوء الوهاج ففي الحالة الأولى ينبغي أن نغبطها على حالتها وعلى حياتها السعيدة ، أما في الحالة الثانية فينبغي أن نرثي لها » (أفلاطون : الجمهورية ص ٢٥١) .

فاذا ما بدأ الجدل في هدم الاصنام بحكم أن رسالته هي هدم المتناهيات فان عليه أن يسير الى المواقف الحدية وهو مثل رجل المنطق «لايجب أن يتحلى بالصرامة المنطقية فحسب ، بل يجب أن يتحلى بالقوة أيضاً » (فولكييه : الجدل ص ١٢٤) ..

إن رسالته قائمة في اسقاط التوسطات ، اسقاط التدين (أي اسقاط طقوس الدين لا الدين نفسه حيث أن التدين إضفاء للطابع الطقوسي على الدين وهو ما جاء الدين لهدمه) بين الانسان والله ، اسقاط الجهاز البيروقراطي بين الفرد والانسانية ، اسقاط التكالب المادي بين الانسان والروحانية ، اسقاط القومية الضيقة الافق بين الفرد والاشتراكية الانسانية ، فالجدل الحق هو خالق « المواطن ــ العالم » .. الجدل الحق هو الذي لايفكر في نفسه فقط ولا في بلده فحسب بل هو بالوصف الذي وصف به تروتسكي زميله لينين: « إنه يفكر (على صعيد القارات والحقب التاريخية) » (تروتسكي : الثورة الدائمة ص ٣٣) .. وبهذا يمكن خلق الانسان الثوري ، والانسان الثوري بتعريف اريك فروم « هو الانسان الذي يقهر تديته تجاه السلطة لانه يحرر نفسه من التعلق بالسلطة ومن الرغبة في السيطرة على الآخرين . وهو يحقق استقلالاً حقيقياً وهو يقهر التشوق الى السيطرة على الآخرين : (إريك فروم فرويد ص ٨٥) .

فما هي الأداة التي يستعين بها الجدل على أداء مسيرته ؟ إنها العقل . . والعقل هو ذاتية الانسان الحقيقية وإن « لوكاتش يذهب الى أنه لا يوجد جدل بدون ذاتية ، بدون قوة للروح قادرة على التفشي »(بلانتي ــ بونجور : مقولات المادية الجدلية ص ٣ــ٤). ولما كانت مسيرة الجدل تكشف الامكانيات الباطنية فانه لا يستطيع أن يستعين بأداة من خارجه ، ومن ثم فان العقل جزء منه ، ومن هنا فان العقل بطبعه جدلي . . . « وإذن فها نحن أولاء قد وصلنا يا جلوكون الى اللحن الرئيسي للديالكتيك . وعلى الرغم من أن الديالكتيك أمر عقلي محض ، فان سيره يماثل سير ملكة الابصار في السجين المتحرر

كما وصفناه في تشبيهنا . فعندما وصل الى مرحلة التطلع الى الكائنات الحية خارج الكهف ثم الى النجوم وأخيراً الى الشمس ذاتها بلغ أعلى الأهداف في العالم المنظور . كذلك يصل المرء الى قمة العالم المعقول بالديالكتيك عندما يكف عن الالتجاء الى اية حاسة من حواسه ويبلغ بالعقل وحده ماهية كل شيء ولا يكف عن سعيه حتى يدرك بالفكر ماهية الخير » (أفلاطون : الجمهورية ص ٢٧١ — ٢٧٢) ... ولما كان الجدل علماً وفناً معاً ، فان العقل منفعل وفعال معاً . . ان العقل نفسه في دور التكوّن الجدلي . . وكما قال ابن باجة : « العقل الانساني يصل الى كماله بالمعرفة العقلية لا بالخيالات والأحلام الصوفيــة الدينيــة التي لا تبرأ من شوائب الحس » (عن دي بور : تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٨٤) .

واذا كان العقــل أداة فهو في الوقت نفسه ذروة المسعى الجدلي .. ولقد كان ابن رشد « يكرر بلا انقطاع أن العقل الفعال لا يختلف عن المعرفة التي لدينا عن الكون وأنّ خلود العقل يعني خلود الجنس البشري » (عن رينان : المرجع المذكور ص ١٤٩) .. بــل لقد تحدّث ابن رشد عن صيرورة العقــل وأنه في دور التكوّن ، فقد اضطرّ الى الاعتراف بأنّ العقل « ليس سوى امكان ، ليس سوى نزوع الى الصيرورة مشترك بين جميع الناس بجوهره ولكن مع تنوّعه بالعرض » (المرجع نفسه ص ١٥١) ونحن نجــد أن ابن باجه يتساءل : « ولكن كيف يبلغ الانسان هذه المرتبة في المعرفة والحياة السعيدة؟ هل يبلغها بالافعال الصادرة عن الرويّة ، وبتنمية العقل تنمية حرة خالصة من القيود. والفعل الحر الاختياري هــو الذي يصدر بعد الفكر والرويّة - أي هو فعل يشعر فاعــله بغاية يقصدها منه » (عن دي بور ، تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ٢٨٥) .. ومعنى هذا أننا سنصل الى العقل الكامل في نهاية الزمان .. فاذا كان الحديث الشريف يقول : « أول ما خلق الله العقل » فانه أيضاً آخر شيء سيموت .. انّ العقل هو ما ليس بعد .. الجدل هو ما لم يتحقق بعد .. انه الوجوب الذي يجب أن يتحقق و « الفكر الجدلي يفهم التوتر النقدي بين (الكينونة) و (الوجوب) أولاً كشرط أنطولوجي يخص نسيج الكينونة نفسها » (ماركيوز : الانسان ذو البعد الواحد ص ٣٣) وساعتها سيكون الانسان الكامل قد خُلق ، ويتم اكتمال انسان الشمول ويتحقق الانسان المطلق.. يتحقق الانســان المطلق الذي حدثنا عنه جابر بن حيان وكيف أنه « يشتمل العقل والنفس والطبيعة والكواكب وما اشبهها كأنّه كون كامل » (عن عبد الرحمن بدوي :

الانسانية والوجودية في الفكر العربي ص٤٨ - ٤٩) يتحقق الانسان الشامل الذي حثنا عنه لوكاتش الذي يجتمع فيه النظر والعمل ويدرك ترابط الأشياء وحركتها الباطنية مستشرفاً المستقبل .. ذلك أن « (الشمولية) هي أرض الجدل » (جورج لوكاتش : التكنولوجيا والعلاقات الاجتماعية ص٣٢) وبهذا يكون جدل لوكاتش وجدل هيجل واحداً « وهذا الجدل الذي يصعب للغاية تعريفه ليس جدلاً بالمعنى الذي يقصد اليه الفلاسفة من أفلاطون الى كانت ، بل هو منهج لاستيعاب الحياة الانسانية في جوانبها العينية . ان الجدل الهيجلي يأمل ان يكون جدلاً فلسفياً وعينياً » (هيبوليت: دراسات حول ماركس وهيجل ص٧٥) . وهذا الاستيعاب .. هذه الشمولية .. هي تكشيف لامكانيات الفرد والجماعة باستشراف حركة المجتمع والتاريخ .. وهكذا نجد أن لوكاتش « عندما يتحدث عن الوعي الذاتي للبروليتاريا، عن وعيها الطبقي ، فانه يتحدث عما يسميه (الامكانية الموضوعية) . إنّ الوعي الطبقي في رأيه ليس محصلة أو حتى متوسط لما يفكر ويشعر به الخ .. الاعضاء الافراد لطبقة ما ؛ انه ما يمكن أن يفعلوه في موقف ذي طابع خاص ، اذا كان عليهم أن يلتقطوا هـذا الموقف على نحو سليم . والمواقف موضع النظر هي تلك المواقف التي تتحدد طبيعتها الجوهرية بوضع الناس في عملية الانتاج ؛ وانّ رد الفعل العقلاني الملائم لأيّ من مثل هذه المواقف هو الوعي الطبقي ومن ثم فانّ تسمية البروليتاريا بأنها الهويّة بين الذات والموضوع ليس يعني أنها استحوذت على الحقيقة كلها عن المجتمع ، بل بالاحرى انها ، وهي وحدها ، قادرة على التقاط تلك الحقيقة » . (باركنسون « مشرفاً » . جورج لوكاتش الرجل وعمله وأفكاره ص ١١) . . . ويتحقق الانسان الكامل الذي حدثنا عنه عبدالكريم بن ابراهيم الجيلاني ذلك الانسان الذي « يستحق الأسماء الذاتية والصفات الالهية » الجيلاني : الانسان الكامل في معرفة الاواخر والأوائل، الجزء الثاني ص ٤٨ » و « الانسان الكامل أيضاً مرآة الحق فان الحق تعالى أوجب على نفسه أن لاترى أسماؤه وصفاته إلا في الانسان الكامل . وهذا معنى قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً » (المرجع السابق : ص ٤٨) . . وهذا الانسان لديه حسّ صادق بمواجهة الأشياء بما يناسبها لا أن يلبس لكل حال لباسها بل أن يواجهها مواجهة موضوعية «فيقابل الحقائق العلوية بلطافته،ويقابل الحقائق السفلية بكثافته.. ثم يقابل الجوهر بهويته وهي ذاته ويقابل العرض بوصفه » (المرجع نفسه ص ٤٧)

ولكي يكون هناك سير نحو تحقيق هذا الانسان الكامل ، على الانسان أن يدرك أن استيعاب الجدل هو نفسه فعل من أفعال الحرية شأن جوهر الجدل نفسه . . يقول لينج وكوبر شرحاً لجدل سارتر : « ان استيعاب الجدل عليه أن يكون هو نفسه لحظة في السلوك الغرضي الانساني الجدلي » (العقل والعنف ص ١٤٧) وبهذا يمكن للانسان أن يكتسب القنّنية الجدلية على حد قول ابن سينا وبهذا الكسب يكون الحق في جانبه ، يكون الحق معه وينطبق عليه مايقوله أتباع موتزو Molzo : «في الجدل ..الذي على حق يكسب » (عن كريل : الفكر الصيني ص ٧٨)

ولكي تكتمل رسالة الجدل عليه أن يدرك أن الكشف عن الجوهري هو جوهر الجدل ، ولما كان الجوهري في الجدل هو استخدامه فان رسالة الجدل الجوهرية هي أن يلغي الجدل ويصبح هو والجدل شيئاً واحداً .. يصبح هو الممارسة الجدلية .. واذا كان الجدل هو علم جبر الثورة ، وكان جوهر الجدل هو الثورة، فان اقصى شيء يمارسه الجدل هو أن يلغي الجبر ابقاء على الثورية (١) . فاذا حدث هذا فانه سيمكن مخاطبته كما خوطب السهروردي المقتول « يا سيد الوقت لأنه سيكون قد انتقل من ثورة الجدل الى جدل الثورة .. وبهذا الفعل الانقلابي سيتمكن من خلق الجديد ، ادراكاً بأن جوهر الامور هو عملية الخلق المستمرة وأنه لا ثبات للاشياء مطلقاً بما في ذلك الجديد . وخلق الجديد هو دائماً موت للقديم ، بل موته حتى في الذاكرة كما يقول بول تيليش . . فمتى يأتي هذا الجديد ؟ : « ان الجديد في التاريخ يأتي دوماً عندما لا يعود الناس يؤمنون به . لكن من المؤكد أنه لا يأتي إلا في اللحظة التي يصبح فيها القديم مشاهداً على (انه) قديم ومأساوي وفي حالة الموت .. ان الشيء الأول عن الجديد هو اننا لا نستطيع أن نرغمه ، ان نحصيه .. كل ما نستطيع هو ان نستعد له »(انظر : مجاهد عبد المنعم مجاهد : الوجودية الدينية وتحديات العصر ص ٤٢ – ٤٣) والجدلي الثوري ثوري في كل المسائل لا في مسائل الثورة وحدها بل حتى في كل فعل من أفعال

---

(١) لعل أكبر مفكر جدلي وهو هيجل أدرك هذا فلم يخصص كتاباً واحداً للجدل ، وانما كان يفكر بطريقة جدلية .. وهذا ماسوف نبينه بالتفصيل في الجزء الخاص بجدل هيجل في كتابنا الذي نعده الآن بعنوان : « هيجل وقلاع الحرية » الجزء الثامن : قلعة الجدل .

حياته اليومية » . انه يحدث انقلاباً في مفاهيمه وسلوكه بوعيه الذي هو اشبه بالدودة في قلب الوجود . . وبهذا الفعل الانقلابي يمكنه أن يقول لكل منا ماقاله متصوف العصور الوسطى ايكهارت : « انك لا تستطيع أن ترى الا بفقدان النظر ، ولا أن تعرف الا بعدم المعرفة ولا أن تفهم الا بالضلال » .

المراجع

١ – ابن سينا : الشفاء ـ المنطق ـ الجدل
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٥

٢ – أفلاطون : جمهورية أفلاطون « ترجمة : فؤاد زكريا »
دار الكاتب العربي ـ القاهرة .

٣ – بور « ت. ج. دى » : تاريخ الفلسفة في الاسلام « ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة » لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٥٤

٤ – تروتسكي « ليون » : الثورة الدائمة « ترجمة : بشار أبو سمرا »
دار الطليعة ـ بيروت ـ ١٩٦٥

٥ – التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون « جزء أول »
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٣

٦ – جارودى « روجيه » : ماركسية القرن العشرين « ترجمة : نزيه الحكيم »
دار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٦٧

٧ – رينان « ارنست » : ابن رشد والرشدية « ترجمة : عادل زعيتر »
دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ ١٩٥٧

٨ – عبد الرحمن بدوي : الانسانية والوجودية في الفكر العربي
النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٤٧

٩ – عبد الكريم الجيلاني: الانسان الكامل في معرفة الأواخر والاوائل «جزءان»
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ـ مصر

١٠ – علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام
دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٧

١١ – فروم « اريك » : فرويد « ترجمة ، مجاهد عبد المنعم مجاهد »
المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت

١٢ – فروم « اريك » : فن الحب « ترجمة ، مجاهد عبد المنعم مجاهد »
دار العودة – بيروت

١٣ – كورنو « اوجست » : أصول الفكر الماركسي « ترجمة : مجاهد عبد المنعم مجاهد » الآداب – بيروت – ١٩٦٨

١٤ – ماركيوز « هربرت » : العقل والثورة . هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية « ترجمة : فؤاد زكريا »
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – القاهرة – ١٩٧٠

١٥ – ماركيوز « هربرت » : الماركسية السوفياتية « ترجمة : جورج طرابيشي »
دار الطليعة – بيروت – ١٩٦٥

١٦ – مجاهد عبد المنعم مجاهد : ثورة الجدل الهيجلي
مجلة الهلال – اكتوبر ١٩٦٨

١٧ – مجاهد عبد المنعم مجاهد : جورج لوكاتش ناقداً وحالماً وشهيداً
مجلة الكاتب – سبتمبر ١٩٧١

١٨ – مجاهد عبد المنعم مجاهد : هربرت ماركيوز . من ديالكتيك اللغة الى لغة الديالكتيك مجلة الفكر المعاصر – اكتوبر – ١٩٧١

١٩ – مجاهد عبد المنعم مجاهد الوجودية الدينية وتحديات العصر
الفكر المعاصر – يونيو ١٩٦٩

٢٠ – معجم ألفاظ القرآن الكريم « الجزء الاول »
الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – ١٩٧٠

21 — Aristottle : Works (V o. I . I)
Oford — 1937

22 — Creel , H . G . = Chinese Thought
Methuen — London — 1962

23 — Engels , F . Dialectics ofnature
Foreign Languages pubishing House-Moscow - 1954

24 — Foulguie , P . La Dialectique
Press universitaires De France - paris - 1953

25 — Fung yu - Lan : The Spirit of Chinese Philosophy
Routledge Kegan paul — London — 1962

26 — Grane , L . Peter Abelard
George Allen unwin — London — 1970

27 — Hegel , 6 . W . F . Lectures On The History of Philosophy (3 Vols .)
Routledge And Kegan paul — London — 1955

28 — Hegel , G . W . F : Science of Logic (Vol . I)
George Allen unwin — London — 1951

29 — Heidegger , M : Existence And Being
Vision — 1948

30 — Herzen , A : Selected philosophical Works
Foreign Languages publishing House
Moscow — 1956

31 — Hyppolite , y . : Studies On Marx Hegel .
Heinemann — London — 1969 .

32 — Kamenka , E . The Philosophy of Ludwig Feuerbach,
Routledge Kegan Paul — London —1970 .

33 — Kay fmann, W : Hegel .A Reinterpret ation .
Anchor Books — N . Y — 1966 .

34 — Laing , R .D .x Cooper, .D.G: Reason And Violence.
Tovisto ck Publictations — London — 1971 .

35 — Lukacs, G . : Thecknology And.Social Relations .
New Left Review — No 39 Sep . loct . 1966 .

36 — Marcuse, H . : Eros And Civilization .
Routledge And Kegan Paul — London .

37 — Marcuse, H : Liberation From The Aff luent Society .
(In : Copper, D . (Ed .) : The Dialectics of Libenation)
Penguin — London — 1971 .

38 — Marcuse, H. : One Dimensional Man .
Beacon Press — Boston — 1966 .

39 — Marx, K . Engels, F. : The German Ideology .
Progress Publishers — Moscow — 1964 .

40 — Parkinson, G.H.R . (Ed) : Georg Lukacs . The Man, His work His Ideas .
Weidenfeld Nicolson London 1970 .

41 — Planty — Bonjour , G : The Categories of Dialectial Materid lism .
D . Reidel Publishing ComPany — Dordrect - 1967

42 — Popper, K.R.: Conjectures And Refutations
Routledge And kegan paul - London - 1969

43 — Sartre, y . P : Being And Nothingness
Methuen - London - 1957 .

44 — Santre, y.p The Problem of Method .
Methuen — London — 1963 .

45 — Schopenhauer , A : The Art of Conthoversy
(Jn : Essags)
George Allen unwin — London — 1951

46 — Soll I : An Introduction to Hegel , S Metaphysics
The Universitg of Chicago — 1969
47 — Stalin , Y : Diulectical And Historical
Materialism (In : problems of Leninism)
Foreign Language S publishing House
Moscow — 1953
48 — Tucker , R : Philosophy And Myth In Karl Marx
Cambivdge Univer sitg press — 1964
49 — Vigier, y.P.: Didlecti cs and Natural Science .
(Jn. : Existentialism Versus Makxism, Ed . :
Novak, G .
Delta Book — N.Y . — 1966 .
50 — Wahl, y . : The Philosopher's Way .
Oford University Press — 1948 .

مدينة المقطم — مجاهد عبد المنعم مجاهد

٢٠ تشرين الاول ١٩٧٢

يالعار بعض الكتاب ...!

يؤسفنا – ولا يفجؤنا .. – أن نطالع على صفحات بعض الجرائد والمجلات الغربية ، في هذه الأيام بالذات حيث يمر الصراع الجبار القائم بين الأمة العربية ، وفي طليعتها الشعب الفلسطيني ، وبين الكيان الصهيوني المفروض بالحديد والنار ، بمنعرج حاسم ، مقالات وتعليقات مغرضة ، ينحو فيها أصحابها منحى الانحياز وحتى التعصب ، ويذهبون مذاهب تكشف عن جهلهم أو سخافتهم وتورطهم – أحبوا أم كرهوا – مع قوى الظلم والعدوان .

ولئن تعودنا من بعض الأدباء والفنانين والصحفيين الصهاينة ، أو الموصومين بخدمتهم ركاب اسرائيل ، مواقفهم العدوانية وملت أسماعنا شنشنتهم فلم نعد نقيم لترهاتهم وزنا ، إلا ما نخشاه من وساوسهم على ناشئتنا المولعة بفنهم والتاجهم ، فان الذي لا نستسيغه هو أن تسف صحفية محترمة مثل فرانسواز جيرو فتكيل للعرب وبعض رؤسائهم من الشتائم وضروب السخرية ما ينبو عنه الذوق ويتعارض مع ما عرفت به مديرة «الاكسبرس» من تقدمية ونصرة الشعوب المكافحة ضد العنصرية والاستعمار ، كما لا نستسيغ مواقف كاتب معروف مثل « تيارى مولنيي » الذي لم يهضم شن العرب معركتهم الحاسمة على جبهة النفط ، وتصرفهم في ثرواتهم بما تمليه عليهم مصلحتهم وكرامتهم ، محرما عليهم ما حلله للدول الكبرى التي طالما تحكمت في موارد العالم الثالث ولا تزال .

بل ان عالما جليلا مثل « لوي لوبرانس رنقي » تورط هو الآخر وانبرى يتهجم على « ملوك الصحراء » ويزدري إله المسلمين ويتظاهر بحمده اياه لان حرمان اوروبا من النفط من شأنه – في نظره – أن يقرب بين الأجيال ويحمل الشبان على الاقتصاد والانضباط مثلما كان يفعل آباؤهم ، ولسان حاله يقول : وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم . (راجع مقاله بجريدة لوفيغارو المؤرخ في ١٥ نوفمبر المنصرم بعنوان : نعمة من الله ! un Bienfait d'Allah) .

أما ج . ب . سارتر وصديقته سيمون دي بوفوار فانهما لا يزالان على مذهب الذبذبة ، بل انهما في الواقع اشد مناصرة لاسرائيل وأمتن تضامنا معها ، رغم انهما شاهدا آلام الفلسطينيين عندما زارا قطاع غزة ومخيمات اللاجئين في مارس ١٩٦٧

وعبرا عن تأثرهما للمنزلة الفظيعة التي وجدا عليها – آنذاك – الاف المشردين الصامدين لاسترجاع وطنهم السليب وفرض حقهم في الحياة . وما ان اندلعت حرب جوان ١٩٦٧ حتى وقفا موقفاً معادياً للعرب هما ورفيقتها في مجلة « الأزمنة الحديثة » كلود لانزمان الذي صرح اثناء حرب الأيام الستة انه فرنسي الجنسية والتربية – لامحالة – ولكنه يهودي ويعتقد انه لو زالت اسرائيل من الوجود لأصبح يشعر بنفسه كأنه عار تماماً !

وانضم هذه المرة الى انصار اسرائيل مؤلف مسرحي مشهور هو « اوجين ايونسكو » ، ويعرفه المولعون بالمسرح الطلائعي بأنه احد متزعمي نظرية انسحاق الانسان وعزلته في عالم مصطنع وشعوره بعبثية الوجودواستحالة التوصيل او التبليغ la communication ورغم تشاؤمه في هذه الحياة المقلقة ، وركونه الى الرمز في مسرحياته العديدة فانه – هو ايضاً – يؤكد – في وضوح هذه المرة – على ضرورة وجود اسرائيل باسم تعايش الاديان وحرية المعتقد اولا ، كان المسلمين واليهود والنصارى لم يتعايشوا من قبل ، وكأن الصهيونيين لم يحرقوا المساجد ويعتدوا على الحرمات ، وثانياً لتبقى اسرائيل شاهداً ونموذجاً لما يجب أن تكون عليه دولة ديمقراطية حرة !! مشيراً بذلك الى ان الدول العربية ترزح تحت الطغيان ! وهو بعد ذلك يعلن انه لم يفهم لماذا لم يهضم العرب وجود دولة يهودية مادام مطمح اليهود الأخير هو خدمة الارض واخصابها وكأني به لم يدرك الى اليوم لماذا تحررت شعوب شمال افريقيا مثلا واجلوا عن اراضيهم المعمرين ! ومن الحمرة مايعبر عن حنين دفين الى بعض العهود الغابرة !!

ويذرف « إيونسكو » دموع التماسيح على ما أصاب الشرق العربي عندما اضاع الروحانيات والتقاليد الأصلية وتشبه بالغرب الذي استعمره ! وهو تناقض غريب من رجل يريد ان نتمدن وان نحيا حياة الديمقراطية على منوال الغرب ثم يأسف عندما يلاحظ ان الشرق تغرب وخرج من جلده ولعله يقصد التأثر بالمذاهب الفلسفية التي يعتبرها هدامة مثل الماركسية . اذ يقول : ان الغرب قد ربح الجولة فهو اذن الخاسر !.

والأغرب من ذلك ان ايونسكو يتألم مما يصيب الشباب في بعض البلدان مثل السويد من قلق وما يعتريهم من يأس وما يميلون اليه من رغبة في الانتحار بسبب تضاؤل الايمان وصمت السماء وهو من الادباء الذين اغرقوا في وصف عبث الوجود ولا تكاد تجد نسمة منعشة من نسمات الانسانية في مسرحياته .

وانما اذ نحترم هؤلاء المفكرين لما قدموه من الآثار وما بلغوه من شأو في عالم الفكر فانه لا يمكن أن نسكت عن انحيازهم وتعصبهم وترهاتهم وتناقضاتهم عندما ينتصبون ضميراً العالم ، وقادة الفكر ، يصدرون الأحكام ، ويستغلون رصيدهم الأدبي وشهرتهم الفنية لاستبلاه الرأي العام ودس السم في الدسم ، بينما الأمانة العلميـة وحرمة الفكر والموضوعية تقتضي منهم الأناة والعدل والتخلص من براثن الدعاة الصهيونية التي تعترف لها بالبراعة والدهاء .

واذا كان سارتر مصاباً ، هو وسيمون دي بوفوار ، بداء التناقض الذي تجلى في مواقفهما من قضية الشرق الاوسط كما تجلى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية في تأرجحهما – حسب الظروف – بين نصرة الحزب الشيوعي الفرنسي ومعاداته ، فان أديباً مثل « ايونسكو » وعالماً مثل « لويس لوبرانس رنقي » وكاتباً مثل « تياري موني » ليسوا إلا ضحايا ثقافة تغذوا بها فاذا هي مقامة على النزعة الصليبية وكراهية الشرق والمقابلة بين الساميين والآريين ، وضحايا مدنية تصورت أنها أم المدنيات والمحتكرة للقيم الخالدة ، لم تمس منها الحربان الكبيرتان إلا السطح ، ولم تنل من غرورها الحركات التحريرية واستفاقة العالم الثالث وتقدم العلوم الانسانية الحديثة ... إلا بمقدار !.

وان ركناً من أركان رسالة المثقفين في العالم النامي – والأمة العربية خاصة – يتمثل في ضم جهودهم إلى جهود المفكرين الأحرار في أوروبا والعالم الغربي عامة – وهم موجودون والحمد لله – التعريف بحقيقة العالم العربي والكشف عن خصائصنا الحضارية واجراء حوار بناء مع كل ذوي النوايا الصادقة لاقناعهم بأن الانسانية لا تنحصر في حيز جغرافي ، ولا تقتصر على التراث اليوناني المسيحي ، وأنها تكامل وتناغم مع كافة الحضارات والثقافات لا فضل لاحداها على الأخرى الا بما تقدمه للانسان من فرص لتجاوز ذاته وتحقيق كماله .

ومن أركان رسالة المثقفين في بلادنا أيضاً أن يكشفوا عن سوءات اسرائيل ويفضحوا كيانها الاستعماري ويساهموا مع زملائهم في كل أنحاء الدنيا للعمل على التحول الضروري الذي لا بد أن يتم في اسرائيل بالذات ، حتى تتوفر أسباب التعايش والتآخي بين كل الأديان من دون هيمنة أو استعمار وهو عمل ضروري لتستتب السلم ويرتفع مستوى كل الشعوب مادياً وأدبياً .

وانما أوردنا بعض الامثلة لنؤكد على الهوة التي لا تزال تفصل بعضنا عن بعض على المستوى الحضاري والعقائدي ، رغم تجانس أنماط العيش وتقارب المسافات وفاعلية وسائل الاعلام ، ولنبين مرة أخرى أهمية برامج التعليم والتربية في كافة أنحاء العالم — من دون استثناء — إذ على محتواها والقيم العليا التي تستوحيها ، يتوقف التعارف المتبادل بين البشر ، والتقدير المشترك والرغبة الصادقة في التعاون .

ومهما يكن من أمر فلا يمكن أن يكون الحوار مجدياً الا إذا تكافأت قوى كل الأطراف ، وقد توفر لنا من القوة بفضل استبسال جنودنا وفدائيينا وتنسيق جهودنا في معركة النفط واتحاد كلمتنا في أيام الشدة ما يحمل الأطراف المقابلة على التفكير والاقدام على تغيير بعض المفاهيم المتوارثة ، والعقليات البالية ، وإقامة تعايش دائم على أسس جديدة قوامها الحرية والعدالة والكرامة .

محمد مزالي

« افتتاحية مجلة « الفكر » التونسية » — عدد ديسمبر ١٩٧٣

الفارس الذي عاد

شعر خالد محي الدين البرادعي

أتيتَ أخيراً ،
وكانَ الرِّهانُ بأنكَ لَنْ تَستجيبْ
علمتُ بأنكَ آتٍ على رأسِ قافلةِ الظافرينَ ،
غداةَ انتهى العصْرُ ، واصفرَّ وَجهُ السنينَ
وَذابتْ مَحاصيلُ فَصْلِ الضّياعِ ، وأنَّ قدومَكَ مثلُ القَدَرْ
علمتُ بأنكَ آتٍ وكان الرِّهانْ

بأنكَ تقبعُ في فجوةٍ شقّها الصمتُ بينَ الطموحِ وبينكَ ،
تزدردُ الشعرَ ، تقتاتُ حزنَ المغيثِ البعيدِ
وأنكَ لنْ تستجيبْ

★ ★ ★

أتيتَ تقودُ قوافلَ ،
كانتْ مشرّدةً تستحمُّ بماءِ الحنينْ
وبينَ الفراتِ ومكّةَ تجترُّ أحزانها الدائريّهْ
وتنأى زهوَ الجراحِ التي صبغتْ أوجهَ الأبرياءْ
وكانَ الضّمادُ يمزّقُ خلفَ الضّمادِ
وكانَ حداةُ القوافلِ ينشرونَ أوجههم في مرايا ملوكِ الطوائف
عاماً فعاما
وتسري النياقُ على الطرقِ الملتويهْ
وكانَ الرّهانُ بأنكَ لنْ تستجيبْ
وأنّ الهويّةَ ضاعتْ بعتمِ المتاحفِ ،
والطّلّةَ الأمويّهْ
كتابٌ تحتّهُ دواليبُ شمسٍ حديديّةٍ
— قالَ حجّابُها : لنْ تغيبْ —

★ ★ ★

علمتُ بأنكَ آتٍ ، وإنْ غبتَ عن أعينِ المتعبينْ
وكانتْ حدودُ مجيئكَ خلفَ خطوطِ الفراسةِ ،
كنتَ تسافرُ تنأى ،

إلى أن تتمّ نجومُ القنوط ِ ترحلها في المدار ِ الحزين ْ
وتبلعُ عرّافةُ السّلم ِ والحرب ِ دمعتَها البارده ْ
تهمهمُ وهْيَ تحملقُ في الرمل ِ ، في الأفق ِ ، في الراحة ِ المجهَده ْ
بأنكَ لنْ تستجيب ْ

★ ★ ★

علمتُ بأنكَ آت ٍ ،
وعُدتَ بأوّل ِ أيام ِ عيد ِ الحضور ِ ،
رأيتُكَ تقتلعُ الصبرَ من هضْبة ِ الحزن ِ ،
ثمّ تفرّشُ كلّ مساماتِها بالسيوف ِ ،
الزهور ِ البنادق ِ بالأحرف ِ القدْسيّه ْ
وراءَكَ ، بينَ يديكَ ، أمامَكَ ،
زغردت ِ الطّموحاتُ واخضرّ وجهُ الفرحْ
فما كانَ بعثُكَ يدهشُ قيثارةَ المتعَبينَ ،
ـ همُ الزارعيكَ بأحداقهِمْ رُغمَ عام ِ الدموعْ ـ
وظلّ المشككُ بالمارد ِ القرشيّ يقولُ
سمِعنا بأنكَ لنْ تستجيب ْ

★ ★ ★

علمتُ بأنكَ آت ٍ ،
تفكّ السلاسلَ ،
تُطلقُ أيْدي السيوف ِ ،
وتنزعُ عنْ مُدُن ِ السّبْي ِ ثوْبَ الضّباب ْ

لِتَتَوزَّعَ الحَدَقاتُ الوَلِيدَةُ بَيْنَ الوُرودِ وَبَيْنَ الحَمائِمِ ،
جِئْتَ وفي شَفَتَيْكَ جَوابٌ عَنِ البَسْمَةِ الضائِعَهْ

عجبتُ مِنَ القانِطينَ ،
وقَدْ راهَنوا انَّكَ المُنْزَوي في مَوانِئِ مَهْجورَةٍ
أبْعِدَتْ قَدَمُ الشَّمْسِ عَنْها
وَأعْلَمُ انَّكَ في لَهْفَةِ المُتْعَبينْ ،
تَشيعُ مَعَ الفَجْرِ في حَدَقاتِ أحْلامِهِمْ ، – عاشِقاً –
كلما ازدَحَمَ القَهْرُ بَيْنَ المُريدينَ والمُسْتَحيلْ ،
تُكَسِّرُ باباً ،
وَتَقْتَحِمُ العَصْرَ ،
وَتَرْنُمُ ما سَوْفَ يأتي ،
لِماذا الرِّهانُ إذَنْ يا حَبيبي ، بِأنَّكَ لَنْ تَسْتَجيبْ ؟

★ ★ ★

رأيتكَ امْسِ ،
تَدُكُّ الحَواجِزَ ، تَكْسِرُ بَوّابَةَ المُسْتَحيلْ
وَتَقْتَحِمُ الأُفُقَ النَّيْلَكيّ ،
وَتَرْفَعُ سارِيَةَ العَلَمِ الأمَوِيّ على حائِطِ القُدْسِ ،
كانَ الصِّغارُ يَرُشّونَ حَوْلَكَ زَهْرَ النُّبوءاتِ ،
مِنْ شُرْفَةِ الأطْلَسيّ
كَبُرْتَ ، كَبُرْتَ ،
إلى أن غَدَوْتَ المَساحَةَ خَلْفَ الجُفونْ

وكُنتَ كِتاباً بذي قارَ يَضطَجِعُ الليلُ فيه ، وَيمْخرُهُ زَورَقٌ مِنْ غُبارْ
تقحمتَ أرضاً تَهيبها الظنُّ قبلَ مجيئكَ ،
ظَلتْ سِنينَ تُدغدِغُ عُشبَ الهزيمةِ والسّبْيِ ،
لكنّهمْ جرّدوكَ مِنَ السَّيفِ قبلَ استواءِ الضياءِ وقبلَ قطافِ ثمارِ الظفَرْ
لماذا تُجرَّدُ مِنْ خِنجرِ الحُبِّ قبلَ الاوانْ ؟
وكان لهيبُ جِراحِكَ يُسقي السّنابِلَ ،
والضوءَ ، والحُلُمَ المستغيثَ
وينبتُ زهوَ السّلام بفصلِ الصقيعْ ،
لماذا ، لماذا ، وكانَ الرهانُ بأنكَ لنْ تستجيبْ ؟

★ ★ ★

ألستَ الذي قبلَ امرأةٌ مِنْ قُرَيشٍ ،
تَلوبُ على ــ كُلٍّ ــ أطفالها التائهينْ ؟
بَلى .. أنتَ ذاكَ ..
رأيتكَ تكتُبُ أنشودةَ الحُبِّ في رِحلَةِ اللهبِ البُرتقالي ،
عَبْرَ جِواءٍ تجاهَلَ عُشاقَها المجْرِمونْ
بَلى .. أنتَ ذاكَ النبيُّ الجديدُ الذي بعَجَ الصمتَ ،
واستأنفَ الرحلةَ العربيهْ
رأيتُ رصاصَكَ يَنسِجُ بُرْدَ السّلامِ
لأطفالنا المقبلينْ ،
رأيتُ جبينكَ يحتضِنُ القُبلاتِ ،

أضاميمَ تُرْسَلُ مِنْ نِسْوَةٍ عائداتٍ مِن اليأسِ
نحوَ عيونِ التَّطلُّعِ
كُنَّ يُزَغْرِدْنَ بينَ نخيلِ العراق وأسوار طَنْجَةَ ،
بعْدَ الرِّهانِ العسيرِ بأنَّكَ لن تستجيبْ .

* * *

غمزْتَ جوادَكَ ، فاقتحمْتَ سنابكُهُ الطُّرقاتِ الحرامَ ،
وشِلتَ برمحِكَ سِتْراً ، تفجَّرَ مِنْ تحتِهِ الشعبُ مثلَ الينابيع
حولَكَ كانَ الصِّغارُ يغنُّونَ ، زحفاً على ضرباتِ سنابكِ مُهْرِكَ
ـ جئتَ تغسلُ تاريخكَ السرمديَّ ،
منَ التُّهَمِ المُنتقاةِ ،
وتحملُهُ مثلَ سيفِكَ فوقَ الجوادِ ،
إلى مُدُنٍ تنبتُ فيها النُّبوءاتُ ،
تُصبحُ فعلاً فَبَيْلَ حديثِ المُنجِّمِ عنها ،
أتيتَ إلى المُدُنِ المُشتراةِ بجرَّةِ خمرٍ ، وقيثارةٍ من وعود
تُعاقِرُ سَقْطتَها بالحُسامِ المُضوّىءِ كلَّ الدُّروبِ ،
وتعلَمُ أنتَ ، وتعلَمُ أفواجُنا المُستباحةُ
قبلَ مجيئِكَ
أنَّ الحُسامَ ركيزةُ دارِ الوجودْ
وكانَ الرِّهانُ بأنَّكَ لنْ تستجيبْ .

* * *

تشرين الثاني ١٩٧٣

وجه في مرآة العشق

خالد الخزرجي

يادمشقُ ،

خذيني .. أصافح وجهكِ ،

مدّي إليَّ ظلالكِ .. بي ..

عَطَشٌ

للعناقِ اطفئي ظمأي ..

أنا آتٍ إليكِ ،

نذرتُ دمي ..

وغزلتُ النجومَ ،

قلادةَ ماسٍ لميلادِ زحفِكِ ،
لن تُهزمي ..
عائدٌ ..
أنا أهواكِ ،
أغنيـــةٌ ..
ضحكةٌ ..
بفمي
أنشهّاكِ زنبقة ،
تتعرّى على شفتيّ
عاشقٍ .. نجمٍ !..
كنتِ لي
قمراً ..
شارةً ..
للعبورِ .. ونجمة !..
كانَ وجهُكِ مرآةَ عشق ،
وصوتُكِ صوتَ نبي ..
كان لونُكِ غيمةَ صيفٍ ندي ..
كانَ نهرُكِ ،
أزرقَ ،
أخضرَ ،
أحمرَ ،
يشربُهُ الظامئونَ — فديتُكِ — إنهُ عرسُكِ »

كان المخاضُ بلونِ الدمِ !..
كان صوتُكِ ،
يعبرُ سيناءَ ،
كانت زحوفُكِ ،
تحملُ ريحَ الغَضَبْ
عبر شطآنكِ الثائراتِ ،
ليولدَ فجرُ العَرَبْ !..

★ ★ ★

يعبرُ الزاحفونَ ،
صحارى الرصاصِ ابشري ..
إنهُ الغَضَبُ العربيُّ الجديدُ ..
إنهُ الزحفُ ،
فانتفضي .. انتفضي ..

★ ★ ★

حيهلا ..
حيهلا
الفراتُ المشوقُ ،
يعانقُ صحوكَ يا بردى
والعراقُ العراقُ السخيُّ ،
يدُ اليَدا
في زحامِ العبورِ المقدّسِ ،
يلتقيانِ !..

★ ★ ★

بغداد

التضامن ليس بديلاً للوحدة

خلدون الشمعة

« تقوم فكرة (الوحدة) فيما تقوم على أساس من الولاء القومي المشترك . أما فكرة (التضامن) فهي في جوهرها اتفاق تعاقدي منسق أو غير منسق ، على السعي لتحقيق هدف مشترك . وعلى ذلك فليس من غير الطبيعي أن يحتضر هذا التضامن بزوال أسبابه .. أي بتحقق الهدف .

وفي السكون الذي يعقب العاصفة ، يبدأ كل طرف بتقويم مواقعه ، ليكتشف أنها ربما لم تعد محكومة بحسابات الضرورة الملحة والقصوى».

في أعقاب نكسة الخامس من حزيران ، انتشرت في أوربا الغربية حكاية خبيثة مفادها أن عقرباً أرادت عبور نهر اعترض طريقها ، فطلبت الى ضفدع على ضفة النهر أن تحملها على ظهرها الى ضفة النهر الأخرى .

وعندما أعربت الضفدع عن خوفها من أن تلسعها العقرب بينما هما في عرض الماء، ضحكت العقرب قائلة أنها لن ترتكب حماقة من هذا القبيل، لأنها ستؤدي الى غرقهما معاً . . وهكذا سبحت الضفدع بالعقرب حتى اقتربت من ضفة النهر الأخرى . إلا أن العقرب لم تملك في نهاية الأمر سوى الاستسلام لإغراء لسعها . وما أن غيبها النهر في عبابه ، حتى ألحفت الضفدع بالتساؤل :

— ولكن لماذا فعلت ذلك . . لماذا ؟..

أجابت العقرب وهي في النزع الأخير :

— ولماذا تعجبين يا صديقتي ؟.. أليس كلانا عرباً ؟..

أنموذج متميز للحكاية الشرقية ، يمكن المرء أن يضيفه ببساطة ، ودون تردد ، الى مجموعة حكايا (كليلة ودمنة) . بيد أن منح شخصيات الحكاية ، الهوية العربية ، هو العنصر الخطير الذي استمر الغرب الاستعماري بالالحاح عليه منذ اللحظة التي (بلقن) فيها المنطقة العربية لدى انهيار الدولة العثمانية : فالمنطقة العربية تضم دولاً عشائرية تنتمي الى شرق أوسط وشرق أدنى وهلال خصيب ، وليست وطناً عربياً واحداً ومتجانساً .

والاختلافات بين الكيانات العربية التي اصطنعها (عميقة الجذور) الى حد أنها أصبحت تتسم بخصائص (موضوعية) . وهكذا فالعلاقة بين الكيانات العربية لابد أن تنتهي بنهاية تكون فيها العقرب أمينة لطبيعتها : وما كان يوصف بالأمس على أنه من قبيل ما يسمى بـ « التفكير الرغبي » Wishful Thinking للاستعمار (أي توهمه بأن ما يرغب في أن يحدث هو ما يحدث فعلاً) ، سرعان ما تحول الى واقع موضوعي تكرسه الكيانات العربية نفسها . وكما حدث بالنسبة الى الدول الافريقية في السنوات الاخيرة ، فان أشد أنواع الحدود مناقضة لحقائق التاريخ والجغرافيا ، الحدود التي وضعها المستعمرون في بداية القرن ، قد اكتسبت لدى الكيانات العربية في المنطقة ، نوعاً من القدامة الاقليمية ذات الطابع التحريمي الناجز .

أ - الدولة - القبيلة

إلا ان المفارقة تكمن في ان ميزان القوى بين الدولة الصهيونية والوطن العربي كان يرسم باستمرار على اساس ضمان تفوق اسرائيلي على الدول العربية مجتمعة . وهكذا فإن خرافة (داوود) الاسرائيلي الصغير الذي لا بد أن يهزم (غوليات) العملاق الفلسطيني (العربي) ؛ كانت دائبة التكريس. ولم يكن هذا ممكناً الا عن طريق الحيلولة دون انعكاس القوى العربية الحقيقية على الصعيد التاريخي ، والطبيعي ، والبشري ، والجغرافي Geopolitical . فهذه القوى لا تشكل خطراً طالما انها ظلت ذات طابع كمي (تراكمي) ، لا تترجم الوحدة الى طابع نوعي. وقد استكان الكثيرون من المفكرين العرب ، عن وعي أو عن غير وعي ، الى شروط هذه المعادلة الزائفة . وباسم الظروف الموضوعية التي يمكن أن يتذرع ويعتذر بها الساسة والحكام عن قصورهم في ترجمة تطلعات الجماهير الوحدوية ، كف هؤلاء المفكرون عن رفد المد الفكري الوحدوي الذي ظهر في بداية عصر النهضة وأكد على التلاحم بين مسألة التحرر الوطني والاجتماعي والاقتصادي ، وبين مسألة الوحدة العربية .

وبدا على الفور ان (التضامن) العربي هو أقصى ما يطمح إليه العرب ، وان عليهم الحفاظ على هذا التضامن ، وكأنه عمل من اعمال التنسيق الطارىء وليس مرحلة في سلم (الوحدة) . بل لقد ظهر من يجعل التضامن العربي ضرورة تزول بزوال الضرورة. وظهر أيضاً من يؤكد على ان التضامن العربي قد نسف فكرة الوحدة العربية أساساً ، باعتبار انه البديل (الموضوعي) لفكرة رومانطيقية هي أدْخَلُ في عالم الوهم والمثال منها في عالم الواقع العيني الصلب .

وحتى المفكرين الذين لم يفقدوا ايمانهم بالوحدة العربية لحظة واحدة ، انتقلوا من مرحلة الهجوم الى مرحلة الدفاع . فهم يلتمسون في نظريات الوحدة الاوروبية الأسس الضابطة للوحدة العربية المنشودة .

بل إنهم كثيراً ما يضطرون الى الاستماتة في تبرئة القومية العربية التي (تتشوفن) القوميات وتتوسع على حسابها ، من تهم الشوفينية والتوسعية . وسرعان ما يجرهم كل خطأ يرتكبونه الى خطأ آخر :

- فهم حين يتقرون في وحدة من الوحدات القومية نموذجاً يلتمسون به

المعاذير لوحدتهم التي لم تتحقق ، لا بد خاسرون الجولة منذ اللحظة الأولى ، ذلك ان قياس وحدتهم بموازين وحدة أخرى ، لا يمكن أن تكون حصيلتهسوى نتيجة خاطئة لمقدمة خاطئة أصلا .

وإذا كانت القومية بالمعنى الأوروبي هي الشعور بالمصلحة المشتركة من قبل الذين يشتركون في الماضي أو الحاضر أو الماضي والحاضر ، بخصائص معينة ، كالحكومة الواحدة ، واللغة ، والثقافة ، فانه لما يثير الأسى أن نمتثل لأبعاد هذه الصيغة وأن نتلعثم أمامها وكأننا أمام حقيقة جامعة مانعة تقطع الطريق على كل الحقائق الأخرى ، ولسنا أمام حقيقة وجود انساني وتاريخي قد يختلف بين تجربة وأخرى .

ان موازين المصلحة المشتركة يمكن أن تفي بها مسألة التضامن العربي بحدودهاالدنيا والقصوى . أما الوحدة العربية فهي تتجاوز هذه الموازين الى آفاق أبعد وأرسخ جذوراً . ذلك لأنها ترتبط أصلاً بمسألة استعادة الشخصية العربية . بيد أن الشخصية القومية ظاهرة بالغة التعقيد . وهي تتسع لتيارات كثيرة ومتعارضة من الأفكار ، وفيها مجال خصب لمختلف الاجتهادات الفردية ، وبالتالي فانها لن تكون مقيّدة بالضرورة الى تجارب الوحدة الأوروبية في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر .

وقد كان من المرطقات الفكرية التي ارتفع صوتها عالياً بعد معارك تشرين المجيدة، السؤال المخجل التالي :

— وحدة أم تضامن ؟ .

وكانت هذه الهرطقة الفكرية تدشن شكلاً مستتراً من أشكال الدفاع الشرس عن الامر الواقع .

ذلك أن التضامن العربي انما يعني في الحساب الأخير تكريساً لمرحلة القبَليّة داخل الامة الواحدة . فهو لا يحقق انصهار الارادات وإنما هو يقدم نوعاً من أنواع الاسهام التراكمي في اتجاه معين ، لا يتضمن بالضرورة عنصر الالزام أو الالتزام على الاقل .

وقد يقال ان التضامن مرحلة أولى من مراحل الوحدة . إلا أن التضامن يمكن أن يكون أيضاً محاولة لتحصين دفاعات الكيانات الاقليمية ضد الفكر القومي الوحدوي.

فمقابل الاسهام المادي والمعنوي ، الطوعي وغير الملزم ، الاسهام الذي تحدد

حجمه أريحية « الدولة – القبيلة » ، تبتاع هذه « الدولة – القبيلة » استقلالها المصطنع داخل الأمة الواحدة . وهكذا لا يبدو التضامن خطوة على طريق ذات اتجاه واحد ، وانما هو محاولة لتدعيم دفاعات الامر الواقع الاقليمي .

وبالطبع فان الفكر المناهض للفكر القومي لم ير في معارك تشرين ، الصدمة التي خلخلت دفاعات الشكل التضامني « التراكمي » للمجهود العربي ، وانما أراد استغلال نتائج المعارك لتأكيد الموضوعة الخاطئة التي تضع التضامن بديلاً للوحدة .

صحيح أن ما حققته معارك تشرين المجيدة قد أكد على ما يمكن أن يفعله التضامن العربي . الا أن مالم تحققه هذه المعارك قد طرح مجدداً وبالحاح، البعد القومي الوحدوي لمسألة التحرير أساساً : فالتنسيق والتضامن لا يمكن أن يشكلا الرد الكافي على التحدي الصهيوني الذي بلور صورة مجابهة حضارية بعيدة المدى.وقد كان همّ الدعاوة الصهيونية باستمرار ، أن تجرد هذه المجابهة الحضاريةمن العنصر القومي وأن تقصرها على العنصر الاقتصادي والاجتماعي .

ب – الخرافة الاقتصادية

ومن هذا المنطلق بالذات روجت الصهيونية للفكرة القائلة أن التقدم الاجتماعي والاقتصادي كفيلان بالقضاء على أسباب العداء العربي للكيان الصهيوني . كما أنها حاولت دائماً التأكيد على ان العداء للصهيونية ليس حقيقياً وإنما هو قد اصطنع اصطناعاً من قبل الحكام . يقول « ليون أوريس » في روايته « خروج » :

« ان اللاجئين محشوون في الأقفاص كالحيوانات البائسة باعتبارهم سلاحاً سياسياً مصطنعاً . » ولهذا فان اتساع رقعة التعليم وتوطد دعائم التقدم الاجتماعي والاقتصادي، يحرران العرب من أوهامهم ومن حكامهم الذين يؤججون سعير هذه الأوهام .

وقد وصل الأمر بالصهاينة ان اقترحوا على بريطانيا خلال فترة انتدابها على فلسطين ، أن تبادر إلى إرسال قوات خاصة على غرار قواتها التي قامت بقمع ثورات الشعب الإرلندي ، وعرفت باسم Black And Tans لكي تجابه بالقوة الجماهير العربية الجاهلة التي لا تعرف أين تكمن مصلحتها الاقتصادية الحقيقية والتي يستخدمها الحكام الاقطاعيون والقبليون الذين يستغلونها لخدمة مآربهم الخاصة. فالصهيونية حركة رخاء وازدهار اقتصادي وتنظيم اشتراكي قائم على المستوطنات . وهكذا فالمجابهة ليست بمجابهة قومية وإنما هي صراع بين العلم والجهل ، بين التقدم والتأخر ، بين الاشتراكية

البرلمانية ، وبين الاقطاعية أو الاشتراكية العشائرية ، وحتى وعد (بلفور) فانه يتجنب كل ماله علاقة بالبعد القومي العربي في فلسطين ، فعرب فلسطين كما يسميهم وعد«بلفور» هم : « الطوائف غير اليهودية » Existing Non - Jewish Communities في الوقت الذي كانت فيه نسبةالعرب لدى اعلان « وعد بلفور » تتجاوز الـ «٩٠» بالمائة.

إلا أن هذا التجاهل للبعد القومي ، كان يشتمل في بعض جوانبه الأخرى على اعتراف سلبي به . فالعربي الذي يقوم بالعمل نفسه الذي يقوم به اليهودي(١) كانت سلطات الانتداب البريطاني تدفع له أجراً أقل من أجره . وكان هذا بمثابة اعتراف غير مباشر ببعد قومي وجودي قائم فعلا وله خصائصه التي يضطهد العربي على أساسها . وقد كتب (هرتزل) في ١٢ حزيران ١٨٩٥ في الجزء الأول من مذكراته السرية يقول انه أخذ باعداد خطة :

« لضرب معنويات السكان المعدمين عبر الحدود ، عن طريق عدم استخدامهم » .

وهو يعني بهؤلاء السكان العرب بطبيعة الحال ، الا أنه يتجاهل في وصفه لهم ، مسألة (الهوية القومية) ليؤكد على (الهوية الاقتصادية) . وحتى عندما يضطر الى ذكر العرب بوصفهم ينتمون الى قومية متميزة ، فانه سرعان مايسلبهم حق الشعور بهذه القومية . فالسعادة في رواية (هرتزل) المسماة ALTNEULAND التي يسهب فيها بالحديث عن السكان العرب السعداء في (وطن يهودي سعيد) ، ليست أكثر من مسألة (اقتصادية) زاهية الألوان .

وهذه المحاولة في نزع الطابع القومي عن المسألة تكاد تشكل القاسم المشترك الأعظم بين معظم تجارب الاستعمار الاستيطاني في عصرنا .

يكتب (جون ماندر) (١) :

---

(١) يشير (ارسكين تشايلدرز) الى أن هذه المعاملة استمرت حتى عام ١٩٤٦.

(١) Mander John, South Africa : Revolution or Partition Encounter - oct . 1963

« سيقول لك الاسرائيليون انهم يضعون آمالهم من أجل استتباب السلام النهائي على الفوائد الاقتصادية والفوائد الأخرى التي سيجنيها العرب من جراء الصلح مع اسرائيل ، فاسرائيل — بصراحة — قد تصل في يوم ما الى وضع تستطيع معه شراء جيرانها (!!) .. وليس ثمة من شك على الاطلاق في أن جنوب افريقيا ، مثلها في ذلك مثل اسرائيل ، لديها الكثير مما تقدمه لجيرانها ، فهم يحتاجون الى مهارتها قدر ماتحتاج هي الى أيديهم العاملة ، إن هذا يبدو بالنسبة الى كل من جنوب افريقيا واسرائيل ، احتمالاً بعيدالتحقيق . إلا أنه ليس كله طوباوياً . فالأمل معقود على أنه عندما تخبو جذوة الصراع على السلطة ، فان المصالح الاقتصادية الذاتية ستتغلب على الايديولوجيا . »

هذه الطوباوية ليست حصيلة عجز عن الرؤية بوضوح ، وانما هي (طوباوية) عدوانية حادة الرؤية . فالاصرار على المسألة (الاقتصادية) هو في حد ذاته أيديولوجية عدوانية توسعية تقوم على اساس الفكرة الصهيونية القائلة بأنه لا مكان لقومية واحدة في الشرق الاوسط ، ثم كيف يمكن للسيطرة الاقتصادية أن تنفصل عن السيطرة السياسية في نهاية المطاف ...

يقول (ميشيل هوارد) استاذ الشؤون العسكرية في جامعة لندن و (روبرت هنتر) المحاضر في كلية لندن للاقتصاد ، في دراسة كتبت بعد عدوان الخامس من (حزيران) :

« من الطبيعي ان هذا التوسع الاقتصادي في اسرائيل . سينظر اليه في الغرب باعجاب وسيقابل بالدعم والتأييد . أما العرب فهم يرونه بعيون مختلفة . انهم قمينون بأن يتساءلوا :

— ترى من الذي يتوقع أن يسيطر على الشرق الاوسط في نهاية القرن العشرين ... »(١) .

ان هذه المجابهة الحضارية التي تندفع الى حدها الأقصى يوماً بعد يوم ، لاتفسح المجال للحديث عن حمائم وصقور في اسرائيل . فثمة صهاينة يبدون اهتماماً ضئيلاً بالرأي العام

---

(١) Howavd Michoeɪ and Hunter Robert , Lsraéls Bitter Fruit The Sunday Times, OCT. 8 Tu 1967

العالمي . وثمة صهاينة آخرون يبدون اهتماماً أكبر به . والطرح الاقتصادي للمشكلة هو القناع الذي يتقنع به الصهاينة الذين يبدون اهتماماً أكبر بالرأي العام العالمي ، فيجردون الفلسطينيين من هويتهم القومية ويحيلونهم الى مجرد سكان مخيمات يعانون من أزمات اقتصادية وتعليمية لا بد أن تجد حلها في الحلين « الاقتصادي » و « الثقافي التعليمي » .

وأي طرح لفكرة التضامن كبديل لفكرة الوحدة العربية مهما كانت دوافعه السياسية ، ومهما اتخذ من صور التبرير والتسويغ والتماس المعاذير ، إنما يكرس هرطقة فكرية بالغة الخطورة .

قد يقال ان الفكر القومي الأصيل لايمكن أن يقوم بعملية الاستبدال هذه ، الا ان مجرد الاكتفاء بالتفكير بوسائل الحفاظ على التضامن العربي وليس تصعيده وتنسيقه الى آفاق الوحدة الشاملة ، انما يشير الى ان هذا التضامن قد أخذ يحتل في تفكيرنا الحيز الذي كانت تشغله فكرة الوحدة . وفي هذا المجال ينبغي التمييز بين فكرتين أساسيتين :

آ ــ الولاء القومي المشترك.
ب ــ الاتفاق التعاقدي على السعي لتحقيق هدف مشترك .

ففكرة « الوحدة » تقوم فيما تقوم على أساس من الولاء القومي المشترك . أما فكرة (التضامن) فهي في جوهرها اتفاق تعاقدي منسق أو غير منسق على السعي لتحقيق هدف مشترك. وعلى ذلك فليس من غير الطبيعي أن يحتضر هذا التضامن بزوال أسبابه .. أي بتحقق الهدف . وفي السكون الذي يعقب العاصفة ، يبدأ كل طرف بتقويم مواقعه ، ليكتشف أنها ربما لم تعد محكومة بحسابات الضرورة الملحة والقصوى .

جـ ــ هرطقة (الوقتية) وهرطقة (الاستمرارية)

وبعبارة أخرى فان من الضروري أن نميز بين (وقتية) التضامن وبين (استمرارية) الوحدة . إلا أنني لاأستغرب أن أسمع بمن يقرأ التاريخ العربي المعاصر فتغريه حماسة الاستنتاج بأن يفضل (استمرارية) التضامن على (وقتية) الوحدة . وتلك هي الهرطقة التي يتعين على الفكر العربي أن يتجنب السقوط في شباكها ، ذلك أنه

إذا كان يحلو للمؤرخين اعتبار القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الفترة الذهبية للوحدات القومية التي تميزت بظهور وعي الشعب القومي كعنصر حاسم في التاريخ، فان القرن العشرين قد يبدو أشد تمثيلاً لهذا الحكم من أي فترة أخرى في التاريخ ولذلك أسباب منها :

أ – أصبحت الوحدة القومية في هذا القرن النمط الشائع للحياة .

ب – أدت الثورة في المواصلات الى خلق نوع من التقارب أو حتى التماثل في الحياة الاجتماعية، إلا ان هذا الاحتكاك بين القوميات قد تسبب في تعميق الفروق القومية والتأكيد عليها .

جـ – عندما تزداد نقاط الالتقاء بين الوحدات القومية ، يكثر البحث عن نقاط التميز . ويتم هذا البحث تحت اسم تحقيق الهوية أو الشخصية القومية أو العثور على الذات .

وبالطبع فانني لا ألتمس في هذه النقاط المبررات للوحدة العربية الشاملة ، وانما أود الالحاح على ان الفرضية التي تقصر الفكر القومي على مرحلة ظهور القوميات ، لا تطابق الواقع السائد في عصرنا الراهن .

وبالتالي فان الحدود السياسية في خارطة القرن الحالي ، تقوم على أساس واضح من الاستقطاب القومي الحاد . وحتى التكتلات التي تقتصر على المظهر الاقتصادي كالسوق الأوروبية المشتركة على سبيل المثال ، إنما تنطوي على وعد مضمر بتبلور قومي تدريجي .

وهكذا فان الوحدة العربية القومية لا تنهض على ضرورات تاريخية : حضارية وثقافية واقتصادية وأمنية عاجلة ، وإنما تنضاف الى ذلك ضرورات الانتماء الى المجتمع المعاصر .

لقد اتحدت منظمات المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي . الا ان هذه الوحدة لم تتعد في جوهرها التضامن المنسق من أجل تحقيق هدف محدد . ولهذا فان وحدة منظمات المقاومة الفرنسية خلال فترة الاحتلال ، لم تصمد لتجربة ما بعد الاحتلال . فمع تحقق الهدف ، بدأت الانقسامات الحادة تتغلغل في جهاز المقاومة .

فوحدة الهدف ليست بديلاً للوحدة القومية بأي حال من الأحوال . ذلك انها

تقوم مقام الأداة المرحلية ولا تعبر عن الحقيقة القومية للأمة العربية . وأكثر من ذلك فان خرافة (داوود) الاسرائيلي الصغير الذي صرع «غولياث» العملاق «الفلسطيني»، انما تقوم في أساسها على تفوق « النوع » على « الكم » .

ان التضامن هو أقرب الى « التجميع » الكمي منه الى التغيير النوعي الذي يعبر عن القوة العربية الحقيقية بأبعادها التاريخية والبشرية والجغراسية .

وليس كحرب تشرين العظيمة بما حققته وبما لم تحققـه ، من دليل على أسبقية مسألة الوحدة العربية على كل اعتبار .

إذ ان من الضروري أن نميز هنا بين المنهج السياسي وبين المنهج القومي في طرح مسألة الوحدة والتضامن . وعلى أساس هذا التمييز ، فان مـا نراه من الاحتفاء بشعار التضامن العربي الذي فجرته شرارة حرب تشرين ، لا يعني بأي حـال من الأحوال ان هذا الشعار يمكن ان يحتـل مواقع مسألة الوحدة العربية . فالمنهـج السياسي يرى في التضامن العربي انجازاً يمكن تقويمه من زاوية مقارنته بالوضع الذي كان سائداً في الوطن العربي قبيل الحرب .

أمـا مسألة الوحدة العربية فإن من الخطورة بمكان النظر إليها من منظور سياسي محكوم بظروف طارئة . إن الأسلوب الوحيد للتعامل مع هـذه المسألة لا يمكن ان يكون منسجماً والخـــارطة التاريخية والقومية بحقائقهـا الجغراسية والبشرية والاقتصادية ، إلا إذا انطلق من المنهج القومي . ومن عجب ان عـدداً من الكتابات التي ظهرت في اعقاب حرب تشرين ، قد أسهم اسهامـاً بارزاً في تحصين دفاعات الأمر الواقـع الانقسامي للأمة العربية ، عن طريق الالحـاح على فكرة مفادها ان تجربة التضامن العربي قد اكدت على نجاعة هــذا الشكل من (الوحدة) وتميزه على كل حقائق الوحدة القومية الأخرى . وقد اعتمدت هـذه الكتابات ، في اساسها الايديولوجي على (براغماتية) مقيتة ، تفترض ان للحقائق الظرفية (كحقيقة التضامن العربي) قــوة القانون (الواقعي) الذي تتجاوز (عقلانيته) ، (مثالية) و (خيالية) الحقيقة القومية . كما ان هـذه الكتابات استنفرت حشداً من المحـاجات التي تقيم (إخفاق) المشاريع الوحدوية على انـه

الدليـــل الناجز على إخفاق الفكرة القومية اساساً . وهكـذا تكتسب فكرة (التضامن) دفاعاتها الخاصة وتفرض كبديل للوحدة . فإذا كانت الوحدة القومية تتطلب وجود وحدة اقتصادية لا يمكن ان يتحقق شكلها السياسي إلا بتحققها (اي الوحدة الاقتصادية) ... وإذا كانت الوحدة الاقتصادية بدورهـا لا تخرج من افق التضامن الاقتصادي الا بوجود وحدة سياسية ، فكيف يمكن ان تخرج الوحدة العربية الى حيز التنفيذ اصلاً .؟..

هذا هو الطريق المقفل الذي تؤدي إليه محاجات الذين يتوّجون التضامن العربي بديلاً للوحدة العربية ، وعندما يستأنفون إلى التاريخ العربي القريب بانقساماته وتشرذمـاته وإحباطاته وإخفاقاته ، فـإنهم يطرحون في الوقت نفسه هو طلقة (وقتية) الوحدة مقابل (استمرارية) التضامن . ولكن ماذا عن التضامن العربي في حرب عام (١٩٤٨) .؟.

وماذا عن التضامن العربي الذي استهدف منع تحويل مياه نهر الاردن .؟.

وماذا عن التضامن العربي بعد نكسة الخامس من حزيران .؟..

وماذا عن اتفاقيات التعاون المشترك في إطار الجامعة العربية .؟..

اليس في هذه الرؤية للتاريخ ما يقطع الطريق على اي حل آخر غير الحل الوحدوي الكامل .؟..

اليس فيها بعض ما يدحض دفاعات الامر الواقع .؟..

وإذا كانت الامة العربية لا تملـك مقومات القومية الناجزة فلعمري من الذي يملك ومن الذي لا يملك .؟..

ثم من الذي يصنف من .؟..

من .؟..؟

أكثر من مجرد تضامن

مؤتمر القمة هل هو حكومة عربية موحدة!

عادل أبو شنب

لكأن العرب ، جميعاً من المحيط الى الخليج ، ألفوا حكومة من ثمانية عشر مسؤولاً بارزاً ، تخطط لسياسة واحدة ، ذلك الذي حدث في قمة الجزائر في أواخر تشرين الثاني الماضي .

ما حدث ليس ، حتى الآن ، وحدة أو اتحادا ، لكنه أكثر من مجرد تضامن فرضته أحداث جرت وتجري في المنطقة . إنه شكل فريد لا مثيل له من قبل بين أشكال الحكومات التي عرفها التاريخ السياسي للأمم ، لأن العرب الذين يحيون داخل كيانات مجزأة وأنظمة حكم محلية متباينة ، قد يختلف واحدها عن الآخر اختلافاً جذرياً ، هم أنفسهم الذي ألفوا هذه الحكومة الموحدة ، قافزين عبر حواجز التباين والاختلاف المعروفة ، واضعين نصب أعينهم ، وربما لأول مرة في تاريخهم الحديث ، أنهم يخططون وينفذون معاً سياسات معينة لمصلحة الأكبر لا الأصغر ، الكل لا الجزء ، الجسد العربي كله ، لا العضو الواحد من أعضائه .

حكومة عربية مؤلفة من ثمانية عشر ملكاً ورئيساً ـ حتى ولو غاب اثنان أو ثلاثة ـ تجتمع كل سنة [1] بشكل دوري ،وأحياناً إذا دعت الضرورة، لتضع هدفاً مرحلياً في المجالات العسكرية والاقتصادية والسياسية ، ولتخاطب العالم بلغة واحدة ، ولتنظم توظيف قدراتها المادية والمعنوية ، وتعاملها مع الدول والمجموعات ، على أساس المصلحة القومية العليا . . حكومة عربية كهذه هي بالتأكيد شكل جديد من أشكال الحكم في التاريخ السياسي للأمم ، وهي قبل أي شيء آخر ، لغة في الوحدة العربية لم يسبق للعرب ان استخدموها على هذا النحو الجاد من قبل . وإذا كانت الجامعة العربية ، منذ ربع قرن وحتى الآن ، ميداناً للقاءات عربية . . فانها لم ترتق قط يوماً لتحمل هذا الدور : دور الحكومة العربية الموحدة القادرة على التخطيط والتنفيذ ، ولم تستطع أن تجسد إلا القدر الضئيل من التضامن العربي ، الشكلي ، الفارغ من أي مضمون جاد .

• • •

---

(١) من قرارات مؤتمر القمة العربي السادس في الجزائر ان يعقد المؤتمر بشكل دوري في نيسان من كل عام .

حتى نستطيع التعرف على حقيقة هذا التضامن العربي الجاد ، القريب الشبه بالاتحاد ، لا بد لنا من استعراض الأسباب التي أدت إلى ظهوره ، ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ ـ وضعت هزيمة حزيران « يونيو » ١٩٦٧ العرب أمام تحدٍ لقدرتهم على التضامن الحقيقي .

٢ ـ ساهمت المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، بعنادها وبكابرتها وبالاعلان المستمر عن سياستها التوسعية ورغبتها في ضم الاراضي العربية المحتلة .. ساهمت في خلق شعور لدى العرب بضرورة الاتفاق المرحلي ، على الاقل ، وتأجيل كل خلاف ، أو طيه بمعالجته معالجة جذرية .

٣ ـ أدى ضغط الرأي العام العربي ـ بجموع النــاس في كل قطر ـ الذي أهـانته الهزيمة وأذله الخلاف المستديم بين أنظمة الحكم العربية الى احساس هـذه الانظمة بأن الخلاف العربي سلاح يستخدمه العـدو نفسه في عمليات الاحباط والاذلال والهزيمة والتمسك بالاراضي وضمها .

٤ ـ أدت الحقيقة الموضوعية الــتي تؤكد تفوق العدو سياسياً وعسكرياً واقتصادياً بالعرب الى تصور جازم بأن اية معركة مع هذا العدو لايزج العرب مجتمعين فيها بجميع اسلحتهم سيكتب لها الفشل كما حدث في حزيران ١٩٦٧ .

٥ ـ ساعد الجو الدولي الملائم وسياسة الوفاق بين القوتين الكبيرتين ، وتحول مجموعات اقليمية لها وزنها العالمي ، كدول عدم الانحيـاز ، ومنظمة الدول الافريقية ، عن سياسة الحياد في الازمة الى سياسة دعم العرب وشجب العدوان الاسرائيلي ، ساعد العرب على جمع صفوفهم .

٦ – كان الدعم الاميركي المستمر لاسرائيل واحداً من الاسباب العميقة التي اعطت العرب درساً في ضرورة قيام مجابهة عربية موحدة ، وعملية ، لاميركا نفسها ، للوصول الى نتيجة ما في الازمة .

لهذه الأسباب وغيرها . . قام التضامن العربي الجاد وبرز في أزهى صوره خلال المعركة « تشرين ١٩٧٣ » وخلال مؤتمر القمة السادس الذي كان بحق ، صورة لحكومة عربية موحدة .

إن هذه الحكومة التي اجتمعت خلال ثلاثة أو أربعة أيام ، بغياب اثنين من أعضائها أو ثلاثة ، في الجزائر . . لم تقم بما كانت تقوم به خلال اللقاءات العربية السابقة من تجميد لأوضاع ، أو دفن رؤوس في الرمال ، أو نسف اتفاقات سابقة ، أو الوصول إلى قرارات ضبابية ، أو بيانات إنشائية همها الوحيد أن تخاطب رجل الشارع بما يخدره ، وإنما قامت ، لاول مرة ، بوضع مخطط واضح في الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية ، وبتكريس الاسلحة التي استخدمت أثناء المعركة وكان لها جدواها ، كسلاح النفط ، وبالانتقال الى مرحلة التواجد العربي في المجموعات الاقليمية كثقل اقتصادي ، بديل أحياناً ، عن الثقل الاقتصادي الاسرائيلي الذي يمثل بشكل أو بآخر ، الاحتكارات الامبريالية [٢] ، كما قامت باتخاذ مقررات هامة فيما يخص الدول الاستعمارية والعنصرية كالبرتغال وجنوب أفريقيا وروديسيا ، وفيما يخص دول السوق الاوربية المشتركة من حيث نسب النفط المنقولة اليها . . وهكذا ، مما هو معروف الآن ، وما يتعلق بدعم الجبهات العسكرية وغير ذلك . وقيمة هذه القرارات ،

---

(٢) جرى الاتفاق في مؤتمر القمة العربي السادس على تشكيل مؤسسة اقتصادية ذات رأسمال موحد ، تسهم فيه الدول العربية جميعها بنسب متفاوتة ، لدعم الاقتصاد الافريقي ، والاسهام في التنمية في القارة التي وقفت الى جانب العرب .

في رأينا ، أنها تصدر عن أعلى سلطة عربية لتكون ملزمة لجميع العرب ، أي لتكون سياسة للجميع لا يشذ عنها أحد ، سياسة للكل ، لا للجزء ، للأكبر ، لا للأصغر ، للجسد العربي كله ، لا للعضو الواحد من أعضائه .

إن تجربة كهذه ، تعطي الدليل للمستقبل على ان الحكومة العربية الموحدة ليست مستحيلة الحدوث في يوم ما ، وان العرب يستطيعون تجاوز إغراءات الحكم المحلية ذات السياسات المنفردة ، ليكونوا تحت تأثير اغراء آخر ، يضعهم امام حلمهم القديم ، حلم جماهيرهم ، الوحدة العربية الشاملة التي تجعل من العرب قوة عالمية لها وزنها الكبير ، خاصة وان احداث تشرين ومعركة النفط ، قد اثبتت ان الاسلحة التي يحملها العرب .. تؤهلهم إلى ان يكونوا قوة موحدة . حكومة موحدة .

* * *

. . إن ما صرنا إليه ، نحن العرب ، في مؤتمر القمة في الجزائر .. انجاز رائد على طريق التضامن والاتحاد . وسيكون هم العدو الاول إجهاض هذا الانجاز ، بكافة الوسائل ، ومنها محاولاته وضع الالغام لاشاعة الفرقة بين العرب ، وزرع بذور الخلاف بينهم ، فهل سنكون على مستوى المسؤولية القومية ، للحفاظ على هذا الانجاز . بل هل سنطور هـذا الانجاز ، شيئاً فشيئاً ، إلى شيء ما يشبه الوحدة او الاتحاد ، او حتى التضامن الاكثر صلابة ؟

الحرب
أقصر طريق إلى الوحدة

الدكتور بكري علاء الدين

قال بعض الحكماء : جسم الحرب : الشجاعة ، وقلبها : التدبير ، ولسانها : المكيدة ، وجناحها : الطاعة ، وقائدها : الرفق ، وسائقها : النصر .

(النويري ، نهاية الأرب ... ، سفر ٣ ، ص ٢٢٠)

وجها الحرب :

الحروب هي التي تصنع التاريخ . وما تمتلكه الانسانية اليوم من مادة التاريخ إن هو إلا مخلفات الحرب التي تعكس آثارها ونتائجها على العالم في صورة حضارة متميزة. ومن المدهش حقاً ان يرتكز تاريخ العالم ويتمفصل على انجازات المعارك والغزوات والحروب والثورات . فكم من حرب نقول عنها : « لقد غيرت مجرى التاريخ » و « بدلت وجه العالم » . فالرابح في الحرب هو صانع التاريخ ومؤسس الحضارة، ولئن شكل الخاسر جزءاً من التاريخ بوصفه خصماً للرابح ، فهو لا يمتلك أي نصيب في تكوين الحضارات الجديدة المتمخضة عن الحرب ، حتى ولو ساهم — راضياً أو مرغماً — في تقديم المواد الأولية لبناء الحضارة الجديدة ، ذلك أن التصميم المبتكر لهذه الحضارة لا يجسد الا مفرزات الايديولوجية المنتصرة . ومن البديهي أن يكون كل شيء للرابح ولا شيء للخاسر . « لقد كانت الحرب ، في العصور القديمة ، قاسية قسوة «وحشية». ولم يكن في وسع المغلوب أن يطمح الى المطالبة بأي حق من الحقوق ، ولذا شاع الشعار المأثور : « تعساً للمغلوبين ! » Vae victis . وكان في وسع الغالب أن يتصرف تصرفاً مطلقاً بالمغلوبين وبأموالهم وأراضيهم » (١) .

من هنا تأخذ الحرب صفة المقامرة وتنضوي المقامرة تحت قوانين المقامرة . وتبرز خطورة اللعبة باعتبار أن الرهان فيها هو حياة الشعوب . ولكم يتضاءل امام الطاعون والطوفان والمجاعة أمام كلمة الحرب : فالانفعالات التي تمتلك الانسان أمام كوارث الطبيعة ترتبط آخر الأمر — رغم فاجعيتها — بالتسليم للقضاء والقدر ، بينما تبقى الحرب فظيعة ومشينة لأنها من صنع الارادة والعقل الانساني . يقول (ارازم) Erasme .. « الحرب ليست وحشية فقط : ان أي حيوان مفترس لا يفتك بالانسان كما يفتك به الانسان نفسه .. ان نار الحرب توقد بدعوى المطالبة بأرض ، وهي دعوى قديمة تمكن مناقشتها ، أو بسبب هوى صبياني توحي به خليلة مشتهاة ، أو لأسباب أتفه » (٢) .

على الرغم من واقع الحرب المرعب واغوائها الفتاك، فانها تصبح ضرورية كالحياة حينما يُلقي أياً كان قفاز التحدي في وجه الشعوب . وكذلك فانها لا تعدم تبريراً عند

(١) د. عادل العوا ، من الشرف الى الكرامة، دمشق ١٩٧٣، ص ١٤١-١٤٢.
(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

جمهرة من الفلاسفة والمفكرين . « فان هيجل الذي شهد حروب الثورة ، ينشىء فلسفة للتاريخ تلعب فيها الحرب دوراً أساسياً . وليس ذلك لأن الحرب ، بالنسبة اليه ، هي نتيجة كراهية شعب لشعب آخر ... ولكن الحرب التي « تهدد حياة الكل » شرط « لصحة الشعوب الاخلاقية » . ان شعباً من الشعوب يتعرض ، دون الحرب ودون التهديد بالحرب ، الى أن يفقد بالتدريج معنى حريته وأن يسترخي في العادة ويستغرق في تعلقه بالحياة المادية . ولذلك فان هيجل لا يتردد في القول بأن سلماً طويلاً يمكن أن يؤدي الى ضياع أمة. وهكذا فان «عصف الرياح يحمي مياه البحيرات من الأسن»(١). أما رينان Renan فيقول : « ان الحرب شرط من شروط التقدم وهي لسعة السوط التي تمنع أمة من الاستسلام للكرى . » . ويذكرنا ما تقدم بالآية الكريمة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (البقرة — ٢٥١) .

« فالحرب اذن ضرورة داخلية بالنسبة لشعب اكثر منها تجلياً خارجياً بالنسبة لحياته . » «٢» . وهي ضرب من تخليص الزمان من أسر المكان وتحرير لما هو انساني عما هو مادي ودفع بعجلة المدنية الى الأمام ودرء الفساد . ومعناها الحقيقي في نظر هيجل هو « السيطرة على العنصر الطبيعي الذي يصبح مكتسحاً دائماً ويمنع الانسان من الارتفاع الى الحرية » (٣) .

لئن كانت الحرب هي التي تصنع التاريخ ، فان التاريخ هو الذي يحكم على هذه الحرب ، وهو الذي يقرر ما اذا كانت الحرب « وحشية » أم « انسانية » ..

كيف نفهم التاريخ ؟

ترتبط النظرة الى التاريخ ارتباطاً وثيقاً بفلسفة الانسان . فالتاريخ بالنسبة الى فاليري « هو العلم بالاشياء التي لا تتكرر » وهو « في جوهره علم التبدل » كما يقول مارك بلوك . أما توينبي فانه يرى بأن « التاريخ الانساني قد أعاد نفسه حتى اليوم

---

(١) جان هيبوليت ، مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل ، ترجمة أنطون حمصي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

بطريقة واضحة قوية حتى في ميادين النشاط الانساني الذي ترى الارادة الانسانية فيه أقرب ماتكون الى السيطرة على الموقف ، وأبعد ماتكون عن الخضوع لسيطرة الدورات الطبيعية المادية ... وإذا كان التاريخ يعيد نفسه ، فانما يفعل ذلك تمشياً مع التناسق العام للكون . ولكن أهمية هذا النمط من التكرار تكمن فيما يتيحه من الأسباب التي تمكن عملية الخلق من التقدم الى الأمام ، وفي ضوء ذلك يبدو ان عنصر التكرار في التاريخ انما هو أداة لحرية الخلق والابداع ، وليس دليلاً على أن الإله والانسان أسيران للقدر . » (١) . والتكرار هذا يصيب الحضارات دون ان يشمل الدول الطارئة والمتغيرة. وإذا اعتبرنا ان التناقض بين فهم فاليري وتوينبي للتاريخ ناشىء عن تباين في النزعة الفلسفية فاننا نرى ان فهم التاريخ عند ماركس متطابق الى أبعد الحدود مع فلسفته في المادية الجدلية التي تؤدي الى الحتمية التاريخية . ونترك الأمر لـ « سبرز » كي يلخص لنا رؤية ماركس :

« يرى ماركس ان التاريخ كل ، وأن ثمة في البدء حالاً ابتدائية عرف فيها الانسان مجتمعاً بلا عنف ولا تفاوت ، ولكن وعيه بذلك كان وعياً غامضاً . وكان التاريخ من قبل أن تنمو الـ « تقنية » بأي وجه من الوجوه ، كان يسير نحو هذه الخطيئة الأصلية التي تنشأ عن تقسيم العمل ، وعن الملكية الخاصة وعن تمايز الطبقات وتوصل التاريخ أخيراً الى تقدم جبار في المعرفة وفي الوسائل . وقد غدا هذا النماء مذهلاً في العصر البرجوازي الذي عرف ازدهار الـ « تقنية » الحديثة . ويرى « ماركس » ان مجرى الأمور ينبغي ان يعود بنا أخيراً الى مجتمع يتساوى فيه الناس قاطبة ويزول العنف – ومن ثم الدول – ويزدهر فيه انطلاق الانتاج الانساني الحر » (٢) . أما ابن خلدون ، عبقري العرب ، ومبدع علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، فانه يربط التاريخ بالعمران ، ويرى بأن أس المعقولية التاريخية يكمن في

---

(١) توينبي ، الحضارة في الميزان . ترجمة أمين محمود الشريف . القاهرة . ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) العقل واللاعقل في زماننا – راجع الفكر والتاريخ ، تأليف بيير – هنري سيمون وتعريب د. عادل العوا ، ص ١٢٢ .

أن « الحادث التاريخي هو اجتماعي من حيث الجوهر » (١) . وتنصب حتمية التاريخ عند ابن خلدون على عمر الدول الذي يشبه عمر الانسان والكائنات الحية . أما الحادث التاريخي بما هو حادث فانه لايخضع للحتمية نظراً لارتباطه بتطور « العمران » واختلاف الأحوال مع مرور الأيام . فهو يقول : « من الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الأمم والأجيال بتبدل الأعصار ومرور الأيام « ... » وذلك ان أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لاتدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، انما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال الى حال . وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول ،سنة الله التي قد خلت في عباده « .. » واذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ، ونشأة مستأنفة ، وعالم محدث»(٢) . ويمكننا ان نستنتج من ذلك بأن الحتمية تنصب على الشكل دون ان تصيب المضمون التاريخي .. واذا كان الشكل لايخضع لارادة الانسان ، فان المضمون باعتباره «عمرانياً» يتعلق بمجموع الارادات التي تجسده .

وبناء على ذلك فاننا نجد بأن الحضارات والدول عمراً وخطاً بيانياً صارماً كما يرى كل من ابن خلدون وتوينبي . أما التغيرات التي ترافق مسيرة وصيرورة كل حضارة فانها تمثل المجتمع الذي تحدث فيه ، وتعبر عن سمات خاصة وأصيلة لا تتكرر ولا يمكن التنبؤ بها . وعلينا أن نتجنب التنبؤ وإطلاق التعميات والمقارنات واستخلاص الاحكام إذا ما برزت لنا بعض نواحي الشبه في بعض حوادث التاريخ . ويحذرنا ابن خلدون من مغبة مثل هذه الاعتباطية في التفكير فيقول : « القياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ، ومن الغلط غير مأمونة ، تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده ، وتعوج به عن مرامه . فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها ، فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد ، وقد يكون

---

(١) ناصيف نصار ، الفكر الواقعي لابن خلدون ، المنشورات الجامعية الفرنسية باريس ١٩٦٧ ، ص ١٠٩ .

(٢) المقدمة ، تحقيق د . علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج١ ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ .

الفرق بينهما كثيراً ، فيقع في مهواة من الغلط . » (١)

انما لا يمنعنا ذلك عن استخلاص العبر والدروس من تاريخ وأحوال الأمم ،وحتى فاليري المتشدد في إنكار التنبؤ التاريخي، يرى بأن التاريخ « يتيح لنا على الأقل « أن نرى على نحو أفضل » . وهذه الصيغة صيغة متزنة لأنها تحدد على وجه الدقة مدى فائدة التاريخ من الناحية العملية . »(٢) . إذن لا تقتصر وظيفة التاريخ على سرد القصص وامتاع الناس بحوادث الأمم الغابرة ، كما أنها لا تجنح الى اطلاق التعميمات المجردة والقوانين الصارمة فيما يتناول الوجه الاجتماعي التاريخ . ولئن صوت توينبي لفكرة التكرار في التاريخ ، فانه لا يغفل أن يجعل من هذا التكرار ايقاعاً مبدعاً وخلاقاً يمكن عملية الخلق من التقدم الى الامام . وامكانية التنبؤ التي يؤمن بها لا تحصل للمؤرخ الا بعد الدراسة المتبحرة والمتفكرة في التاريخ . « وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول » (٣) وليس التنبؤ من قبيل الكشف عن الطوالع كما يفعل المنجم . انما يمكن تشبيه الدروس المستقاة من التاريخ كالخريطة التي « تتيح للبحار الذي يفهم كيف يستعملها أملا أكبر في تجنب الغرق مما لو سار في البحر على غير هدى لأنها تتيح له الوسائل التي تمكنه — متى استخدمها بمهارة وشجاعة — من شق طريقه بين الصخور والشعاب المرسومة على الخريطة . »(٤) . ويتعلق الأمر عند ابن خلدون — الذي حمل بشدة على التنجيم — باستخلاص العبر واستنتاج الدروس من التاريخ بعد استكمال العدة ، ولا أدل على ذلك من عنوان أشهر مؤلفاته : « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» والذي شاع ذكره باسم «كتاب العبر» . وموقفه ذلك منسجم مع التراث العربي الاسلامي الذي كان يمثله خير تمثيل:«لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» «يوسف — ١١١».

(١) المصدر السابق ، ص ٤٠٦ .

(٢) بيير — هنري سيمون ، الفكر والتاريخ ، ترجمة د. عادل العوا دمشق ١٩٦٣ ، ص ٣١ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق د . وافي ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج٥ص ٣٩٩

(٤) أرنولد توينبي ، الحضارة في الميزان ، ترجمة أمين محمود الشريف ، القاهرة صفحة ٣٨ .

العرب امام التحدي :

على ضوء ما تقدم ، كيف نفهم واقع العرب الراهن ، وكيف يمكننا الاستفادة من «عبر» التاريخ ؟ لقد شاع كثيراً القول بأن معركتنا مع العدو هي «معركة المصير» ويطلعنا التحليل لنوايا وأهداف العدو الصهيوني – الامبريالي الذي نتصدى له بأن الرهان في حربنا مع العدو هو رأس وجيب الشعب العربي . وخارطة العدو التوسعية مرسومة « بالحبر السري » على قماش أسطورة «الامبراطورية الصهيونية» . ان صراعنا مع اسرائيل هو صراع الحياة مع الموت ، وما لم نكن نستحق الحياة ، فان مصيرنا هو الموت المحتوم . وان الذين يتفاءلون بنتائج الحرب مع هذا العدو بالرجوع الى التاريخ فقط لا يستطيعون دفع الفناء عن أنفسهم. فالتاريخ شاهد وحكم ومعلم ، وما كان أبداً منقذاً . علينا أن ندخل التاريخ بارادتنا ، وأن لا ننتظر التاريخ كي يأتي الينا .

صحيح أن حرب تشرين فاتحة لعصر جديد وبداية مشرقة ، انما مابقي من الدرب يحتاج الى ثورة في كل شيء ... ثورة تستطيع أن تهزم أمريكا وتسقط الغرور الاسرائيلي في بحر النسيان . تذكرنا حرب تشرين بمعركة ذي قار التي تميزت بالدفاع عـــن الوجود وعن الكرامة في آن واحد . « وما التاريخ إلا تعاقب جهود تبذلها كل مدينة لتولد حين تقبل تحدي الطبيعة وتنهض به ، ثم تجهد للبقاء في الوجود حين تجاوز تناقضاتها وتبلـغ الكلي » (١) لقد صمدت بكر بن وائل – بامكانياتها المحدودة – صمود الجبابرة في وجـه الجيش الفارسي المتفوق عدة وعدداً ولم تقبل التنازل عن كرامتهـا والاستسلام لتهديد كسرى ، ثم انتقلت الى مرحلة الهجوم ولاحقت فلول الجيش المهزوم الى السواد من أرض فارس . والذي نريد أن نؤكد عليه هنا ، هو أن حالة الحرب ، ووضع العرب أمـام التحدي ، هو الذي دفع القبائل العربية الى الاتحاد . ذلك أن « معركة المصير » تفرض الكثير من التنازلات . « ان ذي قار هي أول معركة تنتصر فيـها القبائل العربية على الجيش الفارسي . وقد أعطاهم هذا النصر ثقة كبيرة بأنفسهم وجرأت القبـائل الاخرى على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين الغنية . وكانت بمثابة حركة استطلاعية ومقدمـة

---

(١) بيير – هنري سيمون ، الفكر والتاريخ ، تعريب د. عادل العوا ، دمشق ١٩٦٣ ، ص ٦٣ .

الفتوح الاسلامية التي لن تلبث أن تكتسح امبراطورية الساسانيين وتقضي عليها » (١). وما يهمنا هنا هو الالحاح على أن اكتساح امبراطورية الساسانيين لم يتحقق الا بعد حدوث ثورة عربية في الجزيرة العربية بقيادة محمد « ص » ومن تبعه ممن امن وحمل أفكاره. إذن ، فالعرب اليوم بحاجة الى ثورة تكتسح الامبراطورية الامبريالية التي تدعم اسرائيل ثورة على تخلفنا الاخلاقي والفكري . . . ثورة قادرة على ولادة بطل من نوع جديد يقود الامة العربية الى النصر الكاسح .

إن أول بشائر النصر التي حققتها حرب تشرين فرضت الوحدة في الساحة العربية. لقد شارك العرب جميعاً مكرهين بهزيمة حزيران . ولكنهم قاموا يشاركون بالنصر بكل مايملكون في تشرين . وبما أن الحرب هي التي تصنع التاريخ وتغير وجه العالم . فلقد تبدل كل شيء بعد سقوط الاقنعة . « ويقول الواقع ان حرب ٦ أكتوبر أكدت وحدة الامة العربية وربما يقول التاريخ ان حرب ٦ أكتوبر أكدت وحدة أوربا الغربية وربما تصنع منها حقيقة سياسية بعد أن كانت تعبيراً جغرافياً » (٢) .

لقد استطاعت حرب تشرين أن تجسد الوحدة العربية رغم كل الخلافات التي كانت تقسم العرب وتجزئهم وتنخر عظامهم . وهي ان ذكرتنا بذي قار من الناحية النفسية للعرب ، فانها تذكرنا — على مستوى الصراع مع العدو الصهيوني — بالحروب الصليبية. واذا أردنا أن تكون لنا عبرة في التاريخ، فاننا لا نريد أن يدوم نزاعنا مع العدو قرنين من الزمان « الحروب الصليبية استمرت من عام « ١٠٩٦ الى ١٢٩١ » . كما لانريد بأن نترك فرصة واحدة من الهدوء لاسرائيل ، وذلك لمنع تدفق الهجرة اليهودية . واذا قلنا بان الحرب اقصر طريق الى الوحدة ، فان ذلك ينطبق — أو على الأقل — نريده أن ينطبق على واقعنا . فلقد كانت الطريق الى وحدة الصف العربي لصد الغزو الصليبي طويلة جداً وشائكة الى أبعد الحدود. ولقد برهنت نتيجة الحروب الصليبية على أن النصر كان مرهوناً بالوحدة .

رأينا اذن أن الحرب ضرورية وأساسية من أجل تحقيق الوحدة العربية ، وأن الوحدة طريق النصر ؛ وهنا يمكننا أن نجزم بأن أقصر الطرق الى النصر هو طريق الوحدة

---

(١) نبيه عاقل، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول، دمشق ١٩٦٨ ، ص١٩٩.
(٢) م. ح. هيكل ، بصراحة ، الأهرام ، ١٩٧٣/١١/٣٠ .

وذلك ما أكده التاريخ وما يؤكده الواقع . ولا نريد أن يفهم من تأكيدنا على ضرورة الحرب للوحدة ، بأن شعار الوحدة ، ما كان ليطرح لولا صراعنا مع اسرائيل . ذلك أنه « يخطىء من يعتقد أن الخطر الصهيوني والاستعماري هو صاحب الفضل الوحيد في توعية العرب وتوحيدهم معنوياً ، وكأن لولا الصهيونية والاستعمار لما كانت هناك قومية عربية ولا أمان عربية تسعى نحو الاستقلال والوحدة والحرية « . . . » ذلك أن بذور القومية العربية في فلسطين وخارجها ، بدأت تنمو بشكل بسيط ومتدرج من قبل أن يتفتح الوعي على الخطر الصهيوني »(١) .

والذي نريد أن نشدد عليه هو أن الحرب ضرورية حتى نكسب الحرب . وأن الوحدة مصير وقدر وعامل اساسي في احراز الانتصارات العربية . وان ولادة الروح العربية الثورية ، واندلاع الثورة الحقيقية ، أمر لامفر منه لحماية الوجود والكرامة العربية أينا كانت . « فالحرب اذن ضرورية في حياة شعب ما لأن معنى الكل ومعنى وحدته يزولان دونها ولأن الحياة الانسانية تهوي ، لولاها ، الى درك طبيعة دون روح »(٢) .

جميع العرب مدعوون الى المشاركة في استمرار المعركة . بل هم مجبرون على زج كامل قوتهم من أجل الدفاع عن وجودهم وكرامتهم . ان الوقت وقت العمل ، والميزان والحكم الفصل هو العمل . وكل من يحاول تشتيت الصف العربي وإشاعة التشكيك والجدل والمزايدة يقف في صف العدو شاء ذلك أم أبى . اننا بحاجة الى تكوين جبهة واحدة « كالبنيان المرصوص » ، وبحاجة الى الانصهار في الكل أكثر من أي وقت مضى ، وكل جهد شريف ضروري من أية جهة جاء ، وكل عمل مأجور ، دون حاجة الى الرجوع الى ملفات العامل أو تقاطيع وجهه ؛ ان الموقف يقتضي التطلع الى الأمام والى الأمام فقط ، والشجاعة الجديرة بالاحترام هي الشجاعة في الحرب .

«١» د. أنيس صايغ ، فلسطين والقومية العربية ، مركز الأبحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

«٢» جان هيبوليت ، مدخل الى فلسفة التاريخ عند هيجل ، ترجمة أنطون حمصي ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ١٠٤ .

« ان حياة شعب ما هي حياة عضوية ؛ فهي تفترض ضمنها ، اذن ، تنوعاً . وهذا التنوع تشكله الطبقات الخاصة التي يعبر كل منها ، على طريقته الخاصة ، عن الكل «...» والرجال الأحرار القادرون على الشجاعة في الحرب والذين يعيشون في شعبهم ومن أجله ، أما الآخرون فهم لايستطيعون التوصل الى مثل هذه الفكرة عن الكل انهم لايستطيعون التمتع بالكل المشخص والاسهام فيه بوعي »(١) .

لاخيار لنا اذن ولا مناص من الحرب والوحدة . وليردد التاريخ من بعدنا قول الشاعرة العربية « وهي امرأة من عبد القيس » :

أبوا أن يفروا والقنا في نحورهم
ولم يبتغوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فروا لكانوا اعزة
ولكن رأوا صبراً على الموت أكرما »(٢)

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ١٩٢٤ ، سفر ٣ ، ص ٢٢٨ .

الوحدة

أعلى مراحل التضامن

صلاح دهني

لم يصبح العالم العربي دولة موحدة ، عندما بدأ العالم كله يتنبأ - عن صدق ايمان أو تعمد تهويل - بميلاد قوة كبرى ثالثة تضاف الى القوتين العظميين . وبحق ، كفى تضامن أول جاء في أعقاب هزة ضميرية عميقة ، لكنه لم يجد بعد مرتكزاته التنظيمية، به التشريعية ، لكي ينقلب هذا التضامن الى دائرة المؤثرات الوازنة ، لا في سير أحداث محدودة ، بل أبعد من ذلك بكثير : في أعمق مكونات الحضارة الحديثة . والى ذلك ،

فاذا كانت الكلمة من أمريكا وروسيا تؤثر في ميزان الحرب والسلام ، وتغير الحكومات والحدود القومية للشعوب ، فالكلمة العربية بقطع البترول استطاعت أن تنفذ — ولأول مرة — كرجة كهربية الى مسام كل فرد في العالم حيثما وجد ، داعية إياه لأن يعيد النظر في طبيعة حياته ، وفي كثير من الاحيان في بعض معتقداته ، في الوقت ذاته الذي يلقي فيه مجموعة من التساؤلات الحيرى احياناً : لماذا ؟ من ؟ كيف ؟

لأول مرة في عصرنا ، تتوجه الأسئلة كلها الى العرب لتجد عنها إجابة ، حتى الانسان العادي في أبعد أحياء المدن أو مناطق الريف ، مما يسمى في كل صقع « بالأكثرية الصامتة » جعل يستدرك لنفسه مفهوماً مغايراً لكل تصوراته السابقة عن واقع عربي جديد .

هذا الأمر أصاب بالهلع عصبة المهوشين والعملاء والقابضين ، فهرعوا أفراداً وجماعات — كالفرد المذعور في الغابة الافريقية — الى قرع طبول الخطر لمواجهة الدخيل الجديد الى أرض القبيلة الحرام . والدخيل الجديد الى أرض البشر المسيجة بحقد مئات السنين من الاحتقار المترفع ، هو — كما يصورونه — العربي الهمجي تناهض من عثرة القرون حقوداً ، انتقامياً ، ابتزازياً ، من أردأ صنف .

مقتطف من جريدة الفيغارو ،

« أصبحنا (الاوربيين) مستعمرين لثلاث جهات ، العرب ، السوفيات ، أمريكا » .

مقتطف من مجلة الأوبسرفاتور :

« في تاريخ أوربا ، سيكون تشرين الاول ١٩٧٣ ، بداية تاريخ الانهيار الكبير لحضارة الغرب » .

مقتطف من مجلة الاكسبريس :

« تحقق الاوربيون الآن انهم سيتعلقون لسنوات عديدة من الناحية العسكرية بالولايات المتحدة ، ومن ناحية الطاقة بالعرب » .

بمثل هذه الأقوال تسيل بها أقلام المتنفذين في دوائر الاعلام الغربية ، توجه أقنية الغضب والحقد ضد العرب كقوم شرهين جاؤوا في آخر الزمان يقاسمون الشعوب المتحضرة الخالصة النقاء ، قطعة الحلوى الدسمة التي استأثرت بها لنفسها . وحتى المعتدلون

من الكتاب اولئك يوردون الحقائق عن الطاقة العربية ، لا كاعتراف بدهي يعامل بالاحترام ، بل كدخل لبث رعب نفطي قائم دونه رعب ذري محتمل .

ان هذا الكلام لا يحمل أي قدر من المبالغة . إذ عندما تعنون جريدة الفيغارو، جريدة اليمين الكبرى في فرنسا ، بل في اوربا، احدى افتتاحياتها (١٩٨٣/١١/٢٩) بهذا الشكل التهويشي : « التحدي العربي » فهي تبطن مالا تعلنه بمهارة ، فتستعدي ضد العرب الطغم اليمينية الحاكمة وغير الحاكمة في أوربا ، والرأي العام كله .

بالطبع لا يستغرب العرب من الرجعية والاوساط المحافظة الأوربية الرأسمالية هذا الموقف ، وهم لا يتوقعون منها اليوم كما لم يتوقعوا ابداً في الماضي أن تأخذ بيدهم في منحة اخوية نصوح ، القيام من عثارهم والسير على جادة التوحد والتقدم . فهذه الرجعية لم تقم مع العرب في تاريخهم القديم والحديث سوى علاقات الحقد والكراهية. فمنذ ان تناولت البورجوازية الاوربية في القرون الوسيطة لاستعمار الارض العربية باسم تحرير قبر المسيح ثم ردت مقهورة ، الى ان فازت بالسيطرة الاستعمارية المباشرة وغير المباشرة في عصرنا هذا على التراب العربي ثم انكفأت مقهورة مرة اخرى ، وهي ما انفكت تكن للعرب أبشع مشاعر الحقد وتكيد لهم بكل ما وسعت حيلتها من مكائد . الى ان قيض لها ان تفوز — معززة بقوة القهر الامريكية — بزرع بؤرة الشر الكبرى، اسرائيل ، في موضع القلب من الارض العربية .

وعندما يتحرك العرب ، ولما ينفضوا عنهم غبار المعركة مع الاستعمار، للخلاص من شر الشرور هذا ، لمجرد تحرير الارض والارادة ، تنعق ابواق الحقد ، وينادي فرسان الموت للتحلق في رقصة نار ضارية وقودها جلود العرب وزيتها دمهم .

★ ★ ★

ما الذي يسع العرب أن يفعلوه وتلك حالهم مع قوى التسلط والعسف ؟ أَمَا كان يكفيهم أن يواجهوا التحديات الأخرى الاساسية التي يطرحها العصر عليهم كما يطرحها على الأمم الأخرى التي تشكل قوام العالم الثالث ؟ أما كان يكفيهم ان يواجهوا مشكلات التقدم الاقتصادي للتخلص من الفقر والمرض ؟

أو مشكلات التقدم العلمي للحاق بركب الحضارة ؟

أو مشكلات الحرب والسلام والرعب النووي وقضايا الاشتراكية ، وكل ما عداها

من أمور تفرض نفسها اليوم على الضمير الانساني في الدول المتقدمة والمتخلفة على حد سواء .

بدل ذلك كله أخضع العالم الرأسمالي المتحضر العرب لأقسى التجارب عسفاً : تجربة الدفاع عن الوجود ذاته ، إضافة الى موكب الرزايا الأخرى من ابتزاز واستغلال وافقار .

تحضرني في هذه المناسبة كلمة شهيرة لبريشت :

« يجب تغيير العالم ، ومن بعد ، يجب تغيير هذا العالم المغير » .

ولكي يحيا العرب توجب عليهم أن يغيروا عالمهم : أنفسهم عن جهة ، ومن جهة أخرى واقع التسلط المفروض عليهم ، لا ليعكسوا الموازين فيصبحوا هم المتسلطين المتعنتين بل لمجرد أن يحيوا في الكرامة .

ذاك هو القوام الحقيقي للتحدي العربي كما يتلامح في أفق البدايات السبعينية لهذا القرن : تغيير العالم .. تغيير الصورة الكئيبة للعالم كما تظهر للعين العربية .

بهذا المعنى فقط هناك تحد عربي لا يمت بصلة للمعنى العدواني كما يصوره اليمين والرجعية في اوربا وامريكا ، بل هو أعمق ما يكون من أنسنة ومشروعية .

انه تحد ضد كل قوى الاحباط الذاتي والزجر الخارجي .

وجاءت حرب السادس من تشرين لتكرس هذا التحدي وتمنحه دينامية دافعة كان يتلظى أبداً لبلوغها . وكانت ثمرتها هذا التضامن الذي شمل العالم العربي من محيطه الى خليجه .

هذا التضامن وحده ، على ما يعتوره من منغصات ، استطاع كانجاز أول ان يقدم للعالم مشهداً جديداً لم يألفه : صورة الانسان العربي برفشته ، بعيداً عن زيف التاريخ المزور ، وعن تشويهات الرسامين الخاتلين .

تلك الصورة وحدها هي التي ينظر اليها ويتمعنها باهتمام ، مئات ملايين الناس في ارجاء المعمورة ، كما نظروا الى أحجار القمر الأولى النادرة التي جلبها رواد الفضاء الامريكيون .

وقد كفى هذا القدر من التضامن ليولد كل الانبهار وكل الموجات المترادفة من أشكال الفعل ورد الفعل التي حدثت ، فكيف بنا لو صُعّد التضامن ورسخت أصوله ووطدت دعائمه ؟ كيف لو سار خطوة الى أمام فترجم الى مؤسسة قائمة على أسس

تشريعية متينة ؟ ثم رفع ذات سنة ، في احـدى تلك القفزات الملهمة في تاريـخ الامم ، الى ضرب من الوحدة العربية الشاملة ؟

أترى هذا حلم ؟ في الحقيقة هذا الحلم عمره سـبعون سنة ، لكنه لم يكن في أي يوم ، بما توفر له من أسباب التقريب ، أكثر مشروعية منه في أيامنا هذه .

لنصغ الى هذين القولين :

مقتطف من أقوال الجنرال بوفر ، مدير مركز الدراسات الستراتيجية في فرنسا والمعلق اليميني الشهير فيجريدة الفيغارو ، بعيد حرب تشرين مباشرة وفي أعقاب موقف التضامن العربي في موضوع النفط :

« ان موقف العرب قوي بصـورة غير عاديه ، إذ اهتدوا الى الطريق نحـو التضامن الحقيقي » .

مقتطف من جريدة الفيغارو بعد مؤتمر القمة :

« اصبح العالم العربي قوة قادرة ومقنعة » (١) .

بالطبع لا يلذّ لنا هذا الكلام فطرسـة فارغة ، ونحن نعرف حدوده ومراميه ، بل لا تهمنا القوة التي تعترف لنا بها أوروبا إلا بمقدار ما تمثل من موقف مغاير كلياً لموقف العدو : فهو يستخدمها أداة للقهر والعدوان ونحن نتسلح بها لرد القهر ودحر العدوان . من هنا كانت قوة العدو شـريرة موجهة ضد المجتمع الدولي ، وقوتنا خيرة مباركة تقرها كل الشرائـع .

قوتنا التي تبعث من تضامننا تتجه في خط مسير التاريخ وليس ضده ، وتقف في صف القوى الصاعدة الوليدة ضد القوى الميتة ، وهي قوة اخلاقية في صالح المجتمع

---

(١) ينضم الى هذين المقتطفين ثالث من أحد كبار المسؤولين الفرنسيين صرح به لجريدة « لوموند » حتى قبل المعركة « ٢٣ آب ١٩٧٣ » ، يقول :

«حاذروا بخاصة من إثارة العرب .فحتى الآن ورغم كل ماقيل وكتب عن«أزمة» النفط ، فجهاز انتاج « الذهب الأسود » لم يمس ، وأكثر من ذلك فالتوظيفات مستمرة والمستقبل القريب سليم ، ويتوجب حتماً أن يستمر ذلك حتى تبلـغ البديل ، بعد ٥٠ سنة في أوروبا » .

لأنها أوقفت حركة التدهور والتشتت رأبت الصدوع الــتي خلفها الزمن في الشخصية العربيــة .

من هنا يمكن القول مرة اخرى ان التحدي العربي كان حقاً ، لكنه ليس موجهاً ضد الجماعة الانسانية ، بل ضد أسباب الانهيار والتجزئة والفقر ...

تحدٍ تنهض بـه أمة تطل على قـد تاريخها ، وفي مستوى تحديات العصر ، وتثبت مرة أخرى انها جديرة باختيار قـدَرها ، لا بمجرد الانصياع لاختيار الغير . وتوجها على طريق الوحدة ليس بدعة ، بل جهـد لتجاوز جميع الحدود القائمة بين الدول العربية كما فرضها الاستعمار وخططها في صالحه وحسبما ارتضاه وما اقتضته شـروط القسمة والتسويات بين مقتسمي الغنائم في غفلة من التاريخ .

* * *

ان التحدي العربي لا يقف عند المقولة الاولى لكلمة بريشت ، فلا يكفي أننا غيرنا عالمنا باتجاه التضامن من بعد التنازع ، وشد العزم من بعد التهالك . إن الخطوة التالية هي التوجه نحو تحقيق المقولة المكملة : « من بعد ، يجب تغيير هذا العالم المغير . » . . من بعد التضامن يجب أن نتساءل : « ماذا بعـد التضامن ؟ » ، ونسير في طريق تغيير ما غيرناه باتجاه الافضل .

هذا الجزء الثاني جزء أساسي للسير حتى الغاية في التحدي الذي نخوض غماره . وسؤال : « ماذا بعـد التضامن ؟ » يطرح مجموعة أسئلة يتوجب الاجابة عنها بدقة ووضوح ليمكن تحقيق خطى ثابتة لا تعرف التراجع . وهذه الأسئلة ، وكل ما تتضمن من قضايا يجب أن تواجه بلا ريب بأكثر الطرق مسؤولية ، بمستوى رفيع من العلم والتجربة الجماعية ، وفي الوقت ذاته بعيداً عن أن يجري ذلك ، على العكس ، بصورة حية ، كما في حوار صريح وعائلي مع بشر أحياء ، راشدين ، جديرين بالثقة ، مجموع ما تشير اليه كلمة « شعب » ، ناسين أحياناً كثيرة أنه يتألف من رجال ونساء وفتيان، وفتيات ، وشيوخ لهم حاجاتهم وحقوقهم وآراؤهم .

ومثل هذا الموضوع يستحق دراسات مستفيضة إن لم نقل انه يحتاج الى مجموعات عمل متخصصة ، ومع ذلك أسمح لنفسي بوقفة قصيرة .

من خلال الحرب ذاتها يخرج المرء — في جملة ملاحظات عديـدة — باثنتين أساسيتين :

١ – توضح أن تمام الانتصار في الحرب لا يأتي الا بتجاوز روح المغامرة الخيرة والايجابيــة والتي لا بد منها لاتخاذ قرار المواجهة ، الى مزيد من التنظيم العقلاني لكل قوى الثورة كطليعة لتجنيد شعبي شامل وداعم للقوة العسكرية الضاربة ، كما تنخرط كل الجهات في حمل عبء التضحيات .

٢ – ان مشاركات الدعم الصغيرة والكبيرة تشكل مبادءات تضامنية محمودة إذا هي جاءت المعركة دائرة ، لكنهـا لا تعطي أكلها بنحو أكمل وأوفى الا ضمن اطار التدريب المسبق الشامل والمستمر قبل بدء المعركة بأمد كاف ، مع ما يوفره ذلك من تنسيق وتعرف على الأرض ، وعلى الشريك . على صورة ما تفعل قوات حلف الأطلسي وقوات حلف وارسو كل على حدة ومنذ سنوات عديدة .

هذا في حرب محدودة هدفها ضمان وحدة التراب الوطني على مستوى قطري ، فكيف اذا خرجنـا الى مستوى معركة شاملة هدفها تحطيم حدود سبع عشرة دولة لكل منها مشكلاتها ، وضمها في دولة عظمى واحدة شأن ما جرى في ألمانيا وفي ايطاليــا في القرن الماضي ؟

ان الملاحظتين أعلاه تظلان – في زعمي – منارتين نسترشد بها خلال توجهنـا لبلوغ الغاية من التحدي العربي ، أي الوحدة العربيــة المنشودة ، بكل ما تقتضيه من تفتح على الحضارة واستيعاب لقضايا العصر وحلول مجتمعية سليمة ودافعة . فتدارك النقائص والأخطاء بداية الطريق الى السلامة .

أولاً – ان معنى الملاحظة الأولى ، اذا عممنا مفهومها ، ان الطريق الى الوحدة الصحيحة تقدمية ، ولا تتأتى الا بقيادة ثورية واعية وتقدمية ، وقادرة على المدى الطويل على لمّ صفوف جميع التقدميين في كل قطر على حدة وفي كل الأقطار العربية ، مع جميع الفئات الطليعية الواعيــة التي تسترخص التضحيات في سبيل هدف الوحدة ضمن اطار من التنظيم العقلاني الرفيع .

ثانياً – ان العفوية في البذل تفقد الكثير من فاعليتهـا ، وتسبب الهدر الذي يقود الى فتح الحسابات وتبادل الاتهامات . وما نحتاجه هي الحسابات الدقيقة والتآزر في خطة منهجية واضحة من البداية وذات أهداف محددة .

★ ★ ★

بعد ان اجتاز العرب حدود هزيمتهم بات في مقدورهم أن يركزوا أنظارهم على المستقبل . وقد عجبت لهذا التوافق بين ما قدمت أعلاه من مشاركة جد ضيقة في النظرة الى التضامن العربي ثم الى الوحدة كأعلى مراحل التضامن ، وبين ما أقرأه لتوي في آخر اعداد هذه المجلة كتذييل في اسفل ص ٢٥ من مقالة الاستاذ شكري فيصل، حول امكان اصدار عدد خاص من المعرفة عن حركة الوحدة في ضوء تجربة رمضان « تتجاوز فيه الحديث عن ضرورة الوحدة ، الى التوقف عند رؤية شاملة لها وتخطيط كامل » . الامر الذي يدل حتماً على مدى الضرورة المعنى في تعميق مفهوم الوحدة والارهاص بمعالمها على ضوء الواقع المتطور .

ان أوربا الكبيرة ذاتها ، المتعددة القوميات ، تتخذ من موقف قطع البترول حجة لتتنادى الى مزيد من التراص والتوحد ، بل هي تحقق خطى كبيرة على هذه الطريق ، ويتردد الآن انه لن يحل عام ١٩٨٠ حتى تكون دول أوربا قد حققت نوعاً من الوحدة يتجاوز الحدود القومية كيما تتمكن من مواجهة قضايا العصر بقوة وثقة . ونحن لا نتخذ لوحدتنا المنشودة من انظمتها البورجوازية مثالاً نحتذيه ، لكن تناديها ذاك صورة لضرورات العصر جديرة بتأملنا .

الوحدة أولاً

الغالبية من الناس ، لايجرأون على مواجهة نتائج تفكيرهم ، الا اذا دعها الواقع العملي . وهذا خير لهم ؛ إذ يقيهم شر النتائج الخاطئة ، فتراهم حذرين عملياً ، وإن كانوا « مقتنعين ، نظرياً . ولهذا كانت حرب السادس من تشرين ؛ والأصح يوم السادس من تشرين بالذات مفاجأة رائعة للجميع ، ولأسباب كثيرة يهمنا الآن واحداً منها فقط ، هو ماظهر في ذلك اليوم من « تضامن » عربي مدهش تجلى في ذلك التنسيق الأوركسترالي بين عشرات ألوف الشباب العرب ، كل واحد منهم حفظ دوره الصغير ، فخرجت المقطوعة من جهة العزف كلا واحداً .

كان بين المندهشين حتى الذين وهبوا الـ « تضامن » العربي حياتهم ودمهم وفكرهم . ألم يلمسوا باليد ماكانوا يضطرون لاغماض أعينهم لكي يتمكنوا من تخيله خيالا ؟

والآن ، بعد خفوت حدة « المفاجأة » لمرور الزمن ، ولأسباب أخرى صغيرة عابرة لاتكفي لنسف منجزات ذلك اليوم المبارك ، أصبح بالاستطاعة العودة الى رؤية ذلك « التضامن » رؤية حقيقية . إنه لم يخلق خلقاً ، بل كان موجوداً ، إنه جزء مما يجعل هذه الكيانات المصطنعة أمة واحدة ، وهو إعادة لدعم أبي عبيدة لخالد ، وتجهيز موسى بن نصير لطارق ، إنه ذلك الخيط المتين الذي منع الأمة من التفكك ألف سنة من الضنك والضغط .

وهذا كله قديم معروف ، ولكنه نصف الحقيقة ، أما النصف الآخر فهو النظر الى التضامن أو الاتحاد نظرة تعتبره «شيئاً» جامداً ساكناً كالبناء يهدم ويبنى ولكنه ، في النهاية ، يبقى أو يزول . لا . انه عملية مستمرة لا نهاية لها ، أو لا غاية لها بكل معاني كلمة غاية . وهذا يعني بلغة محبي التكنولوجيا أنه واقع (ديناميكي) وليس شيئاً استاتيكياً ، انه كالنار والحب والحياة أكثر من مجرد ذرات تتفاعل أو قلوب تنبض أو عقول تفكر ، لكنه لايعرف الا بها . مجموعة أعمال صغيرة جداً تقوم بها في النار كل

ـدرة وفي الحب كل لفتة وفي الحياة كل خلية : هذا هو التضامن ، روح الامة او مقومها الفريد . وهذا يفسر كيف ينسلخ المرء عن أمته اذا تركها الى أمة جـديدة يندمج في سلوكها ولا يختلط بها اختلاط الحروف بالتطبيع فحسب ؛ ويفسر تكون الامم الجديدة في أمريكا مثلاً ، وهي ان كانت (مصطنعة) و (مراهقة) فلان نشوء الامم يحتاج الى ألوف السنين من (العمل) المستمر ، ولا ينشأ بنزوة أو بمرسوم ؛ وهذا ينفي العرقية والدم ، وغيرها من المقومات ذات الاثر الطفيف الذي يولغ به فأدى الى كوارث .

ومتى اتضح مفهوم التضامن اتضحت كيفية تحققه : انها العمل التضامني . والتشديد على الاعمال الصغيرة التي تحققه ، مثل الحرب يعلنها القائد ويخوضها الجنود . أما الأعمال الكبيرة فقد ثبت أنها خادعة اذ هي اما شكلية واما جملة أعمال صغيرة . ولهذا كانت الهيئات واللجان والمؤتمرات وسيلة ناجعة لزيادة تعقيد الأمور بدلاً من حلها . لقد طالب الارسوزي ذات يوم بالغاء جامعة الدول العربية ، وبالغاء جوازات السفر ، فوراً . وتوحيد بعض الشعارات والمظاهر العملية ؛ واتخذ منهـا مثلاً على عدم جدية النظم العربية في الاهتمام بالوحدة : إن اختلافهم على توحيد لباس الشرطة ، بعد العديد من المؤتمرات ، دليل على سوء نيتهم أقوى من خسارتهم لمعركة جدية ولو طبق هـذا المبدأ لانكشف الكثيرون وانفضحوا ، اذ هو يحكم على الاعمال لا على الاقوال . فالكلام في التضامن مثل الكلام في تحرير المرأة منذ ربع قرن . احتدمت المعركة بين مؤيدين ومعارضين ، ثم لم تنته الى نتيجة ؛ وتحررت المرأة ؛ ومن يقرأ قاسم أمين نصيرها يجد أنه كان أعدى أعدائها اذ فهم من تحريرها أموراً لاتزيد عن حرية التظاهر ، لماذا ؟ والتعليم ، في وقت كان معظم رجاله جهلة ؛ والعمل في وقت كانت البطالة تضرب المجتمع بأكمله .

ترى متى يبدأ العرب بتوحيد لباس الشرطة ؟

عبد الحميد الحسن

حرب تشرين

شهادات واقعية *

(*) تنشر « المعرفة » الجزء الثاني من الشهادات الواقعية التي أدلى بها اجانب مقيمون في دمشق . وقد نشر الجزء الاول من هذه الشهادات في العدد الماضي .

باسم الصداقة والسلام

الدكتور ابراهيم حكيموف
مدير المركز الثقافي السوفييتي في دمشق

منذ فجر ثورتنا الاشتراكية ،دعا قائدنا ومعلمنا فلاديمير ايليتش لينين في روسيا التضامن مع كادحي الشرق .

وشعبنا اذ يقدس هذه الدعوى وبصورة دائمة يعلن تأييده مع جميع شعوب الشرق العربي الذي يناضل في سبيل استقلاله الوطني والتحرري .

وان صداقتنا مع الشعب العربي تقليدية وتاريخها طويل .

ان قادتنا وعلماءنا ورجالات العلم والثقافة ومئات الاعمال العلمية المكتوبة وآلاف الكتب والكراسات يشيدون بالنضال البطولي لشعوب الشرق العربي وثقافتها القديمة وتخليد ذكراها الجيدة .

ولقد جاء في كلمة الرفيق ليونيد بريجينيف في المؤتمر العالمي للقوى المحبة للسلام في موسكو وفي ٢٦ اوكتوبر عام ١٩٧٢ شارحا سياسة مغامرات القادة الاسرائيليين وقال ان النضال البطولي للعرب ينمو بتضامن الدول العربية وقال : ان العرب لا يرضخون ابداً للعدوان الاسرائيلي وبأنهم لا يرضون بديلاً عن حقوقهم الشرعية .

ولقد أكد الرفيق بريجينيف بأن الاتحاد السوفييتي يؤيد بقوة وبحزم المطالب العادلة للشعوب العربية .

ونحن السوفييت الذين ضحينا بأكثر من عشرين مليوناًمن خيرة أبنائناوفتياتنا من وطننا المتعدد القوميات خلال الحرب العالمية الثانية في سبيل الاستقلال وفي سبيل

الحرية وباسم السلام لاولادنا فانه ليؤلمنا ان نشاهد الناس الابرياء وهم يتساقطون برصاص وقنابل العدوان الامرائيلي .

وإننا اذ لنشعر بآلام ومصائب الالاف من الامهات العربيات والنساء والأطفال الذين فقدوا ابنا لهم أو أخا زوجا أو أبا .

وبنتيجة القصف القرصني لسلاح الجو الاسرائيلي في ٩ تشرين الثاني تهدم المركز الثقافي السوفييتي كلياً في دمشق واستشهدت معلمة الدورات للغة الروسية في المركز الثقافي الرفيقة كالينتشفا الكسندرا بيتروفنا ـ والتي شاركت في الحرب العالمية الثانية فلقد كانت مربية رائعة وانسانة عظيمة ووطنية . ومعها ايضاً استشهد المدير الاداري للمركز الثقافي السوفييتي الصديق الكبير للاتحاد السوفييتي الدكتور محمد امين ، وكما اصيب الكثيرون من موظفي المركز بجروح وكانت هناك خسائر مادية كبيرة .

وكما هو معلوم للجميع والطيارين الاسرائيليين بالذات الذين القوا بقنابلهم على المركز الثقافي السوفييتي ، بان المركز ليس هدفاً عسكرياً .

وهكذا مضى أكثر من شهرين على أيام القصف الاسرائيلي البربري للبيوت الآهلة بالسكان في دمشق وبالرغم من الدمار الذي لحق ببناء المركز الثقافي السوفييتي فان الكثيرين من سكان المدينة وضيوفها قد أمّوه وقد تكلم أصدقاؤه بود كبير كيف أنهم كانوا يشاهدون في هذا المركز في الأمسيات الأفلام السوفييتية وأنهم كانوا يلعبون بالشطرنج أو يسمعون الموسيقى السوفييتية ، ويستلموا من المكتبة الكتب السوفييتية المحببة اليهم وللمؤلفين الأجانب .

ولقد وصلت الى عنوان مركزنا الثقافي السوفييتي عشرات البرقيات والرسائل ومن مختلف المنظمات الاجتماعية، وايضاً من أعضاء جمعية الصداقة السوفييتية - السورية وفروعها مقدمين تعازيهم باستشهاد كالينتشفا والدكتور محمد أمين .

وكانت ايضاً برقية اتحاد شبيبة الثورة في سورية والاتحاد النسائي السوري والاتحاد النسائي الفلسطيني في سورية ، ومن رابطة الطلبة الاردنية في دمشق ومن كثيرين غيرهم .

ولكوني مستشرقاً ، فقد عملت زمناً طويلاً مدرساً في جامعة طشقند ، حيث التقيت مع طلاب وعمداء من البلدان العربية ، الذين يتلقون العلم عندنا ، ولمدة طويلة

كنت عضواً في جمعية الصداقة والثقافة الأوزبكية مع البلدان الأجنبية وكنت دائماً التقي مع أناس عرب من مختلف المهن .

فالشعب العربي من طبيعته محب للسلام ومفطور على الضيافة والبساطة .

وعندما كنت في ٩ تشرين الثاني مع السكرتير الأول لسفارة الاتحاد السوفييتي الرفيق فومين وكنا بلا مأوى وأثناءها عرض علينا العيش ليس فقط من قبل الأصدقاء القدماء بل أيضاً من قبل الذين لا نعرفهم إلا قليلاً .

في السادس عشر من تشرين الثاني وصلت الى طشقند وعملت بعض الوقت في جامعة طشقند وفي خلال ذلك الوقت القصير لوجودي فيها تكلمت في التلفزيون الأوزبيكي وتحدثت لمشاهديه عن جرائم الطغمة الاسرائيلية التي قامت بها في الأرض العربية .

كما وتحدثت أمام مستخدمي وأساتذة وطلاب وعمداء الجامعة وفي عدادهم كان كثيرون من رفاق الأجيال السابقة عاشوا أهوال الحرب العالمية الثانية .

ولدى الشعب الاوزبكي معرفة بنضال شعوب سوريا ومصر وفلسطين الذين يدافعون عن حقوقهم وسيادة ووحدة أراضيهم .

تعتبر جمهوريتنا احدى دول اتحاد الجمهوريات ذات السيادة والمتعددة القوميات بتركيبها . وبالمنشأ مع الأوزبكيين يعيش أكثر من ٧٠ أمة قومية . ومن بينهم اليهود .

وفي القاعة التي تبادلت فيها الحديث عن انطباعاتي أوضحت كيف إن الدعاية الاسرائيلية تبث كل يوم برنامجاً تتحدث فيه عن اليهود الذين يتمنون العودة الى وطنهم « التاريخي » وكان من بين الحضور رفاق من ذوي الجنسية اليهودية والذين قالوا بغضب واستياء :

ان على اسرائيل الا تعتمد علينا ابداً ـ فعندنا وطن واحد ـ هو الاتحاد السوفييتي »

وفي الايام التي جرت فيها الاعمال الحربية في كل من سوريا ومصر وعندما تحطمت فوق دمشق عشرات الطيارات الاسرائيلية وأريقت دماء الابرياء من الناس من شيوخ واطفال ونساء ارتفع صوت وطننا الكبير من جميع ارجائه محتجاً ضد الاعتداءات الاسرائيلية .

وفي كل مكان ـ في المعامل والمصانع والكولخوزات والسوفخوزات والمدارس والمعاهد الدراسية العليا اقيمت الاجتماعات معلنة تأييدها للشعب العربي .

وبشوق زائد تلقى الشعب السوفييتي بيان الحكومة السوفييتية الذي يدعو وبسرعة لوقف العدوان الاسرائيلي .

في الوقت الحـــاضر وبمساعدة وزارة الثقافة والارشاد القومي في سوريا ابتدأ المركز اعماله في المركز الثقافي العربي وفي مركز جمهورية المانيا الديمقراطية .

وفي القريب العاجل وبمساعدة اصدقائنا السوريين فأننا نبني مركزاً ثقافياً جديداً وبشكل دائب سنعمل على تعريف واطلاع المجتمع السوري على ثقافة الاتحاد السوفييتي المتعدد القوميات .

وفي نهاية المطاف اريد ان اؤكد لقراء مجلة المعرفة ، بان الاتحاد السوفييتي كان وسيكون صديقاً للشعوب العربية وصديقاً لجميع الشعوب المناضلة في سبيل الاستقلال الوطني والسيادة الكاملة على اراضيه ومن اجل بناء حياة جديدة .

في الشدائد يعرف الأصدقاء

اوليغ فومين
عضو المكتب التنفيذي لجمعية الصداقة السوفييتية – السورية
السكرتير الأول لسفارة الاتحاد السوفييتي في الجمهورية العربية السورية

كثيراً ما تتحدث الأمثال العربية والروسية ، على أن الصفات الانسانية وقيم الصداقة ، يختبران في الأوقات العصيبة والشدائد .

ومرة أخرى تأكدت لي ، وعلى مر العصور ، وفي شهري تشرين الأول وتشرين الثاني من هذا العام ، حكمة الشعبين العربي والروسي .

في أيام الحرب الرابعة العنيفة بين العرب واسرائيل ، وفي أيام ما بعد الحرب ، اقتنعت بعدالة وحذاقة الأمثال العربية والروسية .

وكذلك الأمر في الحرب الرابعة وعلى مدى عشرين عاماً ، وعقب كل حرب توسعية اسرائيلية بسبب عقيدة كراهية الصهيونية للانسانية .

ومما لا شك فيه أن الصهيونية تحاول أن تمتد وتتوسع على حساب الشعب العربي، وقد سمعت باستياء لا يعرف الحدود ومعي أيضاً الشعب السوفييتي وجميع الشرفاء في العالم بعويل ونباح راديو اسرائيل ، وهو يصرخ وبلا خجل قائلا : « بأن القوات العربية قد وصلت الى الحدود الاسرائيلية ، وبأن قواتهم أي القوات الاسرائيلية تقود معارك طاحنة مع هذه القوات » نعم قالوا « هذه أرضنا » ، واني لم أخطىء السمع بتاتاً .

وان حكام اسرائيل وبكل نذالة ووقاحة ، قد ضربوا بعرض الحائط بالمبادىء الانسانية والحقوق الدولية ، وظنوا بأن الأرض العربية التي احتلوها نتيجة عدوانهم الغادر عام ١٩٦٧ هي غنيمة شرعية لهم ، وبأنهم غير عازمين على التخلي عنها مطلقاً .

وفي الأيام الأولى للحرب تغير وجه دمشق كلياً ، بل وأصبحت عبارة عن مدينة

تشبه جبهة حقيقيــة ، فعلى مفارق الطرقات والشوارع كنت تشاهد الشبان والشابات يوقفون السيارات ويطلون مصابيحها باللون الأزرق ، والشبيبة تتطوع في فرق الدفاع المدني وفي المساء كان الظلام يخيم على المدينــة ، وكان يسمع وبشكل متواصل صوت المدافع من الجبهة .

فالدمشقيون هم عادة أناس مرحون ، يحبون الحيــاة ، ولكن الظروف جعلتهم أيضاً يتغيرون ، فأصبحت نظراتهم كالحارس ، يقظــة لا تهدأ أبداً بل وأكثر جدية ، وكان هذا الشعور موجوداً عند الشعب كله .

ويكن الشعب السوفييتي للشعب السوري عطفاً خاصاً . وكما هو معلوم فان الشعب السوري يساهم في التراث الثقافي العالمي ، وهو قــد طرد الغرباء عن الديار من الغزاة الصليبيين عن الأرض العربية ، وعدا ذلك كله يحتل السوريون مكاناً خاصاً في الحركة الوطنية التحررية العربية ، ولقد كان لثورة أوكتوبر الاشتراكية أثر كبير في ذلك .

كانت سوريا ومازالت السباقــة في تطوير العلاقات العربية – السوفيتية ، وهي تلعب دوراً بارزاً في توطيد وتوسيع هذه الصداقة .

وها أنذا أعيش بين هذا الشعب المضياف الطيب والموهوب أربع سنوات مطلعاً على كل عالمه .

فسوريا تعيش منذ عــدة سنوات في ظروف عدوانية اسرائيلية امبرياليــة متكررة واستفزازات عسكرية دائمة من قبل الطغمة الاسرائيلية ، ولكن رغم كل هذا فانني قد شاهدت السوريون ولأول مرة وهم يقاتلون في حرب حقيقية شعبية فالشعب قد قاتل الى جانب جيشه .

ولقد كان لكلمة الرفيق حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية في ٧ تشرين الثاني الموجهة للشعب أثر بالــغ في نفسي ،وفي نفس كل عضو من أعضاء الجاليةالسوفيتية.

لقد جاءت الكلمة ساطعة ومحتواها قد استدعى أمامي حادثة مشهورة حــدثت عام ١٩٤١ في العرض العسكري وفي الساحة الحمراء على شرف ذكرى ثورة اوكتوبر العظمى وقد توجهت الفرق العسكرية من العرض مباشرة الى الجبهة التي كانت تقــع في ذلك الوقت على بعد عشرات الكيلومترات من موسكو وهنا أيضاً تقدموا في المعركة ، وبالرغم من الحالة الصعبة هتف الشعب عندها : « الحق معنا – النصر في النهاية سيكون

خليفتنا » هذا وقد أنعشت كلمة الرفيق حافظ الاسد الشعب بأسره ، وجعلته يلتف حول الجبهة الوطنية التقدمية .

ولقد سنحت لي الفرص يومياً لاختبار الروح العالية للسكان وحبهم لوطنهم ولقد كان أهل دمشق يراعون النظام في كل شيء ، وعلاقاتهم بين بعضهم البعض كانت قلبيـــة وأخوية وأكثر تفهماً .

وبالرغم من المعارك القريبة الحامية الوطيس فهم لم يغادروا مدينتهم كما أن التجار لم يرفعوا أسعار السلع ، وقد ذهب أعداد كثيرة للجبهة ، ودعي للجيش قسم كبير من الاحتياط ، وقد كان من جملة مادعي موظفون يعملون في المركز الثقافي السوفييتي ، وقد قالوا عندما كنت في وداعهم : لقد انتظرنا هذه الساعة طويــلاً ، ونحن على أتم الاستعداد لتأدية الواجب في سبيل النصر ، واننا لنعتبر أن الموت في ساحة الوغى وفي سبيل الوطن لشرف مقدس .

وفي التاسع من تشرين الثاني تعرضت الأهداف المدنية في دمشق لقصف بربري من قبل سلاح الطيران الاسرائيلي ، ولقد رويت الأرض المقدسة بدماء عشرات الابرياء من النساء والاطفال . ونتيجة القصف المباشر دمر المركز الثقافي السوفييتي الذي يعطي بسخاء للاخوة السوريين تجربة بناء ثقافة جديدة مستمدة من قلعة الاشتراكية المنتصرة ، والذي ينشر افكار العالم من عدالة وانسانية نابعة من طبيعة وشكل الحياة الاشتراكية لشعوب الاتحاد السوفييتي .

وقد كان من نتيجة القصف ان استشهدت الكسندرا كاليليتشفا رئيسة قسم اللغات الروسية التي كانت متطوعة في الحرب الوطنية في عـــداد الممرضات وفي الجبهة من عام ١٩٤١ وحتى عام ١٩٤٥ . عندما بدأت الحرب رفضت ان ترحل عن دمشق وقررت ان تبقى مع الاخوة السوريين في ايامهم العصيبة والخطرة .

واستشهد كذلك المدير الاداري المركز الثقافي الدكتور محمد امين ولقد كتبت الصحف السوفييتية المركزية عنه بأنه الصديق الكبير للشعب السوفييتي . فهذا الرجل لم يعش دقيقة واحدة من أجل نفسه ، فقد اعطى كل شيء للناس وبلا مقابل . ولقد كان طوال الوقت يعمل على توطيد وتطوير الصداقة العربية السوفييتية وكرس لهذا حياته ومعارفه كلها .

ولقد كان لفقدانهم اعمق الاثر في نفوسنا ، وستبقى ذكراهم مضيئة خالدة في قلوبنا وفي قلوب الكثيرين من السوريين وفي قلوب الاصدقاء السوفييت .

ونبل السوريين يكمن في استجابتهم واستعدادهم لمساعـدة الصديق في الاوقات الصعبة ، وهذا ما تمثل امامي بعد ان قصفت مدينة دمشق وقد كانت شجاعة اهل دمشق ساطعة واضحة واخذوا يرددون : اندحر العدو وهزم على الجبهة ، ولذلك قرر ان يوجه اسلحته ضـد النساء والاطفال ، ولكن عبثاً يحاول لتحطيم ارادتنا ـ فهذه الاعمال الاجرامية لتل ابيب ما هي إلا عبارة عن سيوف صلبة تضرم نار الكراهية للنازيين الصهاينـة .

بنتيجة القصف الوحشي الاسرائيلي تهدمت شقتي نهائياً ، وبهذا الصدد عرض علي الكثيرون من الاصدقاء السوريين مشاطرتي الاهم مسكنهم .

ولقد تمت زيارة وزير الثقافة في الجمهورية العربية السورية السيد فوزي الكيالي وبرفقة مدير المركز الثقافي الرفيق حكيموف . ولقد عبر لنا الوزير باخلاص عن تعازيه الحارة وتأثره العميق باستشهاد الزملاء موظفي المركز الثقافي مؤكداً بأن موت مديرة اللغة الروسية كالينيتشنا قد وطد وبالدم الصداقة السوفييتية السورية ، وقال لنا متأثراً بان استشهاد كالينيتشنا سيذكر السوريين والى الابد بان السوفييت مستعدون لتقديم كل شيء وحتى حياتهم في سبيل الصداقة مع العرب . كما وحدثنا الوزير كيف ان ولديه قد تطوعوا للعمل في المستشفى ويبدون كل مساعدة ممكنة للجرحى من افراد الجيش .

وقد قمنا ايضاً بزيارة نائب وزير الثقافة السيد اديب اللجمي والذي لم يدع مكان عمله ، وقد قـام بجميع الاجراءات الضرورية من اجل انتشال جميع جثث الموتى من تحت انقاض المركز .

ولقد كان للسيد اديب اللجمي ولقائـد الجيش الشعبي في سوريا محمد ابراهيم العلي وكثيرين من الناس السوريين البسطاء الفضل الكبير في ارسال جثمان الشهيد كالينيتشنا الى موسكو .

وقد اقيمت حفلة تأبينية لكالينيتشنا ، حضرها ممثلون عن المنظمات الاجتماعية في موسكو وكذلك ايضاً الطلاب العرب الذين يدرسون في معاهد موسكو ، وفي عدادهم ايضاً خريجو دورات اللغة الروسية في دمشق . ولقد ألقى في هـذا الاحتفال الرفيق

جميل شيـا سفير الجمهورية العربية السورية في الاتحاد السوفييتي ونائب رئيس جمعية الصداقة السورية السوفييتية كلمة اتخذت عـلى شكل مسيرة من الغضب والتضامن بين الشعبين السوفييتي والسوري ، مسيرة تضامن جميع الشرفاء من الناس للنضال ضد الورثاء الروحيين الفاشست الحقيرين .

وفي السابق ناضلت كاليفيتشفا ضد الفاشست وتابعت نضالها ضد الصهيونية ، وكأن موتها يدعو الناس الوقوف في وجه عقيدة كارهي الانسانية مثل الفاشست المبنية على تفوق امة على امة وبأنها تملك الحق بارتكاب اي جريمة.لم تترك عائلة اديب العجمي مدينة دمشق بالرغم من ان بيته اصابه بعض الخراب في اثناء القصف وأن زوجته كانت على رأس عملها في وزارة التربية .

وبغض النظر عن الغارات الجوية المتلاحقة فقد سارت الحياة سيرا طبيعياوجميع معارفي وأصدقائي كانوا في عملهم يشتغلون بدأب ونشاط وذلك في المعامل والمصانع وفي المؤسسات والمستشفيات .

في الحادي عشر من تشرين الثاني ، وبعد هجوم الطيران الاسرائيليعلى مستشفى المزة ، في تلك اللحظة كانت تقدم المساعدة لطيار الاسرائيلي الاسير ، وفي حالة الطوارىء هـذه قلقت على مصير الدكتور ابراهيم نعمة عضو جمعية الصداقة السورية السوفييتية وعلى الفور تناولت التلفون وادرت الرقم وحالا سمعت صوته القوي الرنان المعروف . ولقد حدثني بان القنبلة الاسرائيلية قدوقعت على بعد خمسين متراً منمكتبه وفي منطقة المزة حيث يسكن هناك تحطمت طائرة اسرائيلية ووقعت على بعد مئة متر من منزله ، واما امرأته جهان فقد ثابرت عـلى عملها وبشكل متواصل في التلفزيون العربي السوري وحتى خلال قصفه .

لقد امتلأ قلبي فخراً بالاصدقاء السوريين ، الذين اظهروا جرأة فائقة في القيام بواجبهم تجاه وطنهم .

وفي كل خطوة كنت تخطوها كانت تصادفك النزاهة والاخلاص والروح العاليـة لسكان البسطاء ولكادحي دمشق ، فالحارس الذي كان يحرس بقايا المركز رفض انيأخذ هدية قدمت له وقد كانت عبارة عن اسطوانة ولم يقبلها مـا لم يسمح الضابط له بذلك وقال الجندي لي ان من واجبي المحافظة على سلامة الاملاك العائدة للمواطنين الاجانب والسوريين وليس قبول هدايا .

ولقد ساعدني رئيس دورية البوليس على ايجاد الخزانة من تحت الانقاض بتحمس شديد وان ما يوجد فيها لا يخص المركز بل يخصه هو وقد كان برفقتي الدكتور حكيموف .

وذات مرة اقتربنا من احد المخابز وعلى الفور عرفنا الخباز باننا سوفييت وبغبطة قدم لنا رغيفا ساخنا ورفض رفضاً قاطعاً ان يأخذ ثمنه .

ولقد عاشت المدينة حياة قاسية ولكنها كانت تسير بشكل طبيعي فقد عرف كل فرد مكانه وواجباته .

والشيء الذي يدعو للدهشة والاستغراب هو الادعاءات المفترئة والكاذبة لمطلق الاذاعة الاسرائيلية بأن دمشق أصبحت مدينة مشلولة ، وأن الفزع قد ساد بين السكان وانتشر الجوع لفقدان الخبز .

هذا وان جميع السوفييت دبلوماسيين كانوا أم خبراء م أيضاً كانوا في أمكنتهم أي على رأس عملهم في كل من دمشق وحلب وطرطوس واللاذقية وفي جميع مشاريع التعاون الاقتصادي السوفييتي السوري .

وقد انشغلوا بأعمالهم الاعتيادية بهدوء وجدية واستلموا البضائع الواصلة على السفن الروسية . وفي مكاتب التصاميم عملوا على رسم الخطوط الحديدية والطرقات المعبدة للمستقبل كما وأنهم يساعدون سوريا لبناء سد الفرات العظيم .

لقد كان يعمل المراسل الصحفي لوكالة الأنباء السوفيتية «تاس» باريس اورونوف ليلاً ونهاراً ويرسل الانباء الى الاتحاد السوفييتي عن المعارك الطاحنة على الجبهة السورية وعن بسالة القوات السورية والسكان ، وبالمقابل فقد كان ينقل عن موسكو الى أجهزة الأخبار السورية بيانات تاس والحكومة السوفيتية التي تشجب بشدة العدوان الاسرائيلي وتعلن عن تأييد السوفييت المطلق للشعب العربي الذي يحارب في سبيل تحرير وطنه .

وفي الأيام الأولى للحرب ونتيجة لاحدى الانفجارات القويةتحطم البلور والنوافذ في غرفة عملي .

ولقد قاد الاشراف على نشاط الجالية السوفييتية سفير الاتحاد السوفييتي في الجمهورية العربية السورية الرفيق نور الدين محي‌الدينوف ، والذي هو معروف كصديق

كبيز ومخلص للشعب السوري . ولقد اعطى مثلاً ساطعاً لجميع اعضاء الجالية السوفييتية وذلك برباطة جأشه وهدوئه ورجولته الشخصية . وهنا اريد ان اشير بان سفيرنا يعتبر مؤسس جمعية الصداقة السوفييتية ــ السورية ، وداقاً هو قائدها .

ولقد لمس السوريون وشعروا بوقوف السوفييت الى جانبهم وهم للحق قد قيموا ذلك في خلال هذه الحرب ابدى الاتحاد السوفييتي علاقته الاخوية لسوريا ، وكان هذا بشهادة كثيرين من الاصدقاء السوريين ، وهو متأهب لمساعدتها ، بل واكثر من السابق وكما هو معلوم للجميع ، بان تأييد الاتحاد السوفييتي فعال لايتبدل ابداً وعلى امتداد العلاقة السورية ــ السوفييتية .

ولقد تيسر لي ان اراقب رد الفعل القومي من سكان دمشق حول اسقاط الطائرات العدوانية المباشر فوق المدينة ، من انواع الفانتوم والميراج والسكايهوك .

ولم استطع ضبط انفعالي ، وشعور بالفخر بقاذفي الصواريخ السوريين ، فهم وبشكل رائع اتقنوا استعمال الاسلحة السوفييتية الحديثة ، ولقد استقبلوا عند كل طائرة اسرائيلية محطمة حاملة الموت والدمار بهتافات عالية : « ليحيى الاتحاد السوفييتي ولتعش الصداقة العربية السوفييتية » .

ولقد كانت الطائرات تتلاشى كفقاعات الصابون والتي كانت في السابق تمثل تفوقاً جوياً . ولم تكن الطائرات تتحطم بواسطة الصواريخ فقط ، بـل بشجاعة الطيارين السوريين ايضاً والذين بمهارتهم وجرأتهم انتزعوا اعجاب جميع الاصدقاء الحقيقيين للعرب ولقد تلاشت كالدخـان الخرافة الاسرائيلية التي لاتقهر ، تفوق الجندي الاسرائيلي في قمم ومرتفعات الجولان وفي سماء دمشق .

وانك تشاهد ذلك وبالتفصيل على محيا الطيارين الاسرائيليين المحطم ، وعلى جميع الاسرى من افراد القوات المختلفين والمعروضين في التلفزيون العربي السوري .

وهنا اريد ان اقيم وبشكل جيد موقف وسائل الاعلام السورية في زمن الحرب من اذاعة وتلفزيون وصحافة . فالشعب كان يتلقى كل يوم الانباء الموضوعية السريعة . ولقد ساهم بكل نشاط موظفو الخدمات الاعلامية مساهمة كبيرة في تربية الجماهير الوطنية العسكرية وفي تعبئتهم لتنفيذ الاهداف القومية الكبرى ولقد تبين الفرق الساطع بـين وسائل الاعلام السوري والاعلام الاسـرائيلي الذي لا يتوقف عن التشويش والتزييف

وبتعبير صائب لاحد مراسلي الصحف السورية في ان الاسرائيليين لا يزالون يفكرون بأنهم يعيشون في عام ١٩٦٧ وليس في عام ١٩٧٢ .

وكان من اهم نتائج هذه الحرب ، افول نجم الرجعية البشع والصهيونية وجميع اعداء الصداقة العربية – السوفييتية ، الذين حاولوا ان يوعزوا للشعب العربي بضعف وعدم جدوى الاسلحة السوفييتية ، ولقد اقتنع الجنود في الجبهة والناس المسالمون في المدن والقرى وبخبرتهم الشخصية بقوة وفعالية الاسلحة السوفييتية وتفوقها على السلاح الموجود في ايدي الاسرائيليين .

في السادس عشر من تشرين الثاني غادرت دمشق بمهمة عمل الى موسكو ولم تبارحني الثقة مطلقاً بأن المدينة سوف لا تسقط ابداً ولا يمكن ان ينجح وينفذ امر موشي دايان .

وبتعويذ كررت اسم كتاب «فارس زرزور» « لن تسقط المدينة » وصلت موسكو واقتنعت شخصياً بتتبع الناس السوفييت وباهتمام دائم بتطور الاحداث في الشرق الاوسط .

وان العائلة المتعددة القوميات لشعوب الاتحاد السوفييتي تؤيد وبروح واحدة جميع خطوات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وان الحكومة السوفييتية تهدف الى الكف عن إراقة الدماء في هذه المنطقة والى ايجاد سلام دائم وعادل في هذه البقعة من العالم .

ولقد صادقت عامة الشعب في الاتحاد السوفييتي على السياسة الخارجية لدولتنا والموجهة الى انسحاب جميع القوات الاسرائيلية من جميع الاراضي العربية المحتلة والاستجابة لارضاء حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

ويدعو الاتحاد السوفييتي بكل قوته وطاقته ونفوذه على المسرح الدولي وبدون تردد في سبيل تحقيق هذه الاهداف .

ان مئات من الجرائد والمجلات الصادرة في الاتحاد السوفييتي ، وفي جميع برامج الراديو والتلفزيون المركزي وجميع الجمهوريات السوفييتية يحملون للانسان السوفييتي حقيقة الاوضاع الدائرة في الشرق العربي ، وعن أهداف العرب والاسرائيليون في هذه الحرب ، وعن تعزيز وتكاتف جميع صفوف العرب للنضال ضد الصهيونية العالمية والامبريالية الدولية .

وفي شارع موسكو المركزي الملقب بغوركي ، وعند واجهة عرض الصور التابعة لوكالة تاس ، يتجمهر الناس ويحدقون بامعان بالصور، وتمتلىء عيونهم بالدموع ، بمنظر الاموات من الاطفال والنساء العرب . وبشعور من الاحتقار ينظر أهل موسكو الى أسرى الحرب الاسرائيليين الذين كانوا بالامس غزاة متعجرفين ومحتلين .

وبما أنني كنت شاهد عيان ومطلعاً وبصورة مباشرة على الاوضاع ، دعيت من قبل المؤسسات الجماعية السوفييتية والشركات والمعاهد العلمية والثقافية لالقاء كلمة .

وبشعور من الفخر بأصدقائي السوريين ، حدثت الناس السوفييت عن جرأة وبطولة وشهامة الشعب السوري ، وعن شعوره وشكره العميق تجاه الاتحاد السوفييتي، الذي قدم له كل المساعدات الضرورية كما وتكلمت ايضاً عن غدر وقساوة ونفاق الصهيونية.

ولقد أجرينا جلسة خاصة لادارة جمعية الصداقة السوفييتية — السورية والتي اتخذت بالاجماع بارسال برقية الترحيب الحارة لجمعية الصداقة السورية — السوفييتية ولجميع الشعب السوري .

ولقد أقيم في تلك الايام خطابات جماهيرية تضامناً مع الشعب العربي ، من قبل جمعيات الصداقة بين الاتحاد السوفييتي وكل من سوريا والعراق ومصر .

وأقيمت كذلك في الكولخوزات والسوفخوزات والمؤسسات والمعاهد الدراسية في مدن كثيرة من الجمهوريات السوفييتية .

ولقد شارك الكادحون السوفييت والطلاب والتلامذة ، مشاركة فعالة في جمع التبرعات المالية لمساعدة الشعوب العربية وتبرعوا كذلك بدمائهم من أجل الجرحى .

وان كثيراً من السوفييت أعلنوا عن استعدادهم للسفر وبكل طواعية الى الشرق الاوسطمن أجل مساعدة العرب في اعادة بناء الاقتصاد الوطني الذي دمر أثناءالحرب، ومن اجل العمل في المستشفيات ، بل وفي أي مكان يطلب المساعدة الضرورية .

وفي ٢٦ تشرين الثاني حضرت المؤتمر العالمي لمحبي السلام الذي انعقد في موسكو. ومن على منصة قصر المؤتمرات في الكرملين خطب الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي الرفيق ليونيد بريجينيف المناضل العظيم في سبيل السلام والعدالة في العالم أجمع ... كلمة تاريخية هامة .

وفي حديثه هذا وأمام ممثلي جميع الأمم قد أكد مرة أخرى وفاء الشعب السوفييتي لوصايا لينين العظيم – مؤسس الصداقة العربية – السوفييتية . وقد أعلن الرفيق بريجينيف بأن الاتحاد السوفييتي قد أصر دائماً على استرجاع الأراضي المحتلة من قبل اسرائيل للدول العربية وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة .

ولقد سار الاتحاد السوفييتي وما زال سائراً على هذه السياسة وانني لأرى ابتهاج أعضاء الوفد الفلسطيني ، والقاعة تصفق لقادة الحزب الشيوعي السوفييتي ، وفي أعماقي يتأجج افتخار عظيم لوطني ، الذي هو دائماً وفي هذه المرة بالذات وعلى مدى تاريخه الطويل احتل مكانة نبيلة ، مكانة مساعدة الشعب الذي يناضل ضد الامبريالية والصهيونية وفي سبيل الحرية والاستقلال ، وفي سبيل بناء مجتمع جديد .

وبعد مدة رجعت الى دمشق ، وانني لا أريد اخوض في تقييم نتائج الحرب التي حدثت جيداً في الكلمات التي ألقاها الفريق حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ووزير الدفاع اللواء مصطفى طلاس .

وانني أعرف شيئاً واحداً ، وهو أن الشعب السوري قد خرج من المحنة أكثر عزيمة وصلابة ، وواثقاً بقوته، وفيها تعززت عزيمته لوصول لتحرير الارض المغتصبة عن طريق الحرب ، أو السياسة أو عن طريق الدبلوماسية ، ولحصول الشعب العربي الفلسطيني على حقوقه المشروعة وفيها كذلك تعززت عزيمة الحفاظ على النظام التقدمي في بلاه ولبناء المجتمع الجديد على الارض السورية المقدسة على أساس العدالة الاجتماعية .

ولقد تبين في هذه الحرب بالذات الأهداف الاسرائيلية الحقيقية في هذه المنطقة من العالم وهو قلب الأنظمة العربية التقدمية ، وعدم السماح ببناء الاشتراكية في هذه المنطقة.

ففي وقت الغارات على سوريا ، قصف سلاح الجو الاسرائيلي بالدرجة الاولى المراكز الصناعية التي تشكل القاعدة المادية التكتيكية لبناء الحياة الجديدة في سوريا ، وهي معامل تكرير البترول ومستودعات البترول والمحطات الكهربائية والموانىء البحرية والطرقات والجسور .

ولكن لايوجد قوة تستطيع أن تحيد الشعب عن طريقه الذي اختاره في هذه الأيام فالسوريون قد بدأوا يتابعون تعزيز القدرة الدفاعية للبلاد ولاعادة الحياة الاقتصادية التي أصابها التلف نتيجة للأعمال الحربية .

ومرة أخرى نحن السوفييت نقف الى جانبهم كتفاً الى كتف .

وأن رسل بلد لينين يقومون بواجبهم الاممي .

ومنذ مدة كنت في مدينة الثورة – الذي يشيد فيها التمثال الرمزي الابدي لصداقة السوفييتية – السورية . ولقد حضرت اجتماعا للخبراء السوفييت والذي تقرر فيه وبغض النظر عن جميع الصعوبات، تركيب التوربينات الثلاثة الاوائل لمحطةالكهرباء لسد الفرات في شهر كانون الاول من العام الماضي . وهذه العلاقة بالعمل صفة من صفات الخبراء السوفييت الاخرين الذين يعملون في المشاريع التعاون الاقتصادي والتكنيكي بين الاتحاد السوفييتي وسوريا .

ولقد بدأت انطباعاتي عن آخر الاحداث في سوريا بالامثال وأريد ان انهيها بالامثال ايضاً والتي تصلح بها اللغة الروسية والعربية : « فتش عن الصديق قبل الطريق » .

وسوريا وقد اختارت طريقها فهي وجدت لنفسها صديقاً مخلصاً ووفياً وسيبقى مخلصاً لهذه الصداقة والى الابد .

يرجى من الشعراء محمد علي شمس الدين ومحمد القيسي ، وخالد الخزرجي ، موافاة « المعرفة » بعناوينهم لكي يصار إلى تحويل مكافأة مستحقة لهم .

«فزاع طيور آخر» (*)

محيي الدين صبحي

شيئاً فشيئاً تفقد الكلمات معانيها الاساسية حين يتحدث الغرب عن الصراع العربي – الاسرائيلي ، وعن مواقف الاسرائيليين المتذبذبة من هذا الصراع الدامي الطويل ...

ومن عجب أن فقدان الكلمات لمعانيها لا يوحي للغربيين الا بمزيد من التهديد والوعيد للعرب . فهم يقولون لنا : الانتخابات الاسرائيلية على الابواب – في آخر يوم من ١٩٧٣ ، واذا لم تسرعوا بالتفاهم مع حكومة حزب العمل « اليسارية » – مائير ، دايان ، ايبان – فان البديل لها في نظر الناخب الاسرائيلي « حكومة يهيمن عليها الائتلاف اليميني « ليكود » ويرأسها مناحيم بيغين » (١) .

(*) – العنوان مقتبس من عنوان قصة للسيدة غادة السمان ، نجد أنه مناسب للحديث عن الشخصيات التي يهدد بها الغرب العرب .

١ – « التايمز » ٢٠ كانون أول – عن « البعث » ٢٥ كانون أول .

هذا الكلام الذي يردده الغرب كله ، ينطوي على معنيين كل منهما يفضح الغرب ويدينه ، المعنى الأول هو أن ارادة الناخب الاسرائيلي - في نظر الغرب - هي التي تحدد في نهاية الأمر قضايا الحرب والسلام ومن ثم مصير المنطقة العربية . والمعنى الثاني ، هو أن على العرب أن يصفحوا عن مجرمي الحرب الاسرائيليين الذين دبروا عدوان الخامس من حزيران وعاشوا في المنطقة العربية فساداً طيلة ست سنوات يزرعون الرعب والدمار - لا أن يصفح العرب عن هؤلاء فقط ،بل وأن يتنازلوا أمامهم تنازلات تثبت مكانتهم في مجتمعهم بعد أن زعزعتها حرب رمضان وحرب النفط .

عند هذا الحد تفقد الكلمات معانيها ، وتصبح « الفيلولوجيا » و « السيمانتيكس » الغربيتان مثل « الكلامولوجيا » عند أجهل المنظرين العرب الذين يتناسون المنطق المرحلي في كل القضايا التاريخية ويسترون سوء نيتهم بالمزاودات التي ظاهرها التشدد وباطنها الصراع من أجل السلطة .

فقد كان دايان مارس الحرب الذي لايقهر ولايلين ، فلما ثلمت هيبته حرب رمضان وأدرك الغرب أن العرب اجترأوا عليه ولم تعد قبضته ترهب العرب أكثر مما تهدد الاسرائيليين أنفسهم بالدمار ، لجأ الغرب إلى التلويح بقبضة أخرى يزعم أنها أكثر بطشاً وأشد قسوة وأعظم سطوة وتصلباً .

ونحن - العرب - الذين عانينا نسف الطائرات المدنية ، واقتحام البيوت وقتل الناس في مضاجعهم ، وانتهاك الطيران الاسرائيلي لأجوائنا ، خارج أيام الحرب ... لانظن أن « الصقر » اليميني الجديد «بيغن» يستطيع أن يتجاوز في عنصريته واستعلائه وتوسعيته « الصقر » اليساري القديم « دايان » إلا إذا تجاوز الدعم العسكري الأمريكي خاصة والغربي عامة في أيام بيغن ماتجاوزه في أيام دايان ، بعد عدوان حزيران - وهذا لن يكون إلا بارسال قوات أمريكية تحارب العرب جنباً الى جنب مع القوات الاسرائيلية .

ذلك أن الطبقة العسكرية التي تفتح شراهة المجتمع الاسرائيلي للأراضي العربية لن تتغير بتغير الحزب الحاكم ، بل سيكتشف بيغن أن دايان أقرب إليه من عزرا وايزمان أو اريل شارون، وسيكتشف المجتمع الاسرائيلي أنه لم يغير شيئاً بتغير الصقور التي يراهن عليها ؛ وتظل القضية لدى اليمين واليسار الاسرائيليين معلقة بمدى الدعم الأمريكي - الغربي لاسرائيل ؛ وشدة التضامن العربي، ومدى الجاهزية العربية لتلقين

« اليمين » الجديد الدرس الذي تلقاه « اليسار » القديم : وهو أنه لا الناخب الاسرائيلي ولا الصهيونية يستطيعان أن ينفردا بتقرير مصير المنطقة بمعزل عن ارادة المقاتل العربي والمجتمع العربي والدولي من ورائه .

إن أجهزة الاعلام الغربية – واذاعة لندن العربية بخاصة – تصور نتائج الانتخابات وكأن كل تغيير في الصيغة البرلمانية الاسرائيلية هو تغيير نحو الأسوأ تجاه السلم والمصالح العربية . إن هـذا التحليل الغربي ينطوي على مغالطتين يراد لها ان تنطليا على المواطن العربي : المغالطة الأولى ، هي أن بين القوى السياسية الرئيسية في اسرائيل خلافاً جذرياً حول موقفها من العرب ، والمغالطة الثانية هي أن في اسرائيل برلمانية ذات حزبين – فضلاً عن أن المغالطتين تقومان عـلى أكذوبة ضخمة يصعب ابتلاعهـا ، وهي أن اسرائيل : دولة مستقلة ، يتقرر مصيرها في داخلها لا في دوائر البنتاغون والمخابرات الأمريكية ، ومخططات حلف الأطلسي !!

فاذا تجاوزنا – فرضاً – قضية ان اسرائيل دولة يتقرر مصيرها خارجهـا ، نجد أن من المناسب تحليل المغالطتين المذكورتين ، ومبتدأً بالمغالطة الثانية لأنهـا ذات طبيعة كمية تفضي بنا الى المغالطة الأولى ذات الطبيعة النوعيـة : بينت نتائج الانتخابات الاسرائيلية أن حزب العمل الاسرائيلي الحاكم خسر خمسة أصوات انتقلت من اليسار الى كتلة (ليكو د) اليمينية المعارضة . فاذا كان الفرق بـين النصر الاسرائيلي في عدوان حزيران وبين الهزيمة الاسرائيلية في حرب رمضان خمسة أصوات ليست جديرة يتكبدها الحزب الحاكم ، فما أهون هذا الفرق : إن خمسة أصوات ليست جديرة بتهديد مصير السلام في منطقة حساسة ومتفجرة كمنطقة الشرق العربي (ويطلق عليها الاستعمار اسم « الشرق الأوسط » أنـكاراً لعروبتها) . كما أن خمسة أصوات « يعاقب » بها الناخبون قيادة مهزومة أو « يكافئون » بها قيادة منتصرة – بالاضافة الى أن هذه الأصوات الخمسة قد تكفي لاسقاط حكومة ولكنهـا لن تكفي أبداً لجر حكومة وشعب الى حرب غير مضمونة النتائج أي ان هذه الأصوات الخمسة لاتكفي لتأليف حكومة حرب – فهي مكافأة هزيلة أوعقوبة سخيفة لأنها لاتتناسب في الحالتين مع حجم الأحداث الجارية .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان اسرائيل لم تكن خلال الخمس وعشرين سنة الماضية تتمتع ببرلمان من حزبين . ففي اسرائيل أكثر من عشرين حزباً استطاع

معظمها أن يضع ممثلا له أو أكثر في الكنيست الاسرائيلي ، مما جعل كل الحكومات الاسرائيلية حكومات ائتلافية وجراجة لتكيف بحسب المراحل التي يخططها لها الغرب .

أما المغالطة الاولى التي تفترض وجـود خلافات جذرية بين القوى السياسية الاسرائيلية الرئيسية ، فانها مغالطة يدحضها التاريخ والقريب والتاريخ البعيد على حد سواء . لنعد الى مابين الخامس من حزيران ١٩٦٧ والخامس من تشرين ١٩٧٣ ، فنجد مربع مائير ـ دايان ـ آلون ـ ايبان من حزب العمل (اليساري) : ولقد كان متشدداً في موقفه من قضية اعادة الاراضي العربية الى درجة أنه فرض حالة الحرب على المنطقة العربية ست سنوات لا يخلو يوم فيها من ضرب مدرسة او اغارة على مطار أو اغتيال كاتب او شن حملة او عملية انزال . وهذا الحزب نفسه الذي عرف كيف يسدد الرمي على الاهداف العربية ، عجز تمام العجز خلال السنوات الست أن يقدم مشروعاً للسلام او يرضى بأحد المشاريع الكثيرة التي عرضت من اجل السلام . وهذا وحده دليل على النوايا الحقيقية غير المعلنة، دليل قاطع، تدعمه التصريحات والمشاريع الاسرائيلية: مشروع آلون لاحتواء الضفة الغربية بانشاء المستعمرات على نهر الاردن وشرم الشيخ . مشروع دايان بانشاء المدن على تخوم سيناء واحتواء قطاع غزة ـ هذا عدا عن التصريح المتكرر بأن القدس والجولان ليسا موضع مساومة . ومن يعد الى المشروعات الانتخابية التي اعلنتها الاحزاب قبيل حرب السادس من تشرين يدهش لهذا التماثل في الشراهة والتصلب بين (اليمين) المزعوم و(اليسار) المزعوم. إنها تستحق وحدها دراسة تفصيلية تتولاها احدى المؤسسات المعنية بالدراسات الفلسطينية . فهذه المشروعات وحدها دليل للتفريق ـ أو لعدم التفريق ـ بين (الصقور) و (الحمائم) . انتوقيت الحرب الرابعة توقيت عبقري من حيث انه سمح للاحزاب الاسرائيلية أن تكشف عن نواياها التوسعية ومخططاتها العدوانية ثم أجبرها على ابتلاع هذه النوايا السيئة ، ولو موقتاً .

ان المغالطة الكبرى التي يحاول الاعلان الغربي ان يقدمها للعرب وهي ايهامهم بأن هنـاك « صقوراً » و « حمائم » . أو بأن في اسرائيـل خلافاً على التوسع في الارض العربية . والحقيقة العارية هي أن الجميع متفقون على التوسع ، والخلاف الوحيد على كيفية طرد العرب من أراضيهم : مناحيم بيغن ينادي بمذابح تشبه مذابح دير ياسين وكفر قاسم . دايان يرى أن اعتماد الصناعة الاسرائيلية على اليد العاملة العربية أمر لا

يخل بمبدأ الدولة اليهودية ، طالما أن هؤلاء العرب محرومون من حقوق المواطن والعامل على السواء . أما الأرض ، والمزيد من الارض ؛ أما اذلال العرب واستعبادهم ، فهذا ما لا تختلف عليه القوتان الرئيسيتان في اسرائيل ، « حزب العمل » و « ليكود » .

قلت ان الاعلام الغربي يحاول أن يخيف العرب ببيغن واليمين ، عن طريق تصوير « حزب العمل » بأنه « يساري » و « لين » تجاه العرب. ان حزب العمل يفتخر بأنه منذ اعلان اسرائيل الى الآن وهو يقدم لاسرائيل رؤساء الحكومات : بن غوريون ، ليفي أشكول، غولدا مائير . فأما بن غوريون فهو الذي يقول في كتابه « بعث اسرائيل ومصيرها » ما معناه – ان على الولايات المتحدة الامريكية أن تساعد اليهود على اقامة دولة في الشرق الاوسط على أنقاض العرب مثلما أقام المهاجرون الانكليز دولة الولايات المتحدة في القارة الامريكية على أنقاض الهنود الحمر. جاء هذا في مقال نشره بن غوريون عام ١٩١٦ . وقد كان وفياً لفكرة الابادة تلك سواء حين كان رئيس عصابة «الارغون» أو حين ترأس جميع العصابات الصهيونية ليشكل منها « دولة » . ان عهد بن غوريون هو عهد المذابح ضد العرب : عهد دير ياسين وقبية وكفر قاسم . وهو عهد « فضيحة لافون » وعهد « عدوان السويس » وعهد الغزوات المتلاحقة على الجبهة السورية حين كانت تتمركز في هضبة الجولان السورية. أما عهد ليفي أشكول فهو عهد تجفيف الحولة وبحيرة طبريا وتحويل نهر الاردن ، وما رافق كل ذلك من تهديدات واستعدادات خفية انتهت بعدوان حزيران . وليفي أشكول هو الذي أعلن « اسرائيل الكبرى » ، وهو الذي دفع ابان عام ١٩٦٦ ، حين أوشك الاستعداد الاسرائيلي – الامريكي للعدوان أن يكتمل ، الى التصريح بأن العرب في كل حرب سيطالبون بحدود الحرب السابقة !! أما غولدا مائير فعهدنا بتصريحاتها قريب ، وعهدنا أقرب بتهديدها : سنهدم مدنكم على رؤوسكم ، سنحرق قراكم ، سنهد مصانعكم، سنحتل دمشق والقاهرة وعمان وبيروت... هذا كلام أذاعته اذاعة اسرائيل من أول يوم الحرب . وهو ان لم يتحقق فلأن تحقيقه كان مس· ‍ ‍ تحيلا لا لأن « الحمائم » « اليساريين » من زعماء حزب العمل يمتنعون عن ذلك.

· اذا لم تكن اسرائيل دولة ذات حزبين، واذا كان الحزبان الرئيسيان فيها متفقين على التوسع وضرب العرب أشد ما يكون الضرب بواسطة الآلة العسكرية الاسرائيلية – الامريكية ، وبعبارة اخرى : اذا كان الحزبان الرئيسيان متفقين على وضع اسرائيل في خدمة الامبريالية الامريكية مها تعارضت مصلحة هذه مع المصالح البعيدة للشعب الاسرائيلي ، واذا كان الفرق في تقدير الهزيمة والنصر في نظر الناخب الاسرائيلي تحولا

في خمسة اصوات ، واذا كان ماضي « حزب العمل » لايؤهله للفوز بلقب « حمائم » ، فكيف تصدق أنهم « حمائم » ؟ سيقال انهم « حمائم » بالقياس الى غيرهم من الاحزاب الاسرائيلية : رابوع « مائير – دايان – آلون – ايبان » حمائم بالنسبة الى ثالوث « مناحيم بيغن – عزرا وايزمان – ارييل شارون » . الى هذا الحد يحق لنا أن نتساءل : أوليس السلوك هو الذي يحدد الفرق بين « الحمامة » و « الصقر » ؟ فان كان كذلك، فماذا يبقى بعد كل ما ارتكبه حزب العمل من جرائم ؟ ماذا يبقى بعد أربعة حروب وعشرات المذابح ومئات الانتهاكات وآلاف الاعتداءات ؟ سيقال – وهذا ما تتولى أجهزة الاعلام الغربية نشره – يبقى الموقف : حزب العمل يرضى بالمفاوضات من حيث المبدأ وحزب ليكود يرفض الدخول في مفاوضات مع العرب ، من حيث المبدأ . ولكن ألم تكونوا – أعني الاسرائيليين والغربيين – تقولون ان العرب هم الذين يرفضون المفاوضات ولم تكونوا تذكرون أن في اسرائيل من يرفض المفاوضات !!

هنالك أيضاً في اسرائيل قوة ثالثة لم يحن أوان ذكرها بعد ، وهي « الحزب الديني » أو « الأحزاب الدينية » ، وهي تملك عشرة مقاعد في الكنيست . هذه الفئة لامجال لمخلوق في التفاهم معها لأنها تنطق باسم الخالق : ان يهوذا « الاقطاعي قبل خمسة آلاف عام » قد وعد الشعب المختار بكل الاراضي الممتدة بين الفرات والنيل . ثم جاء بن غوريون (من حزب « الحمائم ») فسن مبدأين ١ – حدود اسرائيل هي حيثما يصل الجندي الاسرائيلي » ٢ – « لن نضحي على مائدة المفاوضات بما كسبناه في ميادين القتال »(١) فتعانقت مشيئة « الرب » بأسلاب أبنائه » .. ولذلك فان التنازل عن الأراضي المحتلة أمر لايملكه غير إله اسرائيل – وكيف للعرب أن يجلبوا مثل هذا الاله الى مائدة المفاوضات ؟؟

* * *

عند هذا الحد تفقد الكلمات معانيها ، وتصبح « الفيلولوجيا » و « السمانتيكس » الغربيتان مثل « الكلامولوجيا » عند أجهل المنظرين العرب – ويتوجب علينا أن نعود من منطق الاعلام الغربي الى منطق الحقائق والوقائع ، لأن مناقشة الاحتمالات لاتعود علينا بشيء ذي طائل – أو أن مناقشة الاحتمالات يجب أن تتم بعد عرض الوقائع

---

١ – د . أسعد رزوق ، « اسرائيل الكبرى » نشر مركز الأبحاث

١ – ان اسرائيل تحشد الآن كل الأفراد القادرين على القتال في شعبها بحيث لم يعد فيها حق ولا سائقي سيارات الشحن أو حمالين . مثل هذا الوضع لن تطيقه اسرائيل لأكثر من شهرين آخرين ، قيادة وشعباً . وهذا يضعها أمام احتمالين : آ – أن تشن حرباً في الربيع . ب – أن تقدم التنازلات الكفيلة بالتوصل الى تسوية سلمية يبدأ تنفيذها قبل الربيع القادم .

٢ – إن النصر أو الهزيمة لم يغيرا كثيراً في ميزان القوى السياسية الاسرائيلية ، طالما أن هذه جميعها تتفق على العداء المطلق للعرب ، وهذا مايضعها ايضا امام احتمالين : آ – ان تؤلف حكومة ائتلافية ، فتكون حكومة سلام لاتضم تجمع ليكود اليميني . ب – أن يدفع الغرب مناحيم بيغن الى السلطة لشن حروب جديدة بدعوى أن اليمين متصلب وليس الغرب إلا أن يطيعه . وهذا يوصلنا الى :

٣ – أن مقاليد الأمور في اسرائيل هي في يد الولايات المتحدة الأمريكية ، وأنه لا اليمين ولا اليسار بقادرين على أن يكونا غير دمى تتحرك لخدمة الأهداف الامريكية في المنطقة العربية .

فهل تخرج أمريكا من جعبتها اليمين الاسرائيلي لتتابع باسمه مقاتلة العرب، وتجعل من مناحيم بيغن فزاع طيور آخر ، بعد ان بطل سحر دايان ؟

هذا هو السؤال .


يانصيب المعرض
يقدم
لصاحب الحظ
١٥٠,٠٠٠ ل.س
٦٠,٠٠٠ ل.س
٣٥,٠٠٠ ل.س
٢٥,٠٠٠ ل.س
يجري السحب كل يوم ثلاثاء من كل اسبوع